رواية

محمد آدم

قلب

على ضفاف الدانوب

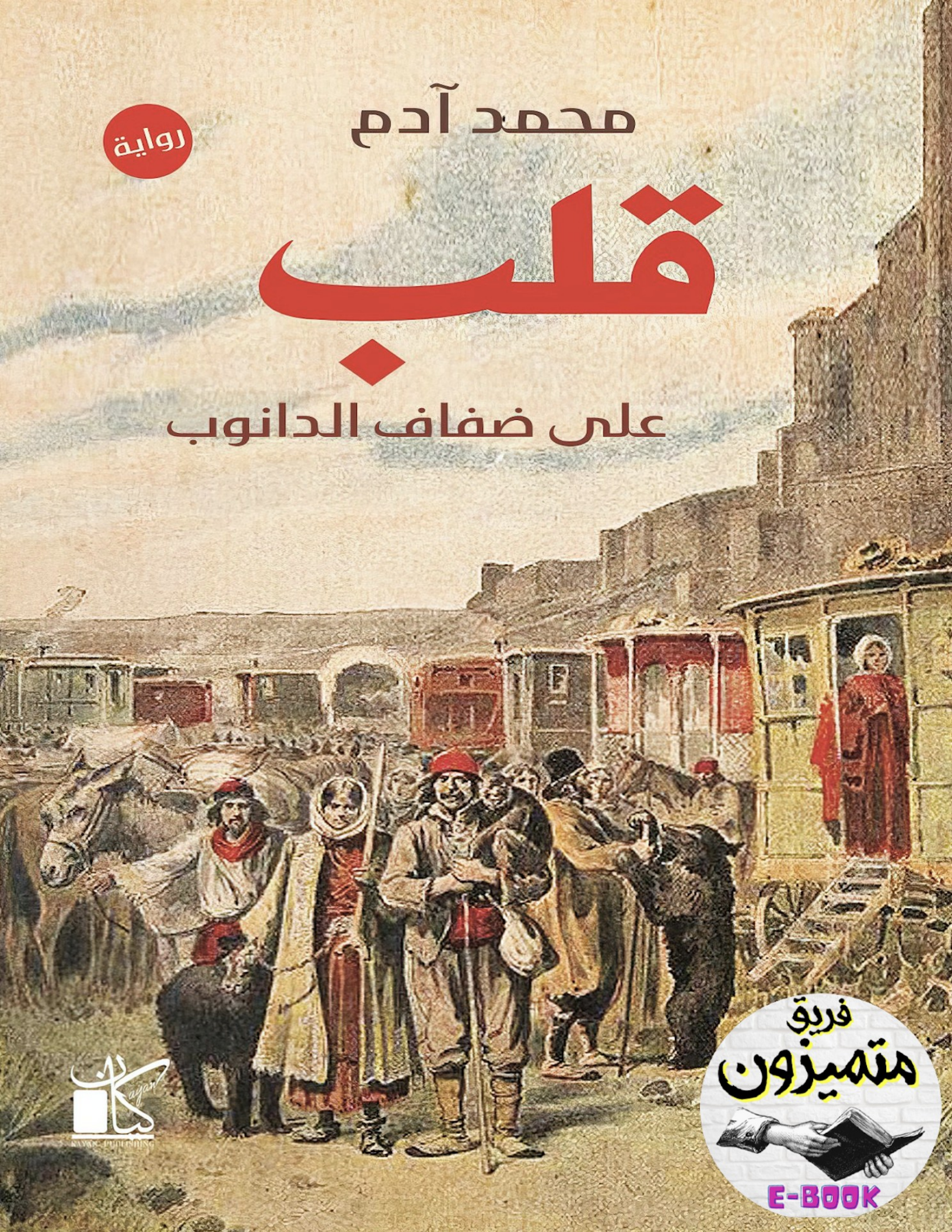

فريق متميزون
E-BOOK

مكتبة فريق (متميزون)

لتحويل الكتب النادرة الى صيغة نصية

قام بالتحويل لهذا الكتاب:

كلمه مهمة: هذا العمل هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.
وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات: فريق -متميزون-

انضم الى الجروب

انضم الى القناة

قلب..
على ضفاف الدانوب

رواية..

الكاتب: محمد آدم

إهداء

إلى السُّلطان العاشر لآل عثمان، الخليفة الخامس والسبعين للمسلمين، أقوى ملوك الخلافة، خان الخانات، برهان الخواقين، سُلطان البرين والبحرين، سلطان المثقفين، مثقف السلاطين، سلطان السلاطين، السُّلطان المعظّم: «سُليمان خان بن سليم خان بن بايزيد خان بن محمد خان الثاني أبو الفتوح بن مراد خان الثاني بن محمد الأول چلبي بن بايزيد خان الأول بن مراد الأول بن أورخان غازي بن عثمان غازي بن أرطغرل غازي بن سُليمان شاه».

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

تَوْطِئَة

«في الزمان القديم، قبل ميلاد حضرة عيسى عليه السلام بعقودٍ بعيدة؛ كانت هناك بلدة من بلاد الرافدين تُدعى شِنعار، حكمها أوّلُ الملوك الأربعة الذين ملكوا الأرض، تكبّرٍ وتجبّر، ليصبح أوّل طاغية يضع تاجًا على رأسه، وكما يقول القدماء لم يكُن موحِّدًا، ويدعونه «نِمرُود بن كنعان بن كوش». وثانيهم ولم يكُن موحّدًا أيضًا، يُقال له «نبوخذ نصر» الكلداني، ملك بابل الذي أذلّ بني إسرائيل وسباهم.

أمّا الاثنان الموَحِّدان، فأولهما يُدعى «ذا القرنين» مَلِكُ حِمْيَر، وقيل مَلِكُ الحيرة بالجزيرة العربية القديمة، والثاني هو أعظمهم جميعًا وملك ملوك الأرض قاطبة، ملكُ الثَقَلَيْن، أحكم الحكماء، «سُليمان عليه السلام».

وإنّي أرى أنّه يمكن إضافة ملك خامس إلى هؤلاء، لترجح كفّة الموحدين بثالث، ملكُ البرَّيْن والبحرَيْن، حاكم العالم، الذي عاصرتُ عهده، والتقيتُه، ورأيتُ ما فيه من هيبة الملوك وعزّهم وحكمتهم ووقارهم وطاعتهم، وسخاءه وإجلاله للشيوخ، وتوقيره للعُلماء، واهتمامه بالجهاد والتشييد والعُمران، وكافة أعمال الخير التي لا تُحصى كثرة».

كَمانگير سُليمان أفندي

رحالة ومؤرخ وترچمان ونشّاب

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

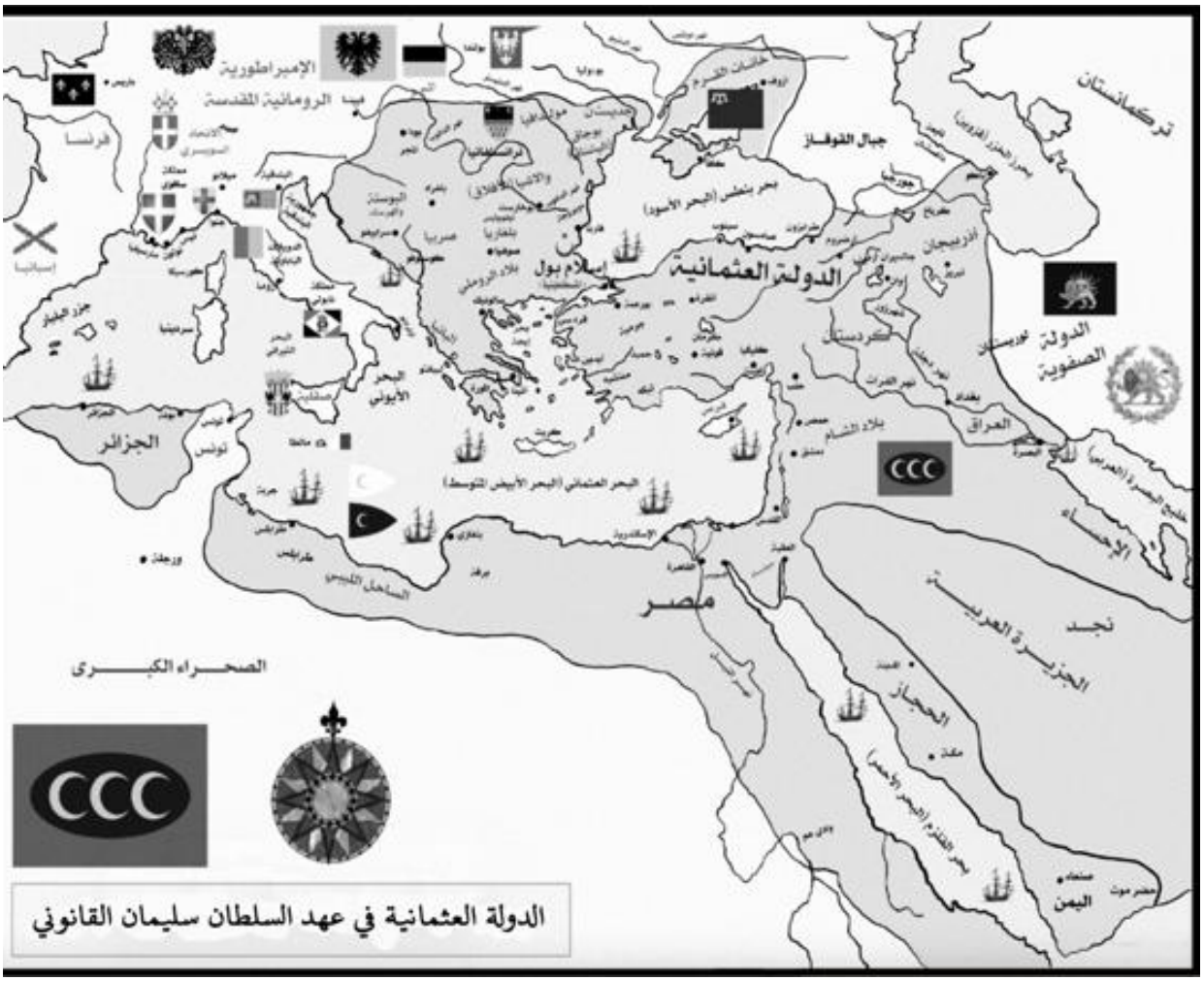

الدولة العثمانية في عهد السلطان سليمان القانوني

-١-

مَجَرِستان؛ ٩٤٧ ه

«كُن قُرب الغِناء فالأوغاد لا يُغَنُّون».

انحنى «جابر» وهو يدخل أمامي من باب أوّل حانة وجدناها، بعد مشقة الطريق. انتشرَت الطاولات والكراسي الخشبية في الباحة، يصلُها سُلّم خشبيّ بطابق علوي، يفصله عن فضائها سورٌ خشبيٌ رفيعٌ، عُلقت عليه لافتة خشبية كُتب عليها بالمجَرِيَّة «المال أولًا، ثمّ الجسد»، تتكئ عليه العاريات، ضحكاتهن الرقيعة تتآلف مع جلبة السكارى. استغفر وحَوقل وأغمض عينيه الضيقتين، وجلس يولِّيهن ظهره، ثم أجلسني كالطفل على كرسي آخر بجانبه، وفرد رجليه تحت الطاولة، فظهرت قدماه الكبيرتان من الجهة المقابلة. لا أعلم من أين أتى بتلك القدرة على الاستغناء عن الطعام؛ لو لم نجد هذه الحانة لكنتُ ميتًا من ضحايا الجوع. لم أكن مرتاحًا في ذلك السروال الأحمر الضيّق، ولماذا عليّ ارتداء تنّورة من الأساس؟! علاوة على أنني لم أكن قد اعتدتُ بعد على ذلك القميص الكتّانيّ الأخضر، المكشكش، منخفض العنق، مطويّ الأكمام، عجبًا لهؤلاء الهنغار، كيف يتحركون بحريّة في هذه الملابس؟! لم تعجبني ذائقتهم، ولكن لابُدَّ لنا من الظهور كالهنغاريين. «جابر» بدا غير مرتاح هو الآخر بسبب لباسه، خاصة نعلي حذائه المدببين، بصعوبة بالغة استطاع الخرّاز صنعه له، بذل من الجلد ما يكفي لصناعة ثلاثة أزواج من النعال لإنسان طبيعيّ، ولكنه ليس عاديًّا، إنّه «جابر» العملاق. ظلّ يعبث بقلنسوته الصوفية المصبوغة بالأسود متأفِّفًا، حين جاء النادل متحاشيًا الاصطدام بقدميه، يرسم ابتسامة مصطنعة ووجهه يرتجف نصفه، بينما يحاول أن يتفادى النظر إلى وجه رفيقي العابس الحالك.

- بم نخدمكما يا سَّادة؟

ابتسمتُ، وقبل أن أجيب باغتني «جابر» متوقعًا سؤال الرجل، وقال بصوته الغليظ: - قل له.. رغيفَي خبز، وطبقَي أرز، وطبقَي حساء، وقطعتَي دجاج.

نقلتُ ما طلب للنادل، الذي نظر له مندهشًا قبل أن يسأل: - أيكفي هذا العملاق الأسود طبقٌ واحد من الأرز؟!

وقبل أن يرفض «جابر» - الدقيق في توقعاته، كمهارته في اقتفاء الأثر وقراءة خرائط النجوم- باغتُّه أنا: - أريد صدورًا..

امتقع وجه النادل، ثم تنحنح ونظر نحو «جابر» وكأنه يستأذنه أن يبتسم، وتساءل متلعثمًا: - أيّة صدور يا سيدي؟

انفجرتُ في الضحك، فجاملني النادل ضاحكًا، لكن ابتلعَت نظرات «جابر» الغاضبة ضحكاته، فقطعها خوفًا من أن يأكله. قلتُ ولا زلتُ أضحك: - صدور الدجاج. سنتحدث عن الصدور الأخرى بعد تناولنا للطعام.

ولأنّ صديقي لا يفهم المجرية، كان غاضبًا، لأنّه يعلم تمام العِلم أنني أتحدث مع الرجل عن شيء لن يعجبه. أسرع النادل بالذهاب، ونظرات «جابر» نحوي تقذفني بالكثير من الأسئلة، ثم عاد فوضع ناظريه فوق الطاولة، وفضّل انتظار الطعام على الحديث معي.

لحظات، واقتحم المكان رجلٌ يرتدي زيًا مزركشًا، يبعث على السخرية، نفخ في بوق يحمله نفخات طويلة مزعجة، أجبرَت كل من يأكل على التوقف، وقال بالمجرية: - انتباه، اسمعوا وعُوا يا سادة.. من لم يرَ القمر، سيراه الليلة.. بعد قليل، تهلّ علينا بطلعتها البهيّة جميلة جميلات أوروبا، سيدتي وسيدتكم وسيدة نساء العالم: «ماريا»..

سكن صخب الملاعق والأطباق والأقداح، واختفى ضجيج المضغ والارتشاف داخل الأفواه المغلقة.. تبخّرَت الضحكات الرقيعة، تجرّ ذيول قهقهات السكارى، ولا صوت يعلو فوق صوت المعازف ودفقات الدفوف، رنّات الصاجات المصاحبة لضربات أصابع ماهرة على أوتار قيثارة تبعث بنغمات عذبة تُجبر المنصت على التسلطُن رغم سرعتها، ورنين الخلاخيل الغجرية يغزو الروح بشعور ساحر، ويهيِّئ الرجال للإغواء. اعوجّت الرؤوس فوق الأجساد محاولة الاتجاه إليها، وقطعت أنفاس العالم عند دبدبات قدميها ورنّات خلخالها فوق إحدى الطاولات، ترفع ذيل تنورتها القرمزية المنتفخة المزركشة الأطراف مفتوحة الجانبين، وهي تتمايل بجسدها وتلوّح هنا وهناك بذراعيها البرونزيتين المزينتين بأساور ذهبية لامعة، ثم ترفع إحدى ساقيها الممشوقتين، فيُقبّل خلخالها صاحب الطاولة سعيد الحظ، ثم تدور وتدور في مكانها كالإعصار، فتصنع دوّامات عاصفة، وبرشاقة تقفز كغزالة بريّة على الأرضية، تدبدب بسرعة وتدقّها دقًا، لتكمل رقصتها الخزعبلية.

احمرّت الوجوه، وذابت الأرواح، وحُنّطت الأجساد، سحرَتهم الغجرية الفاتنة. سحرتني كذلك، فأنا بشر، لكنني أبدًا لم أتوقع أن تسحر «جابر»!.. مسكين هو، لا يجيد التعامل مع النساء، ولم يلمس امرأة من قبل، أخذ على عاتقه طرد العثمانيين من بلادنا، ووهب حياته لذلك.. لكنّه تغيّر الآن، كما أرى!

تعالى التصفيق ليغمر المكان بجنون، لقد قذفتهم الفاتنة السمراء بسحرها، وقذفتنا.. أذهلتهم، وأذهلتنا.. أضاعتهم، وأضاعتنا. نظرات الأعين القططية العجائبية، عين غارقة بلون العسل، والأخرى بلون البحر انبعث منها هدير موجٍ جارف، في تباين عجيب كاد يفتك بنا. أفتاة هي؟! الأمر جد محير إلى

أقصى درجة.. أثلاثينية تختبئ في قوام عشريني رشيق، أم أربعينية تمتلك سحرًا ثلاثينيًا.. أم جِنِّيَّة؟!

قَطَع كل السحر فجأة ارتطام الباب ودخول حفنة من أصحاب الملابس العسكرية خلف قائدهم، قبعاتهم فوق رؤوسهم وبنادقهم في أيديهم، فتجمدت صانعة الدوّامات في مكانها، وكل من كان يحدق فيها كاد يلصق وجهه في الأطباق على الطاولات. ولأنني لم أكن أفهم شيئًا، أخذتُ أحدق في الوافدين، بينما اختفت الغجرية وفرقتها من المكان بسرعة، وكأنهم لم يكونوا هنا من الأساس. ما يقرب من عشرين جنديًا، انتشروا أربعات على خمس طاولات، لا يأبهون لأحد، واتخذوا أماكنهم في فظاظة، وكان النادل متجمّدًا إلى جواري، فسألتُه بصوت خفيض عمَّن يكونون، فانحنى وأجابني متلعثمًا بصوت بالكاد سمعتُه إنهم جنود نمساويُّون.

- «إدڤارد».

بصوت خشن مصحوب بشخير متنمّر، ناداه صاحب القبعة الأكبر المميزة، وهو يخلعها عن رأسه ويضعها بسماجة فوق الطاولة، ويعدل من وضع خصلات شعره بمسحها من الأمام إلى الخلف، فتركني النادل، يكاد يسقط متعثرًا في قدميه المرتجفتين، وراح يستمع له ويهزّ رأسه منتبهًا لطلباتهم، ثم انصرف بسرعة أكبر لإحضار ما طلبوا.

لم يكترث «جابر» بقدر ما اكترثت، لقد ألقى نظرة إليهم، ثم أكمل طعامه في تروٍّ، وكعادته احتفظ بالحساء للنهاية، ثم أخذ يرتشفه، وأنا أراقبهم على نغمات رشفاته. أحضر «إدڤارد» أقداح الجِعَة، ووضعها أمامهم مطرقًا، منتظرًا إشارة من الضابط، لينصرف. تقارعوا، شربوا، تضاحكوا، تحدَّثوا وتهامسوا، ثم تعالت قهقهاتهم. كل مرة يشير زعيمهم إلى «إدڤارد»، يهرع إليه بنفس رد الفعل، ثم ينصرف ويعود بأقداح جديدة يضعها أمامهم، فيتجرَّعونها بنهم، حتى سكِروا وصارت ضحكاتهم أكثر قُبحًا وفظاظة، ثم أصدر زعيمهم زفيرًا طويلًا مسموعًا، وأشار للرجل، فهرع إليه ككل مرة، لكنه هذه المرة لوّح بيده أن اقترب، فدنا منه خانعًا، فأسرَّ في أذنه بشيء، أسرع على إثره إلى الطابق الثاني، معتمدًا على السور الخشبي، بأعصاب منفلتة وقوّة خائرة.

عاد «إدڤارد» وخلفه الغجرية الفاتنة، مطرقة الرأس تبدو في غاية الحزن!.. تقدّمَت نحوهم مترددة، تقدم ساقًا وتؤخر الثانية، يحدِّق الضابط وجنوده فيها متفحصين كل تفصيلة بجسدها الجميل. أمرها بإشارة أن تدير ظهرها إليه، فأطاعت، واستدارت ببطء وهي مغمضة العينين، تحاول جاهدة ألّا ترتجف. عضّ على شفته السفلى وهو يتفحص مؤخرتها.. صفعها.. ارتجفَت وكتمَت

صرختها وألمها.. همَمتُ بالتحرك، فثبّت «جابر» قدمي بالأرض بكفّه الكبير الثقيل، وقال: - ليس هذا من شأننا، اصبر لنرى إلى أي مدى تصل الأمور.

تعالت ضحكات الأوغاد مستمتعين بفعل زعيمهم، الذي أمسك الفتاة من ذراعها وتحدَّث إليها، فهزّت رأسها رافضة، فنهض من على مقعده مغتاظًا، وجذبها إليه بعنف، وألصق رأسها بالطاولة، فسقطت أقداح الجعة أرضًا، ونهض اثنان من جنوده مبتسمين، فأمسكا بذراعيها يفتحانهما على مصراعيهما، وتطوّع آخران ليقوما بدورهما مع ساقيها، ففتحاهما وثبّتاهما بالأرض، بينما ابتسم الوضيع وهو يشرع في إنزال سرواله..

شعرتُ بالدماء تغلي في عروقي، نهضتُ من فوري ونظرتُ إلى «جابر»، الذي شعرتُ بفورانه هو الآخر، قلتُ له: - ماذا تنتظر بعد؟ الإتيان بها أمام أعيننا؟

صعدتُ مسرعًا إلى الطابق العلوي، جهّزتُ قوسي وأخذتُ وضعية التصويب.. نهض «جابر» غاضبًا، انقلبَت منضدتنا أمامه، وأمسك بالكرسيين الذين كنا نجلس عليهما وتوجه نحو الجنود، يزمجر وهو يطيح بزعيمهم بضربة بالكرسي، وبالمثل فعل بأحد اللذَين يمسكان ساقها. ترك الآخر ساقها الثانية، وسقط على مؤخرته من هول الصدمة، فركله رفيقي، فتزحزح ماسحًا الأرضية حتى وصل إلى طاولة أقرانه. ترك الآخران ذراعيها، ليحاولا الإمساك به، فركضَت الفتاة صاعدة تجاهي، واختبأت خلفي منكمشة على نفسها ترتجف. لم ألتفت إليها، ناظرًا إلى هدفي، وهو ذراع أحدهم قبل أن أطلق السهم إليه، لكنني قلت لها بالمجرية: - لا تخافي، لحظات قليلة ويصبح الوضع تحت سيطرتنا تمامًا، سنبعثر كرامتهم عقابًا مستحقًا لما أظهروا من وضاعة.

أطاح «جابر» بهم، طرحهم أرضًا الواحد تلو الآخر، كلما انتهى من أحدهم أشار إليّ بيده يعدّ ما أسقطه منهم، وأنا أقدم العون بالرماية قاصدًا إصابتهم لا قتلهم، وأتبادل معه الإشارات بالتعداد، مناصفة طرح عشرة منهم، وأنا العشرة الباقين، ما بين إصابات في الأذرع والسيقان. لم أكن أنوي فعل أكثر من ذلك، إلّا بعدما نهض زعيمهم شاهرًا بندقيته في ظهر صديقي، الذي كان يتابع ركلهم ولكمهم، كعادته لا يترك غريمه إلّا مغشيًا عليه. لقّم الوغد سلاحه، وقبل الإطلاق صوّبتُ سهمي بين فخذيه، فأصاب سهمي هدفه تمامًا كما أردتُ. سقطَت منه بندقيته، ووقع في أثرها ممسكًا مصابه، صارخًا يتلوّى أرضًا، متخبِّطًا على جنبيه، كسمكة خرجت من الماء تلفظ آخر أنفاسها.

راح «جابر» يتفقدهم، ولما تأكّد أنّ جميعهم فاقدو الوعي، توجّه نحوي يشير فاردًا كفّيه أن عشرة، ثم رفع سبابته أي أن مجموع ما طرحهم كان أحد عشر. أخذتُ أهدئ من روع الغجرية، التي أغمضَت عينيها وبكت على صدري كطفلة، غمرني شعور غريب على قلبي، بأنها تمنّت لو تذوب بين ذراعيّ وتختفي تمامًا.. تعلّقها بكتفي بقوّة من دون سابق معرفة، ودفء أدمعها التي بلّلت ردائي تخطّته إلى صدري، كل ذلك أعادني إلى ذات الشعور الأوّل الذي غمرني عند رؤيتها ترقص.

سبق «إدڤارد» صديقي إلينا، قال لاهثًا:

- عليكم جميعًا ترك المكان بأقصى سرعة، وألّا تظهروا في الجوار لفترة، حرصًا على سلامتكم، ما حدث الليلة لن يمرّ على خير، أتمنى من الرب أن يحميكم.

أومأتُ برأسي متفهّمًا، أخبرتُ رفيقي أننا يجب أن نختفي من الأنحاء، أخذنا أشياءنا وذهبنا إلى خارج الحانة، حيث كانت في انتظار الغجرية عربة خشبية يجرها بغل، يقودها أحد الغجر، بينما المهرّج ذو الملابس الغريبة أخذ الغجرية مني، يساعدها على الصعود. أطلّت برأسها وتحدثت إلينا: - ماذا تنتظران؟ هيا اركبا معنا..

نظرتُ إلى «جابر»، فلم تبدر منه ردة فعلٍ، ضربتُه على كتفه وأنا أتجه نحو العربة قائلًا: - هيا بنا، فإلى أين سنهرب وحدنا؟!

صعد في أثري، وانطلق السائق من فوره بأقصى سرعته.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

توقفَت العربة بعد مسافة قريبة من الغابة، بجانب عربات خشبية شبيهة، تتراص خلف بعضها بانتظام إلى جوار الأشجار. إلى اليمين، أرض شاسعة، ضرب فيها الغجر خيامهم، وسياج كبير من الخشب يحيط بدوابهم، ويتهادى إلى مسامعنا خرير نهير تفرَّع من الدانوب، حجبه صفير طويل مزعج لم يتوقف. نزلنا من العربة، توجَّهوا نحو الخيام ونحن خلفهم، رويدًا رويدًا ازدادت أعداد الخارجين من الخيام، فسألتها بفضول: - ماذا هناك؟

فقالت بصوت خفيض:

- الصفير يعني أنهم عرفوا ما تعرضنا له.

- وخروجهم بهذا الشكل الغريب؟

- هذا تضامنًا معنا.

تقدمَت نحونا عجوز طاعنة، غزا الشيب شعرها المنسدل على الجانبين، تختفي قسمات وجهها المليحة خلف خيوط الزمان، مرتدية ملابس فضفاضة مزركشة، وتضع فوق رأسها غطاءً مزركشًا تزيّنه النقود المعدنية التي لمعت تحت ضوء النجوم، وتبرز خارجه حلقتان كبيرتان من الذهب، بدت بعافية تحسد عليها، لو رأيتُ مثلها في الظلام وأنا وحدي لظننتُها جِنِّيَّة طَيِّبَة دون أدنى شك.

سألتُها هامسًا:

- من هذه؟

- «فوري داي».

- يعني ماذا؟

- هذه جدتي، وأكبر جماعتنا سنًّا، وسيدتنا جميعًا.

هرعَت العجوز إلى الفتاة تضمُّها إلى صدرها، ربتت على كتفيها وظهرها، تتفحصها، ثم تنهّدت، ونظرَت نحوي و«جابر»، وسألتها بلغتهم الخاصة التي لا أعرفها، بينما تحدِّق فينا بعد كل كلمة تنطقها الفتاة، ثم قالت جملة طويلة، ونظرت إلى السماء قليلًا تهتف بلغتهم، عاودَت النظر إلينا وهزّت رأسها.. والتفتَت ذاهبة.

سألت الفتاة:

- لا يهمني كل الحديث الذي دار بينكما، لكن يهمني معرفة آخر جملة قالتها عند التحديق طويلًا في السماء ثم النظر إلينا، ماذا كانت؟

ابتسمت ابتسامة متكسرة، تنهّدت:

- بعدما قصصتُ عليها ما حدث منكما من بطولة وشهامة في الحانة، قالت: «ولأننا النجوم العديدة المتناثرة أمام ناظري الرب؛ لم يتخلّ عنا، وأرسل إليكِ حارسَين من جنوده، لإنقاذك من أيدي خُدّام الهاوية»

ثم قالت.. «حق علينا استضافتهما وإحسان وفادتهما كأنهما من أبناء جلدتنا»

شعرتُ براحة تتغلغلني، وكأن المكان يحتضنني كوَطنٍ، برغم اللغة التي تعصى عليّ، وكل الغرابة المحيطة بنا. اقترب أحد رجالهم، وابتسم في وجهينا، وأشار بيده أن نتقدم، فتبعناه إلى خيمة بالكاد تتسع لصديقي، ما إن رآها دخل وألقى بنفسه على الفراء الذي يفترش الأرض، بينما قدماه تبرزان خارج الخيمة! وكالأرانب، نام فجأة دون سابق إنذار، لدرجة أنّ شخيره كان أسرع بكثير منه. ضحكت من شخيره في أريحية، ثم ودَّعتني بنظرة ممتنة،

ومشت على مهل عائدة إلى جدتها، وأنا أتابعها وأفكر أنّ ما حدث لها الليلة كفيل بعدم خروجها من خيمتها لعام على الأقل. سمعتُ الكثير عن وقاحة النمساويين، لكنني الليلة عرفتُها عن كثب، وقررت أنني لن أرحم نمساويًا وضيعًا ألتقيه في أي مكان، وفي أية مكانة كان.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أصابني الأرق، لكن ليس بقدر ما أصابني من كف «جابر»، الذي ما إن أراحه على وجهي وهو يتقلّب، حتى منع عني الأنفاس. المبيت بالخارج أفضل بكثير من النوم إلى جواره، خرجتُ أحاول الاستمتاع بالنسمات القادمة من ناحية النهر، تأخذني قدماي إلى ضفته. انحنيت أبلل كفي من مائه البارد، فأغراني الماء، فغسلتُ وجهي منتعشًا، ثم شرعتُ أخلع ملابسي لأستحم.

أهذه هي!.. أعدت ملابسي فوق جسدي سترًا، وأمعنت النظر.. هل أصابها الأرق هي الأخرى، فجاءت لتستحم؟ كانت مسترخية فوق الماء، في الغالب مغمضة العينين مستمتعة بما تفعل، وإن لم أعلن عن وجودي قبل اكتشافها ذلك، سيتبيّن لها دون شك أنني كنتُ أختلس النظر إلى جسدها الجميل المتوهّج العاري. ماذا عليّ أن أفعل؟ هل أتنحنح؟ فلأصدر أي صوت لألفت انتباهها لوجودي..

- أهذه ماريا؟!

انتبهَت إليّ فزعة، واضعة يديها لتخفي نهديها، تنظر نحوي صامتة تمامًا. قلتُ لها مطمئنًا: - معذرة.. لا تخافي إنه أنا، جئتُ لأستحم فوجدتُك.. و.. سأبتعد حتى تنتهين.. فقط نادني بعد انتهائكِ، اسمي «سليمان».. قولي «سليمان».. و.. س.. س.. سأكون هنا على الفور.

ذهبتُ، بعدما ارتسمَت على وجهها المليح ابتسامة بسبب توتّري الملحوظ، رأيتها في ضوء القمر. عدلتُ عن فكرة الاستحمام، واستعضتُ عن ذلك بمسح جسدي بالماء، في ناحية بعيدة عن مكانها، ولما انتهيتُ أخذتُ أتأمل وجهي المنعكس على سطح الماء، فإذ بشاربٍ خط طريقه بين أنفي وفمي، وانتشر الشعر من خدّي إلى ذقني، والشعر بين الشارب والذقن أبى أن يلتئم، لكنني علمتُ أنّ ذلك سيحدث مع الوقت، وكلّما تقدّم العمر بي ستصبح لحيتي أكثر كثافة وتناسقًا، مع بعض العناية، وبذلك أصير نسخة طبق الأصل من أبي، الذي قال لي من قبل إنني أذكّره بنفسه في صغره. تحسستُ الشعر بأناملي، وقطّبتُ مفكّرًا كم تغيّر شكلي كثيرًا!

بعد قليل، سمعتُ نداءها، فارتديتُ ملابسي بسرعة وهرعتُ إليها. رأيتُها تبتسم منتظرة، فابتسمت وقعدتُ قبالة النهر إلى جوارها. حرت فيما يمكنني قوله لأبدأ حديثًا لا يعكر هذا الصفو، فلم أجد شيئًا، فنظرتُ إلى

نجوم السماء، المتناثرة المتألقة في ليلة، هي فيها القمر الأكثر وضاءةً، وقد آنسَتنا نسمة عليلة تتراقص على خرير الدانوب. راحت تكوِّر قبضة من الطمي، ثم تلقي بها في الماء، اتسعَت ابتسامتها وهي تنظر إليّ وقالت: - أصابني الأرق، رغم تعبي الشديد، ويبدو أنكَ كذلك..

أومأتُ برأسي أن نعم، استطردَت:

- لا أدري كم يجب عليّ أن أشكرك كلما رأيتُكَ، مهما فعلتُ لن يفي قدركَ، ما بدر منكما ينم عن أنكما لستما من هذه الناحية، ولا هيئتكما كذلك.. في كل مرة يأتون إلى الحانة تتحول الليلة إلى جحيم أسوأ من يوم موهاتش. الوغد يستحق أكثر بكثير مما ألحقتَ به.

- أن يعيش بلا ذكورة أكثر عذابًا من موته؛ على الرغم من أنه يستحق ذلك، لكنني أضمن عدم معاملته النساء بمثل هذه الطريقة مرة أخرى.

ضحكَت، ضحكتُ بدوري، أخذَت ضحكاتها تتعالى.. لن أبالغ إن قلتُ إنّ ضحكاتها أعذب وأجمل ضحكات سمعتُها في حياتي على الإطلاق.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

تمشيّنا على مهل قاصدين الخيام، سألتني وهي تحتضن ذراعيها وتلتحف بغطاء ثقيل، كتفاها منكمشان قليلًا من أثر الهواء البارد، بينما شعرها الغجريّ يتطاير إلى الوراء منسابًا مع اتجاه الهواء، فيصيبني منه رذاذ كأنه العطر. نظرَت إليّ مبتسمة ثم نظرَت إلى الأرض وهي تقول: - أحضَرتَ قبل ذلك عُرسًا غجريًا؟

نظرتُ إليها وبالكاد لمحتُ جانب وجهها المبتسم وقلتُ: - أصلًا لم ألتقِ بغجرٍ قبل أن ألتقيكِ.

حدّقَت فيّ مطولًا ثم سألَت:

- ماذا تعرف عن الغجر؟

بدون تردد أجبتُها:

- دجالون ومشعوذون، يقرأون الطالع، يقومون بحركات بهلوانية عجيبة، ويعزفون القيثارة، إضافة إلى أنهم يقومون بأعمال السرقة والاحتيال، ويشتهرون بتربية الحيوانات واستخدام طب الأعشاب بمهارة منقطعة النظير، ويسرقون الوقت والقلوب.

أطلقَت ضحكة عالية جدًا جعلتني أقشعر، ثم توقفَت وقالت: - ألم يخبركَ أحدٌ أنهم يقذفون النيران من أعينهم ويحبسون الجِنّ في قنينات، ويرافقون المرَدَة؟

قطبتُ جبيني وأنا أقول مُدّعيًا:

- لا، أيفعلون ذلك حقًا؟

عاودَت ضحكاتها وهي تقول:

- بالطبع لا. لا عليكَ من كل ما قيل، الليلة القادمة ستحضر أوّل عُرس غجريّ لكَ، أترافقني؟

ابتسمتُ على غير إرادة مني وأنا أحدق في عينيها.. جُذبتُ جذبًا إلى تلك الحدقة التي بلون الموج المتلاطم، ثم قلتُ وبالكاد خرج صوتي: - يشرّفني ذلك سيدتي.

ابتسمَت، عاودَت المسير بخطوات سريعة، وأنا في أثرها مأخوذ.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الليلة التالية ..

نفير مختلف هذه المرة، نفير سعد، نغمات عُرس، انطلقَت دقّات طبولهم تتدفّق، ورنّت الصاجات بإيقاع مبهج. «جابر» وضع كفيه تحت رأسه، مشيرًا لي أنه سينام، فعجبت كيف سيفعلها وسط كل هذا الصخب، لكنه تمتم محوقلًا مستغفرًا، واختفى في الخيمة.

تَحلَّقَت صاحبات التنورات المزركشة المفتوحة من الجانبين، مطوّقات محيطنا كأوراق زهرة، تتفتّح لتنكمش مرة أخرى، وتشابكت أذرع الرجال بملابسهم المبهرجة بمختلف الألوان، يشكّلون دائرة أخرى داخل دائرة النساء، ثم برز من بينهم جمع، اصطفُّوا ممسكين بأجراس صغيرة ينفخون على سفحها تارة، ويضربونها بأذرع خيزران قصيرة تارة أخرى، تصدر رنّات إيقاعية لم أسمعها في حياتي من قبل، لتتناغم مع الآلات الأخرى. غنُّوا جميعًا بأصوات عذبة، أغنتني عن فهم لغتهم، وبالكاد تمالكتُ نفسي ولم أتمايل مع المتمايلين، لكن روحي تمايلَت ولم أكبحها. لوحة بديعة صنعها الغجر، كنتُ داخلها، في قلبها، معها.

نفير آخر انطلق طويلًا مدويًا، فغيّم الصمت على الجميع، وتقدم إلى منتصف الحلقة البشرية فتىً متأنّقٌ يرتدي زيًّا أشد بهرجة، حول عنقه وشاح كسائر رجال الغجر، وإلى جواره فتاة ترتدي ملابس فضفاضة مزركشة، تضع على رأسها تاجًا من العملات الفضية اللامعة، وشعرها المتموّج ينسدل على كتفيها، تبرز من بين خصلاتها حلقتان ذهبيتان كبيرتان، تتألقان مع الضوء الخفيض، لتضيفا مسحة جمال نورانية على الغجرية الفتيّة. تقدمَت منهما الجدة العجوز، تحمل في يديها رغيف خبز كبير على شكل مستطيل، وقفَت بينهما، أومأت إليه برأسها، فسحب الوشاح من على عنقه ووضعه حول عنق فتاته، التي أطرقَت مبتسمة، وعدلَت من وضعه خلف رقبتها. دوى التصفيق، وتعالت الصافرات، فاقتربتُ من غجريتي وسألتُها: - وماذا يعني هذا؟

ابتسمَت وهي تجبني:

- يعني أنها وافقَت على الزواج به.

قلتُ وأنا لم أنزل عيني من عليهما: - لكنهما يبدوان صغيرين في السن.

لمحتُ ابتسامتها بطرف عيني وهي تقول ناظرة نحوهما: - نتزوج في سنٍ مبكرة.

ابتسمَت العجوز الطاعنة بدورها، وقسمَت الرغيف إلى نصفين، رغم التجاعيد الغائرة التي تشكل خطوطًا طولية وعرضية على سفح وجهها إلّا أن

تقاطيعها تجذبني، أمسكَت بالنصفين في يدٍ واحدة والتفتَت بحيوية باسطَة يمينها فتقدم إليها أحد الرجال وأعطاها خنجرًا لامع النصل، وأمسكَ عنها النصفين وظل واقفًا يبتسم. سألتُها: - من هذا؟

قالت:

- ڤويڤوديه.

- رئيس عشيرتكم؟

- أجل، بعد وفاة كبيرنا قبل عامين، انتخبَته عشيرتنا زعيمًا لها مدى الحياة.

تعجّبتُ منها:

- مدى الحياة؟!

أومأَت برأسها وهي تقول:

- هذه تقاليدنا في قوم ال «شاتوروش»، ولا يجب تغييرها أبدًا.

- وما ال «شاتوروش»؟

ابتسمَت وهي تقول بافتخار:

- أكبر قبائل الغجر الهنغار.

- وماذا تعني؟

حدقَت في عيني مباشرة وهي تقول: - سكان الخيام.

أمسكَت العجوز بإبهام الفتى ووخزَته بالخنجر، تقدم زعيمهم والتقط قطرات الدماء السائلة على أحد النصفين.. أمسكَت بإبهام الفتاة وفعلَت به كما فعلَت بالفتى، التقط قطرات دمائها على النصف الآخر، وأعطاه للفتى وأعطى النصف الآخر للفتاة. ودون تردد، قضم كلًا منهما قضمة خبزٍ تحمل دم الآخر وابتلعاها، فعاود التصفيق يدوّي وتعالت الصافرات والتهليلات، والجدَّة تفتت ما تبقى من الرغيف فوق رأسيهما، والموسيقى المبهجة تصنع للمشهد خلفية من الألفة والاحتواء، لم أرَ في حياتي مثلها. أمسك العريس بيد عروسه، وانطلقا راكضين مبتعدَين عن الأنظار، فسألتُها: - لماذا يركضان؟

فقالت بعد ضحكة استعذبتُها:

- هكذا تمّ الزواج، وسيعودان في الغد لاستكمال الاحتفال والمشاركة في الرقص مع بقيّتنا.

عادت الموسيقى تحتلّ الكون من حولنا، تنثر السعادة وتبعث الفرحة إلى القلوب، النساء يرقصن والرجال يصفقون ويتمايلون. أفلتَت الجميلة يدي، وانطلقَت تدور وتدور، حتى توسطَت الدائرة. انطلقَت الصافرات تحيّيها، زادت الإيقاعات سرعة وبهجة، رنَّات القيثارات عانقت القلوب، تسارعَت دقات قلبي متضامنة مع الجو البهيج. دارت غجريّتي دورتها واندفعَت نحوي، حدّقتُ مشدوهًا لا أدري ماذا أفعل، عندما أمسكت بيديّ وأخذَت تجذبني إليها.. لم أقاوم، استسلمتُ، ومضيتُ معها. رفعَت ذراعي ودارت أسفله عدة دورات، تركتني وتراجعَت للوراء متراقصة وعادت إليّ مرة أخرى، فما كان مني إلّا أن أطلقتُ العنان لجسدي للتضامن مع روحي، وتراقصتُ لأوّل مرة في حياتي، أقلّد رجال الغجر، وهم يتراقصون وما نقص شيء من رجولتهم.

راحوا يصفقون ويدقون الأرض بأقدامهم، يقفزون ويعاودون مكررين الدوران، وأنا أدور حولها وهي تدور حولي مثلما فلكين في السماء. ما كل هذي البهجة؟ أين كنتُ من كل هذا الجمال؟ أكنتُ حيًا في تلك الناحية، أم أن الحياة المبهجة لا تكمن إلّا في هذه النواحي؟ يا لروعة الغجر، يا لسحر غجريّتي؛ تعبتُ ولم تتعب! انسحبتُ، أخذتني قدماي إلى عرباتهم الرابضة بالقرب، وما زالت عيناي تتابعهم في سعادة، وفي كل خطوة أخطوها مبتعدًا أعاود النظر إليهم. راحت أنفاسي تتقطّع، وشعرتُ بصدري يضيق، سمعتُ دفقات قلبي تضرب حنجرتي، فتوقفت ساكنًا أرتاح. جذب ناظري رسمٌ لوجهين على جسم إحدى العربات، لرجل ذي بشرة داكنة وفتاة حمراء الشعر، ونظرت في باقي العربات فإذ بالوجهين موجودين عليها جميعًا، من تراهما؟ شعرتُ بخطوات تقترب مني، فالتفتُ متأهبًا، كانت غجريّتي قد تضامنت معي ولحقَت بي. ابتسمَت، وقالت: - لا تبتعد عن الموسيقى، حتَّى لا يستغلّ الأوغاد الفرصة، فهُم لا يقربون البهجة.

بادلتُها الابتسام، نظرتُ صوب العربات، وسألتُها: - لمن هذان الوجهان المرسومان على كل عرباتكم دون استثناء؟

- كان أحد الغجر الأوائل.. لقد هام حبًا بغجرية جميلة، ولما تزوّجا طلبَت منه أن يزيّن لها بيت الزوجية.

- بيت أم خيمة؟

اتسعَت ابتسامتها وهي تقول:

- لا هذا ولا ذاك.

- ماذا إذن؟

- عربة كهذه.

- عربة!

- نعم، نحن نستخدم العربات في الترحال والمبيت إضافة إلى الخيام.

صعدَت إلى العربة، وأطلّت برأسها من فتحة في الأعلى بالكاد تتسع لشخص، وقالت مبتسمة: - يخصص الرجل ربع مساحة العربة لزوجته، ويقوم بصناعة تلك الفتحة ليتمكنّا من إشعال النار بداخلها للتدفئة وخروج الدخان.

وبرشاقة خرجَت منها، وأنا أتابعها مبتسمًا، قبل أن أقول: - عجيب. أكملي.

تألقَت عيناها وهي تكمل:

- استجاب لها العاشق، ووضع كل ما أمكنه من أشياء جميلة في العربة، كي تسعد حبيبته كلّما رأتها. لكن بعد وقت قصير، أصيبَت الغجرية بداء لا يُشفى، وفارقَت الحياة بسببه. حزن حبيبها أشد الحُزن، رسم وجهين على عربته وداخلها، وكانا على هذا الشكل الذي تراه، الرجل يمثله، والفتاة تمثل فقيدته. أحب الغجر القُدامى حكايتهما، وصاروا يزيّنون عرباتهم بنفس طريقته.

جلستُ أرضًا وما أزال أراقبها، ولا أنكر أنني شعرتُ بروحي تنساب خارج جسدي لتعانقها. استفقتُ وهي تجلس إلى جواري مفترشة الأرض بزيّها الفضفاض. ابتسمَت وهي تحدق فيّ، سألَت: - ماذا بكَ؟

لهثتُ محاولًا التقاط نفسًا عميقًا، كي أستجمع قوّتي وأجيبها: - لا شيء.

- لا شيء! أشعر أنّ شيئًا ألمّ بكَ. بماذا تشعر؟

أطرقتُ رأسي وقلتُ بصوت خفيض:

- قلبي تمدّد.

اتسعَت ابتسامتها الساحرة ووضعَت يدها على يدي، وقالت: - رفقًا بقلبكَ.

أخذتُ نفسًا عميقًا وصمتُ لوهلة، وقلتُ: - الحياة أجمل بكثير مما ظننتُ؛ تبًا للحروب التي تحصد الأرواح وتقتل البهجة!

شدّت على يدي وقالت:

- وما الذي يمنعكَ من الابتعاد عن الحروب والاستمتاع بالحياة؟

- الواجب يحتّم عليّ أن أعيش في قلب النار.

‴

قطّبَت جبينها وقالت:

- ولمَ كل هذا؟

- لأجل الوطن.

مسحَت على يدي بتحنان وهي تقول بنغمة هادئة: - ألن تشاركني أسرارَكَ كما شاركتني الرقص؟

- لستُ من ذلك النوع.

شعرتُ بها وهي تسحب يدها ببطء من فوق يدي مقطبة جبينها. لمحتُ في عينيها نظرة تمزج بين الحزن والصدمة، وإذ بهزيم الرعد فجأة ينذر بقدوم المطر؛ منذ متى ومايو يمطر؟! لا زلنا في الربيع بعد، فكيف سيكون حال الشتاء إذن؟ عجبتُ لحال هذه البلاد، كل شيء هنا غير مستقر منذ وفاة «يانوش زاپوليا» ملك المجَر في يوليو الماضي، أم تراه الرعد قد غضب لتقطيبة جبين الجميلة؟!..

بدأ الأمر بزخّات خفيفة، ثم هطل كثيفًا، فقفزت ناهضةً، تنظر إليّ لنعود للخيام. كان البلل قد ألصق ثوبها بجسدها، فبرز نهداها مهددين سكينتي، وتساقط الماء من شعرها على وجهها فأكمل لوحةً بديعةً ساحرة. لمحتُ دموعًا محبوسة في عينيها، أبت أن تسقط، فانقبض قلبي، وهممت بقول شيء، لكنها ركضَت مبتعدة وهي تقول: - عليكَ العودة إلى خيمتكَ، لن يتوقف المطر الآن، سيضرب الصقيع عظامكَ إن ظللتَ مكانكَ.

لم أكترث بالأمطار، بل تمنّيتُ لو يضربني البرق أو تنشق الأرض وتبتلعني، لم أقصد أن أحزنها في تلك الليلة السعيدة، ها هي السماء تزأر غضبًا من فعلتي، وتنذرني بعقاب أستحقه لكسر قلب الفتاة، فلو هلكتُ فأنا راضٍ بالعقاب العادل.

وصلتُ إلى الخيمة، فرأيتُ «جابر» يغطّ في سُباته، ورجلاه تبرزان خارجها، في مثل هذه الحال لن أجد لنفسي مكانًا للنوم داخلها. جلستُ أُحيط ركبتي بذراعي، والوجوم يغلّفني تمامًا، فلا وخزات الصقيع ولا صفعات الأمطار باتت تؤثر بجسدي، تحجبني عن كل ذلك هالة من ولهٍ، وشعرتُ ولأوّل مرة في حياتي أنّ مشاعري لا يحدها حد.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ولأنّ فرحة الغجر لا تكتمل إلا وتجلب الدمار، كما يشاع.. ولأنني كلّما نظرتُ إلى نهدٍ تحدث كارثة.. صار أحدهم قبيل الفجر يصرخ بلغتهم وهو يجري مذعورًا، لا أفهم منه شيئًا، لكنني انطلقتُ حاملًا قوسي وجعبتي إلى الجهة التي جاء منها، فرأيتُ رايات صفراء، منقوش عليها نسرٌ أسود، باسطٌ

جناحيه كذراعين، له رأسان حولهما هالتَان، إحداهما تنظر إلى اليمين والأخرى إلى اليسار، أحمر الرجلين والمخالب.. أفواج لا حصر لها من الجنود النمساويين يحتلّون الأفق قادمين إلى هنا، هل أرى جيش الإمبراطورية الرومانية المقدسة؟!

تجمدتُ في مكاني مصدومًا، أجاءوا إلى هنا انتقامًا لذويهم؟ لم أفكر أكثر، انطلقتُ إلى «جابر»، أوقظه، قفزنا فوق فرسين من دواب الغجر منطلقين إلى الضفة اليُمنى من «الدانوب»، حتى توقفنا عند إحدى الأشجار الموسومة لأقراننا، استلّ صديقي خنجره وراح يحفر على عجل، بينما صعدتُ إلى أحد الأغصان وأخذتُ أكتبُ رسالتي، وفور انتهائي نزلتُ ووضعتُها في الحفرة التي حفرها رفيقي. في مثل هذه الحالات، علينا العودة إلى قلب النار لنقل كل الأخبار أولًا بأول، وعند عودتنا كان كل الغجر خارج خيامهم، وعشرات الجنود النمساويين يطوّقون المكان، يا للحظ العسِر!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

عند هذا الحد، أقلق دويّ المدافع بالخارج راحته، وأخذه من قراءة ما دوّن قبل عقود.

أغلق المجلّد الكبير، وحمله بين يديه، وقد كُتب على غلافه الجلديّ السميك بالخط الديوانيّ المُذهب: «أسفار كمانگير أفندي»، وضعه في جعبته فوق مجلّدين آخرين بنفس الحجم، ونهض خارجًا من خيمته، لمتابعة ما آلت إليه الأمور.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

-٢-

زيگتڤار، جنوب المجَر، ١٥٦٦ م / ٩٧٤ ه

أقضّ دويّ المدافع العثمانية مضجع آل هابسبورغ، وهزّ أركان ملكيّتهم.باغتت القذائف كل أعوانهم، من بين أيديهم ومن خلفهم، وحاصرَت أيمانهم وشمائلهم، وتحوّل الليل إلى ظهيرة جهنميّة من شدة القيظ والحميم في قلب أوروپا. كفيلٌ ما يحدث بأن يوقن المجريّون والكُروات المرابضون داخل القلعة أنّ الليلة لا نهار بعدها، وأنّ هذا الدويّ الرهيب ما هو إلّا نفخات إسرافيل القاضية، تنهال على رؤوس حامية القلعة كالصاعقة، لتصيبهم بالصمم فيسقطون أفواجًا دون مغيث.

خرج «صوقولّو» من السُّرادق السُّلطانيّ، يعتمر عمامته الكبيرة السوداء فوق رأسه، يلتحف قفطانه الطويل الحالِك الذي يفضّله، وجهه شديد الوجوم، يناسب كآبة ليل السادس من سبتمبر. انتصب معتدلًا، فبدَت قامته الطويلة أضخم، يخطو خطوات ثقيلة، ثم يتوقّف واضعًا راحته على الأخرى خلف ظهره، لا يلتفت أو يتحدث لأحد. عقد حاجبيه وهو ينظر صوب أسوار القلعة العنيدة، ذات الأحجار الصخرية العظيمة، المدعَّمة بالمِلاط مثقلَة بالجِصّ؛ في محاولة بالغة الصعوبة لكظم غيظه. انعكسَت النيران الناشبة في الأفق على عينيه، فبدا كمارِدٍ ملحميّ، ولمَ لا وهو أقوى رجال الامبراطورية وأكثرهم طولًا وهَيْبة. ما يزال الخريف في أوّله، والأوراق لم تسقط بعد، والأيام ليست ساخنة كأيام الصيف. اختلط هزيم الرعد بدويّ المدافع، وريح باردة تلفح روح الپاشا، بينما زخات المطر تداعب وجهه العابس الشارد مع الغيوم الرمادية، قبل أن يقسم البرق السحائب المتلحفة ببعضها بعضًا، فتنقشع ببطء متباعدة.

أخذَت كلمات السُّلطان تتردد داخل رأسه:

«لستُ راضيًا بالتقدّم حتى الخنادق، فالعسكر والقادة المسلمون أهمّ عندي وأكبر من أي شيء. عليكَ بتوفير الأسلحة ومعدات الحرب واستخدامها بحسن التفكير، والتدبير للاستيلاء على هذه القلعة التي أحرقت قلبي، وأدعو الله سبحانه وتعالى أن يعيننا على إنجاز هذا الأمر بسلام».

أخذ الصدر الأعظم نفسًا عميقًا، وزفره بحنق، يخيّل إلى الرائي أنه ينفث النيران من فِيه. جذب ببطء طرف لحيته الكثّة، وقال بصوت رخيم يستكبر أن يرتعش:

- كثّفوا القصف.. على القلعة أن تسقط الليلة..

ثم تنهّد وأردف قائلًا:

- .. بأمر السلطان.

وبذات الخطوات الثقيلة المُجهَدة، وقبلما يرتَدّ المهيب عائدًا إلى داخل السُّرادق مرة أخرى؛ ألقى نظرة هناك، إلى الأسوار العالية المنيعة وأبراجها الكبيرة التي تقف شامخة، كأنما تلطم وجه الأفق.

أخذ «كمانكير» يتساءل في نفسه.. ما هذي الحال يا «صوقولّو»؟ ما الأمر؟ إنّها ليست المرة الأولى التي تواجه فيها مثل تلك المعارك الضارية، أبسبب شراسة دفاع العدو وصموده غير المتوقع، وفشل الهجوم العام الذي أمر به السُّلطان؟! لا يُعقل، فالعسكر يبذلون أقصى جهدهم ببسالة وإقدام وثبات.. أوَبّخه السُّلطان؟ حتى وإن حدث، فلن تكون المرة الأولى التي يوبّخه فيها، أو يوبِّخ أحدًا من وزرائه، فما من وزير إلّا ونال نصيبه من غضب الخان. في هذه المرة تحديدًا ليس عليه أن يسرَّها في نفسه إلى هذه الدرجة، فالسُّلطان قد تخلّت عنه صحته وابتُليَ بالهرم وغدرَت به العافية، وبلغ منه النقرس مبلغه، وكان عليه التراجع عن الخروج على رأس هذه الحملة وهو في مطلع عقده السابع، كما نصحه الأطباء، لكنّه أفحم الجميع بعناده: «إن كنتُ سأموت؛ فما من شرف أكبر من أن أموت غازيًا في سبيل الله».

ما من أحد يمكن أن ينكر المزاج السيء الذي ألمّ بالسُّلطان، بعد مسير تسعة وأربعين يومًا بين قيظ يوليو وعسرة أغسطس، وطول المسافة التي قطعها من العاصمة إلى جنوب هنغاريا، وإعيائه الشديد وتردّي حالته الصحية بشكل غير مسبوق.. والأدهى، صمود القوات المجرية الكُرواتية في مواجهة القوّة العثمانية الأوليّة، التي تكبّدت في الثاني من أغسطس خسائر فادحة، قبل أن يلحق بهم باقي الجيش بعد ثلاثة أيام، ويعسكر على مشارف المدينة. أُقيمت الخيمة السُّلطانية فوق تلٍّ «سيميليوڤ» حتى لا تطالها دانات مدافع الحامية، والتمعَت القلانس المعدنية تحت أشعة الشمس. أعداد العسكر غفيرة لا تُحصى كثرة، قام الوزير الثالث «فرهاد پاشا» وأمير أمراء الأناضول «زال محمود پاشا» بمحاصرة الجانب الجنوبي والغربي من القلعة، وحاصر الجانب الشمالي الوزير الخامس «قيزيل أحمدلُو مصطفى پاشا» وشقيقه الأصغر أمير أمراء الروم إيلي «شمسي أحمد پاشا». وفي المركز وقف «يني تچري آغاسي» (قائد الإنكشارية) «علي آغا» مقطّب الجبين قالبًا شفته مغتاظًا، فاختفَت تمامًا أسفل شاربيه العظيمين المدببين، في رداء قرمزي وقبعة عالية من اللباد الأبيض مطويّة إلى الخلف تنساب بين منكبيه العريضين، تتميّز عن باقي قبعات الانكشارية بشريط أحمر، محكمة حول رأسه بقلنسوة معدنية نحاسية اللون، وقد بدا في لباسه هذا ضخمًا للغاية، بين عساكره المتأهبين ذوي الملابس الحمراء وقبعاتهم البيضاء

المثنية. وبنظرة منه، أخذوا الأمر بالانطلاق مسرعين نحو المتاريس الواقعة بين الفرقتين، ملقّمين بنادقهم، ينتظرون الإشارة. ولمثل هذه الأمور تمّت تربية وتدريب أولاد الحاج بكتاش.

عجّ نهر الدانوب بسُفُن الأسطول العثماني، التي اتخذَت مواقعها وتأهّبَت مدافعها، وأعلن قائده القبودان «علي بورتوق» أنّ مياه النهر تحت سيطرته تمامًا، وتمركز «نصوح بك» أمير بوژغه إلى الجانب الغربي لفرقة جيش «فرهاد پاشا»، ليصبح الحصار قائمًا بالقوة الرئيسية وجيش يتعدّى قوامه المئة ألف جندي، واستمرّت المدفعية تقذف داناتها من الجهات الأربع آناء الليل وأطراف النهار، من الشفق الأحمر وحتى الغسق، لكن شهرًا مضى على الحصار، والصراع يزداد دمويّة وضراوة، ويرفض «زرينسكي» قائد الحامية عرض السُّلطان، بأن يستسلم ويحكم كرواتيا باسم السُّلطة العثمانية.

استمرّ القتال، إلى أن تراجعوا إلى البلدة القديمة لقِلّة أعدادهم، وحتى اللحظة لم تصل تعزيزات الجيش الإمپراطوري من ڤيينا، أو لن يُرسَل من الأساس، ستسقط زيگتڤار لا محالة، إنها فقط مسألة وقت. جاء أحد العسكر يطلب من حرس السُّرادق إخبار الوزير الأوّل أنّ «جعفر آغا» قد وصل. أخذ «كمانگير» يسأل نفسه: «أفي هذا التوقيت؟! لماذا يستدعي «صوقولّو» أحد أركان القصر الآن؟ ما الذي يخبئه صدر الصدر الأعظم؟ شيء ما يدور داخل السُّرادق السُّلطاني، ولا يريد «صوقولّو» أن يفصح عنه. على كلٍ، كلُّ ما يجثم فوق الصدور آنيًا سيزيحه تطاير الأخبار لاحقًا».

دخل «جعفر آغا» إلى السُّرادق، وغاب من الوقت ما يجبر المراقبين على القلق، ثم أخيرًا خرج ليتحدث إلى كبير الحرّاس بصوت مسموع:

- الحمد لله رب العالمين، حضرة الوزير الأعظم يبلغكم أنّ صحة السُّلطان في تحسّن مستمر، إلّا أنّه متوتّر قليلًا بسبب عدم نجاح العسكر في فتح القلعة حتى الآن، وحزين لما تكبّدناه من المشقة والخسائر النفيسة لأجل إسقاطها، وقد أمر جلالته بفتحها بأي شكل اليوم على الفور.

لم يتحمس القوم.. في كل مرة يحاولون الاقتحام، يواجههم رد فعل غير متوقّع من الحامية، وقد خسر الجيش الكثير من الأرواح لأجل الاستيلاء على تلك القلعة، لكنها تأبى السقوط. لم تتوقف المدافع عن القصف، حتى فرض اللون القرمزي سيطرته على جنوب هنغاريا. القلعة العنيدة تقاوم، وجنودها يزودون عنها ببسالة منقطعة النظير، لكنهم يدركون إصرار العثمانيين أن يسقطوها بأي شكل كان، للتخلّص من الآثار السلبية التي تسبّبت بها الهزيمة التي لحقت بأسطولهم قبل عام في مالطه، وهزّت اعتبارهم في أوروپا.

بعد قليل، خرج «شمسي أحمد پاشا» من الخيمة، فانطلق إليه قادة جنده. تحدث إليهم بحماسة، واستمعوا إليه بانتباه، ثم تركوه مسرعين إلى عساكرهم، وبدورهم هرولوا بانتظام منطلقين نحو غابات البلّوط المحيطة بالمكان، حيث غابوا وقتًا ليس بقليل، وعادوا يحملون الجذوع نحو الخنادق، ثم أحاطوا بها أسوار القلعة، وهمّ الجند بالتسلّق. لكن قذائف مدافع الحامية حالت بينهم وما أرادوا، وتساقط الجندي تلو الآخر، قذيفة تتبعها صدمة، تتبعها صرخة، يتبعها تساقط، ثم ارتطام، ثم تسكن الأجساد بعد شهور من إرهاقٍ بلا نصر. كُتب الموت لكل من يقترب من تلك الأسوار.

باءت خطة أمير أمراء الروم إيلي بالفشل، فعادت المدافع تصبّ القذائف على القلعة صبًّا، واستمرّ القصف المكثّف طوال الليل دون انقطاع، مُرَكِّزًا هذه المرة عند نقطة معينة من الجدار، بأوامر من «صوقولّو»، لخلق ثغرة. أحرقت النار قضبان وأعمدة الحصن في كل ناحية، ولكن العائق كان التراب المحشو في الجدران، فكانت القذائف الموجهة إليه تصطدم بالتراب ولا تحرق شيئًا، وكان جند الحامية يزيدون من وضع التراب في هذا الجدار، ويحكمون تحصينه من الجهة الداخلية بأوتار القماش، ثم يترقبون الفرصة؛ ولا يطلقون المدافع والبنادق عشوائيًا، بل يتحَيَّنون هجوم العسكر، فيحرقون كثيرًا منهم، ويردونهم إلى الخلف. قام العسكر بصنع حراب بخطاف مدبب، يسحبون بها من بالداخل إلى الخارج، ثم يقطعون رءوسهم. ومع قدوم ضوء النهار، بدأت الجدران تتداعى عند نقطة القصف، وفجوات كبيرة أعلنَت عن نفسها، ولم يكف التراب لنجدتها، وتسلّقت النيران المغتاظة ترعى في كل زاوية هناك، حتى تهاوت جدران القلعة العنيدة أخيرًا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أدرك «زرينسكي» أنه هالك ومن معه جميعًا، فاختبأ ومن تبقَّى من جنوده في مخزن البارود. كان قد أعدَّ خطته مسبقًا، لن يجعل العثمانيين يهنأون لحظة باستحواذهم على القلعة، سيأخذ بثأر مسكنه الذي تحوّل إلى أنقاض، سينتقم لجميع من ماتوا من عساكر حاميته. لم يكن صعبًا على من معه الشعور بالدماء تسري بعروقه، بل ووصول غليان روحه إليهم. ككونت كرواتيّ يعمل لصالح آل هابسبورغ النمساويين، ضمن مكانًا مخلّدًا في التاريخ، وخاصة ذاكرة السابع من سبتمبر، ولسوف يتغنّى الهنغاريون باسمه جيلًا بعد جيل. قال وهو يضغط على كل كلمة تخرج من فمه:

- لن نستسلم للعثمانيين أبناء الزنا، لنخرج من مكاننا هذا ونقف في وجه أعدائنا. من يموت منا سيكون مع الرب، ومن لا يموت سيكرّم اسمه ويخلّده التاريخ. أنا سأذهب أولًا، وأنتم افعلوا ما ترونني فاعلًا. ليكن الرب شاهدًا على ما أقول، لن أترككم أبدًا يا إخواني وفرساني.

ثمّ علّق حبلًا حول رأسه، وارتدى ملابسه الحربية بكامل عتادها، ووضع الذهب في جيبه وقال:

- فلتكن هذه المئة ذهبية هدية لذلك الذي سيقطع رقبتي.

وتقلّد سيفًا قيل إنه ورثه عن أجداده، وتأهّب وجنده للانطلاق.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

خلّف جواده الأدهم سحابة ترابية كثيفة، وهو ينطلق مسرعًا صوب القلعة، قبل أن يسحب اللجام بقوّة عند شجرة بلوط عتيقة فارهة، ليست ببعيدة منها وليست بقريبة. ترجّل عن جواده، ولف اللجام حول أحد أفرعها، ثم حمل جعبته وقوسه على كتفه، وتسلّق الشجرة بمهارة وسرعة، واتخذ لنفسه مكانًا على فرعٍ متين، يمكّنه من رؤية أبواب القلعة. أخرج من جيبه بعض حبّات القرنفل، ووضعها تحت لسانه وراح يحرّكها به، ثم غطّى أنفه وفمه بلثامه، وأسدل على رأسه رأس الذئب الأشهب، الذي صاده قبل عقود، واعتاد أن يرتدي فروه في مهامه، فلا يظهر منه إلّا عيناه، إذا ما رآه أحد سيهلع لمظهر الوحش المتأهّب للفتك.

أمسك بيسراه مقبض قوسه، المنحنية أطرافه إلى الخارج، والذي يصل طوله إلى ثلاثة أقدام على الأكثر، وقد صنعه بنفسه من خشب البلّوط، وبطّنَه من الجهتين بعرقوب ذئب صاده من أحراش الأناضول، وفتل وتره من الكتّان وغلّفه بجلد أفعى. إضافة إلى مهارته في الرماية، فهو يداوم على صيد الأفاعي ليدعم بها أوتار أقواسه. سحب بيمينه سهمه من جعبته.. كان سهمًا وحيدًا، تحسّس رأسه المدبب الحاد، الذي صمم نصله خصيصًا للاختراق، لا شك أنّ هذا الرأس سيخترق أي درع صلب يطاله، وإذا طال جسدًا سينفذ فيه لا محالة. شد السهم إلى الوتر، وهو لا يزال ينظر صوب باب القلعة، وهمس لنفسه: من تعيس الحظ الذي سيرشقه «كمانگير» بهذا السهم؟

رفع قوسه واتخذ وضعية التصويب، أغلق عينه اليسرى، بينما اليمنى لا ترى إلّا باب القلعة، سبّابة ووُسطى يمينه يقبضان على مؤخرة السهم، الريشة تعانق الوتر، ورأسه الحاد يستقر على خاتم إبهامه الأيسر. شد الوتر إلى آخره، فأصبح محاذيًا لأذنه اليمنى، مستعدًا للهزج. فكر أن المسافة بعيدة، فهل سيصيب سهمه الأبواب؟! لم يخطئ «كمانگير» سهمًا من مسافات بعيدة مدهشة، تتعدى المئة قدم، منذ كان في العاشرة من عمره.

فُتحت أبواب القلعة،فأخذ يلتقط أنفاسه ويحبسها، وهو يرى أعداءه يخرجون من القلعة إلى الجسر، يطلقون الرصاص صوب صفوف الإنكشارية، لكنه لم

يرَ هدفه بعد. ظلت أنفاسه متوترة في صدره حتى رآه، فأطلق سهمه في نفس اللحظة صوب الهدف..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

انطلق سرب من التُفِنْكجِيّة، قابضين على بنادقهم، مسرعين يعبرون الجسر إلى داخل القلعة. وفجأة، فُتحت البوابات، وانطلقَت قذيفة كبيرة أطاحت بعشرات الجنود من فوق الجسر، وانطلق المدافعون خارج القلعة يستميتون في الدفاع. كان استبسال اليائسين، الذي انطلقت في مقابله النيران الإنكشارية تشقّ صدورهم، ومن بينهم «زرينسكي». حاول جنده جرّه إلى الداخل، لكنهم عدلوا عن ذلك وهم يرون أصحاب الملابس الحمراء والقبّعات البيضاء المثنيّة يتدفقون نحوهم صارخين، وطلقاتهم النارية تسبقهم إليهم، ففر من بقي حيًا إلى الداخل مرة أخرى، تتبعهم أفواج الإنكشاريين، وسقطَت زيگتڤار أخيرًا.

جاء أحد الانكشارية على صهوة جواده، نزل وانتظر مطرقًا رأسه، وفي التوّ خرج «صوقولّو» من السُّرادق بنفس الوجه، وفي أثره الجند الخاص، وصوب القلعة انطلقوا مسرعين، وكأنّ الصدر الأعظم يريد أن يتأكّد بنفسه من سقوطها، حتى يزفّ خبر النصر إلى السُّلطان.

انطلق «كمانگير» نحو الجسر، وعند وصوله نزل عن مطيّته واضعًا لثامه على أنفه، ليمنع الدخان من اختراق جيوبها. الأنقاض تغطّي ما تبقّى من البشر، الأسقف تحتضن الأجساد، الأعمدة والأحجار والأخشاب ملطّخة جميعها بدماء الجنود الهابسبورغيين، وقد وصل الوزراء والوكلاء لمعاينة القلعة، ومكثوا يكملون بعض مهماتها ومستلزماتها. رأى الپاشا ينظر متأففًا إلى الأنقاض الطازجة، وغبار القذائف يعكر الهواء، ومن أمامه يتفقّد العسكر من سقط من جيش الحامية، ويجهزون على كل ذي إصابة بليغة ممن يقابلهم، رأفةً بهم!

دوى انفجار من إحدى الزوايا، أصمّ الجميع فجأة، ثم صكت الأسماع صيحات وصرخات سُلاقية تنضح بالألم وحجم الفاجعة، وقد أُلقي بعض الرجال على الأرض، حتى وصل ارتفاع جثثهم قدر سهم، ورائحة البارود الكريهة تنشر أخبار الموت في الأرجاء.

أصاب «كمانگير» ما أصاب الجند من الهلع، فكيف بمن كانوا بقرب موقع الانفجار، وكيف حال المنفجرين؟! لا ريب أنّ ذاكرة التاريخ ستُخلّد تفاصيل اليوم السابع من سبتمبر، ولن تغفل شيئًا حدث، فكل الأحداث قبله وحتى الوصول إليه عظيمة عصيبة، ولأوّل مرة يُرى «صوقولّو» يرتعد، قبل أن يتمالك نفسه - وإن بدا عليه الغيظ - ويتساءل وهو يكزّ على أسنانه كَزًّا:

- أين زرنسقي؟

ردّد بعض الجند سؤاله بصوت أعلى، ثم ردّدها «كمانگير» مرة باللغة المجرية، وأخرى بالكرواتية، ثم بالألمانية:

- أين زرنسقي؟

أحضروا له أحد الجنود الناجين، بصعوبة تلعثم متحدثًا بالكُرواتية وهو يُترجم:

- عندما شاهد الكونت سقوط الأسوار، أمر بإشعال الفتيل في مخزن البارود لاستقبالكم.

وقبل أن يكمل تلعثمه، جاء أحد آغوات الانكشارية وترجّل عن جواده، وقال بثقة وثبات:

- أصيب صدر «زرنسقي» بطلقتين ناريتين، فسلم روحه الخبيثة إلى زبانية جهنم، وهذا رأسه.

ثم أشهر الرأس أمام عيني الپاشا، فإذ بسهم يستقر في منتصف جبهته. تفحّص «صوقولّو» بأصابعه ريش مؤخرة السهم، وأخذ يدقق في النقش الغائر في جسده، لرأس طائر حفرته أنامل صائغ ماهر بحرفية وتؤدة. نظر صوب «كمانگير» الموجود بالقرب ينتقل بين الهَدد، لكن لم تكتمل الابتسامة التي انتوى الپاشا أن يرسمها، تراجع عنها فالتوى نصف وجهه غير المعتاد على التبسّم، وأعاد وضع الوجه الجامد مرة أخرى، ككُلّ الأوجه البُشناقية الصارمة، ونظر صوب واجهة الكنيسة المُدَمّرة وقبتها المُهدمة، ثم زفَرَ وقال:

- آتُوني بحَسَن چاوش.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

على وجه السرعة، انطلق «حسن چاوش» على صهوة جواده، وخلفه مرافقَان من أقوى وأسرع العساكر العثمانيين، أو هكذا يجب أن يكونا. إيصال خبر أو رسالة ليس بالأمر الهيّن، القوة والسرعة أهم العوامل التي تؤدي لإنجاح مثل هذا الأمر، وأمور أخرى كثيرة.

تابع «كمانگير» ثلاثتهم، والأفق يبتلعهم وجيادهم ولم يتبقَ منها إلّا الغبار، أطرق رأسه ثم تحسس بإصبعه خاتم إبهام النشاب الذي يزين إبهامه الأيسر، وأخذ يتفحّص النقش الغائر فيه، رأس الطائر نفسه، المحفور بجسد السهم الغائر في رأس «زرينسكي».

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

مضت الأيام والأسابيع الكافية لإعادة بناء واجهة الكنيسة المهدمة، وتحويل قبتها إلى قبة مسجد يعتليها هلال، وكذلك أُعيد بناء معظم المباني المدمرة في محيط القلعة، تغيّر جُلّ شيء نظر صوبه «كمانگير»، إلّا وجه «صوقولّو». رغم أنّ كل شيء تغيّر بأمر منه، إلّا أنّ الغموض لا يزال يسيطر على انفعالاته وردود أفعاله وكلماته، لا سيّما لحظات الشرود الكثيرة التي تأخذه لمكان آخر لا يعلمه إلّا هو، إن كان يعلمه.

تحرك الپاشا بخطواته الثقيلة التي اعتادها مؤخرًا، متوجهًا صوب «كمانگير»، الذي كان يعدّل من وضع بؤجته على ظهر فرسه. توقف الپاشا قريبًا جدًا، ووضع يده على كتف صديقه، فابتسم «كمانگير» وهو ينظر إلى يد صديقه ثم إلى الأفق، تنهّد الپاشا قبل أن يقول:

- رمية موفقة أيها الجسور، كان عليّ أن أحيّيك عليها قبل خمسة وأربعين يوم مضت.

التفَت «كمانگير» إليه قائلًا:

- سلمتَ، «كمانگير» لم يخطئ رمية منذ أربعة عقود مضت.

ثم أزال الابتسامة التي رسمها على وجهه، وقطّب جبينه وعبست ملامحه جميعًا، وأردف:

- لكنها ليست الرمية ما أتت بكَ إلى هنا، وليست هي السبب في الحال التي ألمت بكَ ليلة سقوط القلعة وحتى يومنا هذا، ولا هي السبب في أنك تخشى الاقتراب مني أو التحدث إليّ لمدة خمسة وأربعين يوما، هناك شيء عظيم وراء أفعالكَ، ماذا يخبئ صدرك يا «صوقولّو»؟

غيّم الوجوم على الپاشا الناظر صوب اللا شيء، تنهد وأطرق رأسه، ابتلع رضابه وهو يشهق شهقة سريعة ويزمّ شفتيه قبل أن يقول:

- كنتُ مجبرًا على إخفائه عنك يا صديقي، وأرجو أن تسامحني على ذلك.

سحب «كمانگير» السرج بقوة على بطن دابته، وأغلق إبزيمه بغيظ. تنهد «صوقولّو»، وتقدم خطوتين، ثم نظر إلى صديقه وقال:

- تعالَ معي.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كلما اقترب «صوقولّو» من السُرادق السُّلطاني، اثّاقلت خطواته أكثر، كأنه يجرّ قدميه جرًّا. دلف إلى الداخل وفي أثره صديقه، متخطيًا الخيام الداخلية خيمة خيمة، حتى توقف وأطرق رأسه أرضًا، ومن وراء كتفه العريض بزغت رأس «كمانگير»، الذي فغر فاه وجحظت عيناه وهو ينظر إلى ذلك الجسد

الذي تم تكفينه وإحاطته بالثلج! تقدم «صوقولّو» ببطء، وكشف عن وجه المُكفّن الشاحب مسبل العينين، يتبيّن للرائي أنه مات منذ فترة، ولولا الثلج ما ظلّ الجسد بهذه الحالة. «صوقولّو» أشرف بنفسه على تحنيط جسد السُّلطان واستخراج أحشائه الداخلية؛ ليتحمّل السفر إلى القسطنطينية، حيث أوصى أن يدفن، وقد دفنوا الأحشاء في نفس الخيمة التي مات فيها، في صحراء «سيرم».

فاض الدمع من عيني «كمانگير»، لم يحتمل النظر إلى صاحب اللحية الكثة البيضاء، لا يُصدّق أنّه رأى السُّلطان «سُليمان خان» وقد فارق الحياة. أشاح بوجهه، وعاد أدراجه حتى خرج من السُّرادق، يلتقط أنفاسه بصعوبة بالغة وهو يضرب بيديه على صدره. ركض حتى وصل إلى شجرة سنديان عتيقة، كأنها كانت تنتظره، استند إلى جذعها وراحت شفتاه ترتعشان وهو يردد بصوت مخنوق «يا الله.. يا الله».

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أشعل قنديلًا قديمًا، تجلّطت الزيوت على سطحه بفعل الأتربة، فبالكاد لم يزل يضيء. وضعه على أرضية الخيمة الضيقة، وجلس إلى جواره، ثم أخرج من جرابه دفترًا، تتخطّى صفحاته الألف، مجلّدًا باللون الأسود ولا شيء مكتوب على دفتيه؛ ضمه إلى صدره، ثم راح يتحسس صفحاته الكثيرة بتؤدة وحذر، حتى فتح أواخر الصفحات وراح يمسح بيده المرتعشة على سفحها. دسّ الريشة في المحبرة وأخذ يكتب:

«ولما كان (الثلاثاء) اليوم العشرين من شهر صَفَر. سنة أربع وسبعين وتسعمئة من الهجرة النبوية، على النبي الصلاة وأفضل التحيّة، الموافق اليوم السادس من شهر سبتمبر في السنة السادسة والستين وخمسمئة وألف منذ ميلاد حضرة عيسى عليه السلام، أتمّ عامه الثاني والسبعين من عمره، الذي وافق عامه السادس والأربعين متربعًا على عرشه الهمايوني.

قضى سنوات سلطنته على قمة السُّلطة في الدولة العليَّة، وبسط سلطانها على معظم دول العالم في قاراته الثلاث، وشملت هيبتها وسيادتها أنحاء الأرضين.

رحل السُّلطان العاشر لآل عثمان، ذهبت روحه إلى بارئها، فعساها راضية مرضية. توفي الخليفة الخامس والسبعين للمسلمين، أقوى ملوك الخلافة، خان الخانات، برهان الخواقين، سُلطان البرين والبحرين، سلطان المثقفين، مثقف السلاطين، سلطان السلاطين، المعظّم سُليمان خان بن سليم خان بن بايزيد خان بن محمد خان الثاني أبو الفتوح بن مراد خان الثاني بن محمد

الأول چلبي بن بايزيد خان الأول بن مراد الأول بن أورخان غازي بن عثمان غازي بن أرطغرل غازي بن سُليمان شاه».

توقّف «كمانگير» عن الكتابة، وراح يمسح دموعه التي بلّلت الورقة بحذر بأكمام قميصه، وينفخ حولها كي تجف. حين اطمأن أن الحبر والدمع قد جفَّا، أغلق دفتره، وبرفق وضعه إلى جواره، ثم نفخ في شعلة قنديله فانطفأت، وأخذ يربت على دفة الدفتر حتى نام.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

دام المسير لأكثر من خمسين يوما، لم يتوقف العسكر فيها إلّا أيامًا معدودات في «بلغراد»، وفي أثناء ذلك ذهب «كمانگير» إلى مدينة «بودا»، ليأخذ «مريم» ابنة الرابعة والعشرين، وابنة «ماريا» رفيقته الغجرية التي أوصته عليها في حال أصابها مكروه، وهو كرجل يحافظ على كلمته لم ينسَ وعده الذي قطعه للسيدة من قبل، فاصطحب معه الفتاة واتجه إلى القسطنطينيَّة، ولحق بالحملة قبل دخولهم المدينة.

وصلَت الحملة منتصرة أخيرًا إلى القسطنطينيَّة. دخل الحشد خلف الحاشية الحاملة للنعش إلى مسجد السُّليمانيَّة الجامع، الذي بُني قبل عقدٍ بأمر السُّلطان، حيث وضعوا النعش أمام الضريح المفتوح المواجه لمحراب الجامع. كل الرؤوس مطرقة، حتى رأس السُّلطان الجديد «سليم» ابن «سُليمان خان»، وكذلك الوزير «أحمد پاشا»، والشيخ «نور الدين زاده أفندي»، و«فرهاد آغا»، وكل وزراء ووكلاء الدولة بلا استثناء، الدموع على الوجوه، لكن أعين الصدر الأعظم «صوقولّو» وصديقه «كمانگير» قد جف فيها الدمع، فقد أنهكهما الحزن هناك في «زيگتڤار».

سَلَّم الشيخ «أبو السعود أفندي» منهيًا صلاة الجنازة، ثم مسح بيده على لحيته البيضاء القائمة وأومأ برأسه، فجيء له بصندوقٍ، وضعه العسكر أمامه وانسحبوا للخلف. قال:

- أوصاني جلالة السُّلطان - المزدان بالرحمة بإذن الله - أن يدفن هذا الصندوق إلى جواره. لكن يجب علينا فتحه ورؤية ما فيه، قبل تنفيذ وصيّته، فإن كان ذهبًا أو مالًا فلن يجوز دفنه، حتى لو بأمر السُّلطان.

اقترب العسكر ثانية، وفتحوا الصندوق، فإذ به مليء بالأوراق. أشار إليهم، فناوله أحدهم لوحًا منها، فاعترته الدهشة، وهو يقرأ بعينيه ما فيها:

«إذا دبّ النمل على الشجر؛ فهل في قتله من ضرر؟

إذا نصب ميزان العدل؛ غدًا يأخذ النمل حقه بلا خجل».

أعادها وتناول أخرى ثم أخرى، الأوراق كلها الفتاوى التي تلقّاها السُّلطان من الشيخ «أبو السعود أفندي» نفسه، وغيره من علماء الدولة! بيدين مرتعشتين، أغلق الشيخ الأوراق، ووضعها مكانها في الصندوق وأغلقه، ثم قال وقد تقطّعت كلماته المخنوقة ودمعَت عيناه:

«آهٍ يا سُليمان، لقد نجوتَ بنفسك، أما نحن؟! أي سماء تظلّنا، وأي أرضٍ تُقلّنا إن كُنّا مخطئين في فتاوينا؟!»

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

-٣-

القسطنطينية، ١٥٦٧ م / ٩٧٤ ه

غادَرَ «كمانگير» مدينة المآذن، أوائل يناير في السنة السابعة والستين وخمسمئة وألف ميلادية، عاملًا بالقول: «عندما تشعر أنّ المكان لم يعد لكَ؛ لا تحارب.. ارحل»

أخذ معه «مريم»، وجعلها ترتدي البرقع واليشمك، كي يمرّا دون تحقيق، استقلّا سفينة تجارية من ميناء القسطنطينية تبحر قاصدة مِصر، لم تعاندها الرياح عند عبورها من بحر إيجة إلى بحر كريت في الجنوب، وشقّت طريقها بثبات وتؤدة في خلجان الجزر المنتشرة حولها، حتى أصبحت جزيرة كريت منها إلى اليمين، وبينها وبين الإسكندرية نحو ستّمائة ميل. مرت عليه الأيام ثقيلة كالسنوات، لا يزال يكره ركوب البحر ويرهبه ويشعر بالدوار، حتى بعد الأحداث العظيمة التي مَرّ بها وتخطّاها جميعًا، وذكرياته البعيدة والقريبة، الحسنة منها والمريرة، حنينه الممزوج بالتوتر للعودة أخيرًا إلى بلاده، بعد رحلة دامت لأكثر من ثلاثين سنة.

قاوم الدوار باجترار ذكريات الرحيل عن بلاده لغابات العجم.. عبر من جبال زاغروس إلى كركوك، عاش في أحراش الغابات البعيدة، أكل الجراد وأوراق الشجر، وكاد يشرب بوله من شدة الظمأ. وهناك في قلب أوروپا، اغتسل في نهر الدانوب، والتقى بأناس يتحدثون بألسنة لم يكن يعرفها، وظلّ معهم حتى أتقنها. لقد جاب الإمپراطورية العثمانية، من حدود الصفويين شرقًا إلى أبواب ڤيينا غربًا، ورافق «بَرْبَروس خير الدين پاشا» متحدِّيًا أمواج بحر الروم إلى الغرب، مرورًا بسواحل مارسيليا ونيس جنوبي فرنسا وحتى جزيرة مالطه. وبما إنه إنسان طبيعي كغيره، لم تخلُ رحلته من الحب والحرب والألم.. وبينما خذله الكثيرون، لم يخذله سهمٌ قط.

عكس ما كان من هدوء في بداية الرحلة، مرت عليه ستّ ليالٍ تحمل قسوة صقيع يناير وكثرة غيمه وعتمة ليله، وهول الريح واهتياج البحر، حتى أنعشه أخيرًا عبير الإسكندرية، وداعب موجها سفينته، فتجاسر حتى وقف يغالب الدوار، وينظر مع انبلاج النور إلى طابية قايتباي، التي تراءت تبشِّره بالوصول إلى مرفأ الوطن. وعندما نثر قرص الشمس الضوء في الأنحاء، كان هو يحمل جرابه على كتفه الأيسر، وبيمينه يمسك بيُسرى «مريم»، يتخطّيان الزحام مسرعَين لا يلتفتان.

مرَّ بالسوق القريب، فتزوَّد بمؤن تمكّنهما من الوصول إلى القاهرة، ثم سأل التاجر عن سوق الدواب، فأشار بيده نحو زحام قريب، حيث الأغنام منتشرة

داخل سياج، والمواشي في ركن تلوك العلف بنهم. قطّب جبينه عندما سمع نهيق حمار نحيف، لماذا يعلن عن وجوده وهو بهذه النحافة؟! اتجه نحو السياج، يتتبّع الصهيل القريب، فلمح حصانًا يثور على لجام صاحبه. كاد ييأس من العثور على مبتغاه، حين ارتطم برَجُل يسحب بغلًا قويًا، يحمل على ظهره خُرْجًا ذا جيبين مملوئين بالعلف، تفحّصه بعيني خبير، ولم يلبث أن فاوضه بجدِّية على شرائه. أرهقه الرجل، حتى اشتراه بجُلّ ما معه تقريبًا، وأخذ يدعو في سرّه أن يكفيهما ما معه؛ لا يشغله شيء إلا الوصول.

استقلّ البغل وخلفه ركبَت «مريم»، يعبران الصحراء الممتدة، يتعجبان من لهيب الشمس الحارقة في نهار يناير، وهي تناقض لفحات الصقيع في ليله. بلغ بهما الإنهاك ما بلغ، وقد بلغت ثورة الشفق الأفق، فوقف «كمانگير» فوق البغل، ودار بعينيه بين التلال الرملية، حتى لمح شجرة عتيقة، فبشَّر «مريم» أنه ما بقي إلا قليلٌ من المسير ويصلان إليها. وصلاها والغسق يغزل خيوط الظلام، ولا تزال القاهرة تبعد عنهما مسيرة يوم بليلة على الأقل، فربط اللجام بفرع بارز خفيض، ثم أنزل جرابه على الأرض ليريح البغل، قبل أن يفرش الأرض بفراءٍ رمادي أخرجه من جيب الخُرج، ويشير ل «مريم» أن تستريح عليه. وضعت قوسها وجعبتها إلى جوارها، وتقاسما الخبز وثمرة تفاح كبيرة، ثم ابتعد قليلًا وألقى بجسده على الأرض يغمض عينيه، فنهق البغل عاليًا، فانتفض «كمانگير» واقفًا يضرب رأسه براحته متذكرًا، وأسرع يضع أمامه بعض العلف ويربت على عنقه الثخين معتذرًا، و«مريم» غارقة في الضحك.

عمَّ السكون، ونامت القافلة الصغيرة، إلى أن شق الصمت عواءٌ، أدركت أذن «كمانگير» أنه ليس طبيعيًا، فأسرع يوقظ الفتاة، التي انتفضت فزعة من مرقدها، فأشار إليها بالصمت، وهمس قائلًا:

- اسمعيني جيدًا، سأُساعدكِ على تسلّق هذه الشجرة، ومهما حدث لي.. أتفهمين؟ مهما حدث.. لا تتحركي من مكانكِ، ولا تصدري أي صوت.

أومأت متفهّمة، أعطاها صرة مليئة بالأقچات، أخذتها منه وخبَّأتها في جرابها، وضعَت على كتفها قوسها وجعبة سهامها، ثم ساعدها على الوقوف على ظهر البغل ونجحَت في الإمساك بأحد الأفرع، فدفعها من كعبيها حتى تمكنّت منه. تأكّد من أنها في مكان آمن، وأسرع يلملم أشياءه ويضعها في جيبي الخُرج، ووضعه على ظهر البغل وامتطاه ونكز بكعبيه بطنه، فأسرع السير وأصدر شَحيجًا غليظًا دون انقطاع، لم يسكته إلّا سهم اخترق عنقه، وآخر استقر ببطنه، قريبًا من قدم «كمانگير». خرّ الشّاحِجُ صريعًا، فقفز «كمانگير» من فوقه، ودار بجسده على الرمال، وأخرج القوس من الخُرج،

جهّزه بسرعة، والتقف كل الأسهم التي في الجعبة ووضعها إلى جواره، واتخذ من الجسد الصريع درعًا له.

انبعث من الظلام ما لا يقلّ عن عشر ملثّمين، نصفهم يحمل شُعلًا، ومنهم من يحمل في يده سيفًا ومن يحمل هِرَاوَة أو خنجرًا، ومِن خلفهم ثلاثة من الرماة على مسافة تمكنّهم من إصابة «كمانگير». اقتربوا منه في حذر، فما كان منه إلّا أن اعتدل وأطلق سهمًا أصاب رأس أحد الرماة فاحتبست صرخته، وقبل أن يرتدّ طرف الرامي الثاني أصابه بين عينيه، وأما الثالث وقبل أن ينبطح أرضًا أصابه السهم في صدره، فلما لامس جسمه الأرض عند سقوطه خرج الرأس من ظهره. انحنى الباقون محاولين إنقاذ رؤوسهم، لكن سهمًا سريعًا أصاب رأس أحدهم وأرداه قتيلًا. انبطح «كمانگير» خلف جسد البغل يبحث عن أسهم، فلم يجد إلّا سهمًا وحيدًا هو المتبقي! ابتلع رضابه، «مريم» هي كل ما يفكر فيه، عليه أن يبقى حيًّا حتى تبلغ مأمنها.. أخذ شهيقًا عميقًا ونهض مصوّبًا سهمه إلى أحدهم، فأرداه من فوره، ثم تحصَّن مرة أخرى بجسد البغل القتيل، ونزع السهم من بطنه، ولكن قبل أن يصوِّبه، قفز أحدهم فوقه وأخذ يلكمه، فسقط السهم من يده. مدّها عن آخرها، وقبض على السهم، وغرسه في عنق عدوّه،

ثم أزاحه من فوقه، فإذا به محاطٌ بالخمسة المتبقين، اجتمعوا عليه، وانهالوا بركلات مبرحة طالت جُلّ جسده، وألصقت وجهه بالرمال، فملأ القذى عينيه، وإن حاول رفع يده إلى عينه، تلقَّى ضربات الهراوة، فتصيب كوعه.

مهما حدث له لن يصرخ، ولن يطلب المساعدة من أحد.. لكنه صرخ في نفسه: «أدركني يا جابر!».. لكن «جابر» ليس هنا.

أمسك من بدا أنه زعيمهم بمشعل، واقترب يفحص جعبته ويفرغ ما فيها، ثم هزّ رأسه مستنكرًا، حين لم يجد شيئًا فيها استحق أن يفقد لأجله نصف رجاله. أخذ يسبّه ويلعنه ويركله بقدمه في وجهه، ثم أخذ أحد الدفاتر الثلاثة، نظر في صفحاته، فما فهم شيئًا، فألقاه أرضًا فوق الدفترين الآخرين، ورمى بشعلته النارية عليها. إلتاع «كمانگير»، فجذب يديه بقوة من مقيديه، وألقى بنفسه فوق دفاتره، تراثه وتاريخه ودليل رحلته، تدوين أكثر من ثلاثين عامًا من الترحال والأسفار والحروب والعشق والفراق والمغامرة؛ يوشك قاطع طريق حقير أن يمحوه. انهالوا عليه ضربًا وركلًا حتى شعر بصعوبة في التقاط أنفاسه، فاستسلم أخيرًا وقد رأى النيران قد حكمَت على دفاتره بالإعدام، فنظر إلى الفاعل نظرة احتقار رهيبة، لم تكن من الحكمة، إذ استفزه فانطلق يلقى بجسده عليه ويضع رأسه الملثم في النار، وأخذ يضغط عليه، لتمتزج صرخات الغل بصراخ الألم الذي تردد في الصحراء.

ومن بركان آلام الحريق تفجَّر عزم خيالي، فوجد «كمانگير» نفسه يلقي بالمجرم من فوق ظهره، ثم يطعنه بالسيف ذلك الذي جاء إليه، فأودى به إلى حتفه، بينما ثانٍ يسرع إليه يريد رأسه، وكان قد سقط من الإعياء، لكنه فوجئ بسقوط اللص فوقه إثر سهم أصابه في مقتل، تلاه سهم آخر أسقط الثالث، وآخَر نفذ في عنق الرابع، وأما الخامس فسقط بعدما خرج نصل سيف «كمانگير» من بطنه قادمًا من ظهره، ثم غامت رؤية «كمانگير»، قبل أن يشكر منقذه، الذي كان يقف بالقرب.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

استفاق مفزوعًا، إثر لمسات «مريم»، تطبّب الحروق والجروح المتناثرة بجسده. فعلَت الجميلة ما بوسعها لإنقاذه من بين أيديهم، فهي لم تحبّ الرقص الذي امتهنته أمّها، ولم تغادر المخيّم إلّا معه، صغيرة تركب الجواد خلفه حتى أبعد شجرة، يرسم لها الهدف في منتصف جذعها، فتسدّد نحوه رامية. لكم كانت ماهرة، تطوّرَت بسرعة إلى أن أصبحَت لا تخطئ هدفها قط. استقرت أنفاسه حين وعى أنما هي يد «مريم» الحانية، حاول النهوض فلم يستجب له جسده الواهن، فاستسلم وهو يمسك بكوعه المتورِّم، بينما استمرّت في عملها مشفقةً عليه من محاولته جاهدًا ألّا يظهر ألمه، كما ظل طوال حياته الزاخرة بالأعاجيب ألّا يظهره لأي أحد أيًا كان. فرغَت من تطبيبه، هزّت كتفيها وزمّت شفتيها ثم قالت:

- ليت شيئًا في يدي، لكنني فعلتُ ما بوسعي، إلى أن يمكننا الوصول إلى مكان عامر.

أومأ برأسه مبتسمًا في امتنان، ورَبَّت على يدها، ثم قال بصوت مرهق:

- سلمتِ عزيزتي، بل لقد فعلتِ معجزةً، بلا أداة في يدك ولا دواء. ما بقي الكثير، إن لم يقطع طريقنا بعض المغامرين الحمقى، فلن يكون أمامنا إلا القليل.

ابتسمَت مشفقة، لكنها كانت تدرك أنه طالما قرَّر فلن تثنيه، وربما الوصول للحضَر يجعل تطبيبه أيسر وأنجع. ساعدته على النهوض بصعوبة، فقام متكئًا عليها، على قناعة بأن السير بذلك البطء أفضل وآمن بكثير من الانتظار، ومضيا يهتديان بنجوم السماء.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الارتحال سيرًا ليس كما على الدواب، وها هي إصابته تجعل السير أشد مشقة وأبطأ، فوصلا إلى قلب القاهرة ظهيرة اليوم بعد التالي. لم يكد يعرفها، حتى شكّ لوهلة أنه وصل إلى بلد آخر، لولا أن مر بضريح «السيدة نفيسة» وهو يعبر درب السباع. ابتسم وملأ صدره بالهواء، ثم قرأ الفاتحة

هدية إلى روحها. كل شيء فيما يفترض أنه مكانه صار غريبًا عنه، فقط المسجد الذي بُني بالحجر الأحمر على الطراز القوطي هو ما أكّد له أنه المسجد نفسه الذي اصطحبه أبوه إليه قبل ثلاثة عقود مضت؛ كم صلّى عند محرابه المبني من قطع صغيرة ملوّنة من القيشاني كان يتحسسها بيديه، وكم استند إلى أعمدته الرخامية وهو يقرأ القرآن. جعل المسجد إلى ظهره، واتجه عابرًا بمريم الطريق إلى الناحية الأخرى، حيث الضريح الشهير.. تحسّسه بيديه، أغمض عينيه وراح يقرأ الفاتحة بخشوع، وخرجَت من قلبه آهَةٌ حارّة قبل أن يتساءل في نفسه سؤالًا لم يخطر بباله قبل أن يجوب البلاد والأيام: «أهنا يرقد الرأس الشريف بالفعل؟ ليتني أتأكد من ذلك». أزعجه الدراويش الذين ينتشرون يهزّون رؤوسهم ذات اليمين وذات الشمال، يكررون: «الله، حيّ».. أحزنه ما يفعلون، فليس ذاك ما يحتاجه الدين، وإنما هم في غفلة عمَّا تصطرع به البلدان والقرى، لن ينفعوا الحياة بغنائهم هذا أبدًا. عاود النظر إلى الضريح وتنهّد قائلًا «آهٍ يا حُسَيْن»، ثم ترك المكان وراءه، ممعنًا النظر إلى ذلك الباب الذي كان يمر منه إلى خان الخليلي، سالكًا طريقه إلى بيته القديم. تنفس الصعداء، وأمسك بيد «مريم» ونظر إليها مبتسمًا..

- ما أطيب ريح الوطن، مرحبًا بكِ يا «مريم» في قلب الدنيا، القاهرة.

ابتسمَت وهي تتأمل مئذنة المسجد، والوجوه المختلفة من حولها، زحام غير مزعج، كل في حاله، لا أحد ينظر إليهما ولا يعترض طريقهما، الحارات مكتظة بالحوانيت والمخازن والبشر، مساومات طريفة تهادت إلى أسماعها بين التجّار والمشترين فابتسمت، المساكن مزيّنة طوابقها العُليا بالمشربيات الخشبية البارزة، جذبَت ناظريها الزخارف التي تتخلّلها على شكل وردات ونجمات حُفرت بأمهر الأنامل، حتى عبرا من الأزقّة الضيقة إلى خارج الخان، وواصلا المسير حتى توقفا أمام حِمار، راح «كمانگير» يتأمله، ربت على ظهره ومسح على عنقه برفق، ثم اتفق مع الحمَّار أن يوصلهما إلى منطقة الأزبكية. وضع أشياءهما على ظهر الحمار، وساعد «مريم» على امتطائه – وكانت تريد أن يركبه هو، وهو المصاب في أنحاء جسده-. تقدم الحمَّار يسحب حماره بالحبل، ويتحكم بخبرته في سيره بتؤدة، و«كمانگير» إلى جوار «مريم»، ينظر إليها ويبتسم، فتبادله الابتسام. مدت يمناها إليه، فأمسكها بيسراه، وظلّا هكذا طول الطريق، يحكي لها عن ذكرياته في تلك الشوارع، ويشير إلى الأماكن التي لعب فيها مع أصدقاء الطفولة، وكل شيء يبث في نفسه الألفة.. أخبرها عن أبيه ومكانته، وزوجة أبيه التي بمثابة أمه، بينما يتأمل التغيرات التي طرأت على المكان، ويتوجس. لم تكن هناك اختلافات جوهرية، واستطاع تمييز بيتهم، فأمر الحَمَّار بالتوقف، فوقف الرجل ينظر إلى واجهة المنزل الكبيرة المرتفعة وبوابته الضخمة، مقطبًا

متعجبًا وهو ينقل نظره بين فخامة الدار و«كمانگير» وحاله الذي يرثى له، ولم يستطع منع نفسه من التصريح بدهشته:

- أمتأكد أنكَ تريد منزل «شهاب الدين باشا»؟

أومأ «كمانگير» قائلًا:

- أجل، شكرًا لكَ.

أنزل «مريم» برفق، وحمل على كتفيه متعلقاتهما، وأعطى الحمَّار بعض الأقچات، فجحظت عيناه وكادتا تسقطان من محجريهما، وانطلق لسانه يدعو ل «كمانگير» ويصفه بالكريم بن الأصول. وقف «كمانگير» قليلًا يتأمل بيتهم، الذي كان ولابُد أن يكون بهذا الجمال والبهاء، حتى يليق بوالده الپاشا ومكانته عند الكخيا والوالي. أمسك بالمقبض الكبير، وطرق به على الباب عدة طرقات، ففتح الباب خادم أسود البشرة، نحيل، حمّله على كتفه الأشياء، فقطب الخادم متعجبًا، ففسَّر له «كمانگير»:

- أَدخل هذه الأشياء، وأخبرهم أنّ «سُليمان أفندي» قد عاد.

دلف إلى الداخل يسحب «مريم» وراءه، فحدَّق الخادم فيهما، وقد تلعثم وعلامات الاستفهام تتعثر بلسانه، فدخولهما بهذه الطريقة لم يعطه الفرصة لاستيعاب الأمر. أشار «كمانگير» إلى «مريم» بيده قائلًا:

- الحرملك من هذا الاتجاه..

أومأت مترددة، فهي لا تعرف أحدًا هنا، لكنها سارت إلى حيث أشار، وتركته يتجه إلى المجلس، القاعة الكبيرة، المكان المخصص لقارئ القرآن، المقاعد الخاوية، السجاد الذي لا أثر عليه لأية أقدام، وكأنه لم يدخله أحد منذ مدة. لم يجد ريح أبيه، فانتابته غصة في صميم قلبه.

قطع شروده وصول أحد الأغوات، يدعوه لمقابلة «تفهيدة خانم»، زوجة والده، السيدة التي يحمل لها قلبه الضعيف الصغير حبًا جمًّا. انطلق من فوره إلى الحرملك، فهو يعرف الطريق جيدًا. وقف عند الباب، وهي تجلس على شلتة عالية، تجمدت قبضتها على فنجان قهوة، وإلى جوارها تجلس «مريم»، وحولهما الجواري والخدم، وأمامها طبق بلوري كبير يمتلئ بالفاكهة. وضعت الفنجان على طبقه حين رأته، فأخذته إحدى الجواري ووضعته على طاولة خشبية أمامها. نظرت نحوه بملامح جامدة، أضعفت السنون عينيها الخضراوين، فلم تتبيَّنه.. ماذا يقول؟ تذكَّر آخر مرة التقاها، دمعَت عيناه أسفا، وقال:

- إنّه أنا، «سُليمان».

نهضَت، تتسنَّد على جاريتها، وظلّت محدّقة به، فاقترب منها، جذبته من يده وعانقَته، مغرقته بأدمع الحنين التي خلّفتها ثلاثة عقود ونيف. أزاحته عنها برفق، ثم ضربته بوهن على صدره، وقالت وهي تمسح عن خديها الدموع:

- أين كنتَ أيها العنيد؟

أمسك بيديها وقبَّلهما، ومسح عنها ما سال من دمعه، وقال منهنهًا:

- آسف يا أمي.

كانت تلك المرة الأولى التي يقول لها فيها يا «أمي»، فقد كان يحرص دائمًا على التحدث معها بالتركية العثمانية، كما علّمَته. جذبَته إليها وأسكنته بين ذراعيها، وربتت على رأسه وظهره بكفَّين مرتعشتين أوهنهما العمر، تأملته بذات العينين المغرورقتين:

- سبحان الخالق، وكأني في حضرة «شهاب الدين پاشا» رحمه الله.

تجمّد من الحزن آسفًا: «آه يا أبي آه!» لم يسأل كيف؟ لكنه سأل:

- منذ متى؟

- قبل خمس سنوات يا صغيري.

لن يشفع له البكاء ندمًا، ولو ظل يبكي ما تبقّى له من عمر. لكم تمنى أن يلحق ولو بلحظة أخيرة في حياة أبيه، حتى يطلب منه السماح، ويسمع منه «عَفَا اللهُ عَمّا سَلَف»، لكن القدر لم يرِدها له. لم يكن أبوه صغيرًا حتى يحزن الحزن الجم على فراقه، هو نفسه لم يعد صغيرًا، ولكن ما كان بينهما قبل عقود هو ما جعل ضميره متعبًا.. يبقى الأب أبًا، والفراق فراقًا.

ظلّا على حالهما يتحاكيان، ويتذكران ويدمعان طوال النهار، الجواري والخدم يجيئون إليهم بأشكال وألوان من الخير الموجود. هي دومًا كريمة مضيافة، بشوشة، حانية.. قصّ عليها أخباره، قصّت عليه أن أخته من الرضاعة قد تزوجت بأحد البكوات المقربين من الكخيا، بتوصية من والده قبل عشرين سنة، ورزقت من البنين والبنات ثلاثة: ولدان، أسمت الكبير «شهاب الدين» تيمّنًا بوالده، والثاني «سُليمان» تيمنًا به، و«تفهيده» كان اسم البنت، وهي على وشك وضع مولودها الرابع. ابتسم على استحياء، وشكرها في قرارة نفسه على تخليد اسمه، على الرغم من كونه لا يستحق ذلك. ولما سألها عن أخته «زينب»، قالت إنها تأتي كل عامين للاطمئنان عليها، كلّما جاء زوجها إلى إيالة مصر. وبكل حنين السنوات السالفة، سألها عن أخيه «عليّ»، فتنهّدت، قبل أن تتكئ عليه ليساعدها على النهوض، وأخذت يده إلى غرفة في آخر الدار، فتحت بابها ودلفَت وهو في أثرها، ليجد أخاه

يفترش الأرض، ويهزّ رأسه كثيف الشعر بغرابة، وقد أسقط كل الطعام الذي أمامه، ينظر يمنة ويسرة بعينين جاحظتين غير مستقرتين، والزبد يقطر من فيه، ويطلق زفرات غليظة، ويجذب شعر لحيته الكثيفة، ويزوم كجروٍ أصابوه بحجر. بكى المشتاق في حضرة أخيه، وجَثا يتحسس رأسه برفق ورعشاته لا تهدأ. التقت عيناهما، ضمّه إلى صدره وقد خرجت من قلبه آهة كادت تفطره. أحاطه «عليّ» بذراعيه، لكنه لم يعرفه!

- ألا تذكرني؟ أنا أخوكَ سُليمان..

لكن من هم في مثل حاله لن تسعفهم الذكرى، نظر إليها وسألها:

- متى حدث ذلك؟

نظرَت إلى الأرض وتنهّدَت وقالت:

- بعدما اختفيتَ، أخذ يبحث عنكَ في كل مكان، ولما نال منه اليأس، اعتزل الناس وأصابه ما أصابه. لم نقصّر في رعايته، حتى بعدما قال الحكماء إنه لا شفاء لمصابه.

أطرق «كمانگير» وأخذ يمسح الدموع المنهمرة، ضم أخاه إلى صدره وهو يشعر بالذنب يجثم على روحه. خرجا من الغرفة، فأخبرها عن أمر إصابته، وحاجته للراحة، واستأذنها أن يذهب إلى بيتهم القديم بحارة الديلم ليسكنه هو وزوجته، فطلبت منه راجية أن يبقى هنا، فهي تحتفظ بميراثه وتدخره له، لأنها كانت على يقين بعودته مرة أخرى، لكنه أصر على الذهاب إلى بيتهم القديم، فقالت له:

- عنيد كما أنتَ يا «سُليمان».. لكن يتوجب عليكَ أن تبقى هنا أنتَ وزوجتكَ ليومين، حتى ينظف الخدم البيت ويعيدون ترتيبه، وتجهيزه بكل ما يلزم ليصلح للسكن مرة أخرى، وكذلك يراك الطبيب وأطمئن عليك.

وافق، وأخبرها إنه ينوي فتح دكان جده بالخان، ووعدها بزيارته باستمرار.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

حارة الديلم

استسلم للراحة والدواء، بعد عناء الرحلة القاسية، يومان مرَّا سريعًا، ثم أصبح عاقدًا النية على الذهاب إلى حارة الديلم. ودَّع زوجة والده، وخرج مبكرًا يصطحب «مريم»، حتى وقف أمام واجهة بيتهم القديم المكوّن من طابقين كمعظم بيوت الحارة. تأمل بابه الكبير المصنوع من الأبنوس والعاج، وتحسس بأنامله النقوش الزخرفية البارزة بحنين وشجن، ثم دلفا إلى فناء ضيّق، إلى يمينه رواق، تتوزع على جانبه الغرف، وإلى اليسار معراج خشبي إلى الطابق الثاني. استقبلهما الخدم والجواري الذين جهزوا البيت تمامًا للمعيشة، فطلب من إحدى الجواري أن تصطحب «مريم» إلى غرفتها بالطابق الثاني، ثم أشار إلى أحد الخدم، ليصحبه وهو يتفحص بعض الأماكن، ثم يخبره أن يعيد تعمير أحواض الزراعة ببعض الزهور، وأن يهتم بالنخلة العتيقة. توجّه بعدها إلى غرفة والده الخاصّة، يبحث في أركان الغرفة عن شيء تمنَّى أن يجده، انحنى ينظر أسفل الأريكة، فوجده، صندوقًا خشبيًا بطول ذراعين وارتفاع ذراع، ابتسم وسحبه برفق، واحتضنه وراح يقبِّله، وفتحه. كان مكتظًا بالأوراق، التي تبلغ ثلاثة أضعاف دفاتره التي أحرقها قطاع الطرق، وفوقها صندوق صغير، بطول نصف ذراع وارتفاع شبر، مليء بقنينات الحبر، أخذ يتحسسه بأنامل مرتعشة من فرط الفرحة. أخرج محبرة، وفتح غطاءها، الحبر عتيق، تنشّق ريحه، ثم غمس به الريشة، واختبر الحبر والخط في ورقة.. الآن هو جاهزٌ للتدوين من جديد.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

-٤-

جلس «كمانگير» إلى المكتب الخشبيّ القديم، ينظر إلى الورقة الفارغة والريشة بجوار محبرته، وشرع يتفكّر من أين يبدأ التدوين. ظلّ على حاله لساعات، دون كتابة حرف واحد.. ماذا أفعل؟ من أين أبدأ؟ ماذا أكتب؟ كيف سأتذكر كل ما راح؟ كيف أستدعيه؟ يا معين أعِنّي.. سطر البسملة بخط النسخ أعلى الورقة، ثم دوّن التاريخ أسفل منها في الجانب الأيسر.. بدايةً من السنة الحادية والأربعين وتسعمئة من الهجرة النبوية، عليه الصلاة وأفضل التحيّة، السنة الرابعة والثلاثين وخمسمئة وألف من تاريخ ولادة حضرة عيسى عليه السلام»..

«إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ»

«الحمد لله القديم الأوّل، الأزليّ الذي لا يتحوّل، ولا تغيّره الدهور والأعصار، ولا يفنيه حدثا الليل والنهار، هو الذي أنشأ الوجود من العدم، وقدّر ما كان قبل أن يكون في اللوح والقلم، وخلق آدم وجعل من نسله العرب والعجم، واصطفى منهم نبيّنا محمدًا وأكمل به ديوان الأنبياء وختم، ونسخ بشريعته جميع الشرائع، وأوجب طاعته على الخلائق من ضالٍّ وطائع، وجعل دول الإسلام مؤيدة بالخلفاء الراشدين، فهُم ظلّ الله تعالى في أرضه لكل من انتظم في سلك المهتدين، أحمده حمدًا يقتضي المزيد من النعم، وأشهد ألّا إِلٰهَ إلّا الله ولا نعبد إلّا إيّاه ذا الفضل والكرم، وصلّى الله على سيدنا محمد عبده ورسوله الذي كان نبيًّا وآدم بين الماء والطين، وعلى آله وأصحابه الطيبين الطاهرين وسلّم تسليمًا إلى يوم الدين».

وبعد ..

توقّف، أطرق رأسه متأففًا، وكوّر الورقة بيده حتى اختفت في قبضته، ثم أخذ يمزقها وهو يصرخ: «لا، لن أكتب بأسلوب «ابن إياس»، ولن أدع السجع يجترّني إليه في تدويني». ضرب بعنف سطح المكتب بكفيه، فتناثرت قطرات الحِبر على الورقة الجديدة التي فردها أمامه، ما جعل «مريم» ترتعد عند باب الغرفة وهي تحمل قدحًا قد أعدّته له، فتساقطت قطرات من الشراب الأسود الساخن على جدار الصحن الخشبي. انتبه إليها، ليجدها متجمّدة في مكانها، عيناها جاحظتان، وشفتاها ترتعشان، فابتلع رضابه واستغفر وحَوْقل، وقام إليها يربت على كتفيها، ويهدِّئ روعها. أغمضَت عينيها وتنفسَت الصعداء حين قبّل جبينها، أخذ منها القدح وارتشف رشفة، فاستعذبها وقال بصوت خفيض: «سلمَت يداكِ»، فابتسمَت وتركَته في غرفته، حيران أسفًا تتخبّطه ذكرياته المريرة، منذ ترك البلاد حتى واقعة

قطاع الطريق، الذي وصمها ب «المشئومة». ثم ردد في عزم: «أصعب التدوين أوّله»...

توطئة

ولما كان يوم الإثنين اليوم الرابع عشر من شهر ذي القعدة في السنة الخامسة والعشرين وتسعمئة من الهجرة النبوية عليه أفضل الصلاة والتحيّة، الموافق اليوم السابع من شهر نوڤمبر في السنة التاسعة عشر وخمسمئة وألف من تاريخ ولادة حضرة عيسى عليه السلام، وضعَت والدتي حملها الأخير في منزلنا بحارة الديلم القابعة بوسط القاهرة. تألّمَت كثيرًا، وقالت مثلما قالت السيدة العذراء: «يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا»، فقد عزَمت منذ فترة على الصمت وقالت كما قالت ستّنا العذراء «إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا».

وكان أنا من وضَعَت، طفلها الرابع، وثالث الذكور، أنجبَت قبلي بعشرة أعوام أخي الأكبر «محمود»، وبعده بعامين أنجبَت أختي «زينب»، وبعدها بثلاثة أنجبَت أخي «عَلِيّ». أمّا أمي، فهي ابنة أحد أمراء المماليك الچراكسة، ماتت بعد أن أتممتُ شهري التاسع، جدي لأمي كان مسئول الچاليش التي كانت تحملها جيوش المماليك في المعارك، افتخرت أمي دومًا بأصولها العريقة، على حد قول أخي الأكبر «محمود». أحد أخوالي كان اسمه «حامد» سقط شهيدًا في معركة «مرج دابق» وكان من رجال «السُّلطان الغوري» الذين حضروا أوج سوء العلاقات مع العثمانيين، ولم ينجحوا في محاولات عقد الصلح مع السُّلطان «سليم»، فاحتكم السُّلطانَين إلى السيف، وقرر السُّلطان «سليم» ضمّ الشام ومن بعده مصر إلى الدولة العثمانية. وعند شمال «حلب» في سهل «مرج دابق»، كانت الغلبة لمدافع العثمانيين، التي قصفت جيش المماليك دون رحمة وقُتل السُّلطان «الغوري» في هذه المعركة، ولم يُعثر على جثة له، لكن صديقي «جابر» قال لي إنّ أحد الجنود عثر على جثته ودفنها في مكان لا يعلمه إلّا الله، حتى لا يُمثّل بها.

خالي الثاني «أحمد» كان مساعدًا للأمير «چان بُردي الغزالي»، وأحد قادة سلاح فرسان المماليك، الذين تلقوا هزيمة ساحقة في معركة «خان يونس»، عندما هجموا على العثمانيين العابرين من غزة إلى مصر، فأُصيب القائد «الغزالي» أثناء المعركة، وانسحب عائدًا إلى القاهرة، بينما لم تسعف الأقدار خالي، ومات إثر جراحه قبل وصوله إلى العريش.

أمّا خالي الثالث، كان يدعى «سيف الدين»، سأظل أشفق عليه طوال حياتي، كان أحد الأمراء المقربين من السُّلطان «طومان باي» والذين تجرعوا مرارة الهزيمة في معركة «الريدانية»، فسقطت الدولة المملوكية ودخل العثمانيون على بلادنا، وشُنق خالي إلى جوار سُلطانه على باب زويلة، وعُلقت رأسه إلى جوار رأس «طومان باي» في مشهد مروِّع لا يُنسى.

حزنَت أمي أشد الحُزن على إخوتها بشكل خاص، وانتهاء سُلطة المماليك في العموم، حتى وافتها المنية. بعد وفاة أمي بشهرين، لم يجد أبي بُدًا من القبول باقتراح الكِخْيَا، وتزوج بسيدة عثمانية انقضَت عدتها منذ أيام على زوجها المتوفى في مِصر، لها طفلة وحيدة بالكاد أتمّت عامها الأول، فبدلًا من عودتهما إلى القسطنطينية؛ تتزوج وتكمل حياتها وابنتها هنا. يناديها الأتراك «تقهيدِه» والمصريون ينطقون اسمها «تفيده»، وحقيقة الأمر أنّ معنى اسمها بالعربية «توحيدة»، أمَّا أنا فكنتُ أناديها «آنا»، ولم أعرف لي أمًا غيرها، ولما لم أقبل أثداء المرضعات والخادمات الموجودات بمنزلنا، تبرّعَت هي وأعطتني ثديها، فالتقمتُه حتى الفطام. لم تفرّق بتاتًا بيني وبين ابنتها «وردشان»، أختي في الرضاعة التي تكبرني بنصف عام، بل أكاد أجزم أنها كانت تنصفني عليها في أحيان كثيرة.

علّمتني التركية والفارسية والفرنكية، إلى جوار اللغة العربية، قصّت علينا الكثير من قصص الشاهنامه وألف ليلة وكليلة ودمنة والتراث العربي، قبل النوم، فوصلتُ إلى سنّ المراهقة وأنا أُجيد الرماية، بالإضافة إلى أربعة من الألسنة المختلفة.

لن أنسى ذلك اليوم الذي أخذني فيه أخي «محمود» من يدي، وظلّ يجرّني وراءه، حتى وصلنا إلى باب زويلة، ثم توقّف وأشار بسبّابته نحو إحدى الرؤوس المعلّقة وقال بمرارة: «هكذا كان حال خالكَ «سيف الدين»، بعد ما رفض الرضوخ للعثمانيين عندما احتلّوا بلادنا الغالية، لا تتهاون في التعامل مع هؤلاء القوم، ولا تصدق قولهم، لقد اغتصبوا بلادنا باسم الدين».

أما أبي؛ «شهاب الدين پاشا»، فدومًا رأيته أكثر الخلق ثباتًا عند الشدائد، شامخ الرأس كتماثيل القدماء، استطاع الوصول إلى «بكلربكي» الجديد الذي عيّنه الباب العالي پاشا إيالة مصر؛ بسمعته الطيبة وسيرته العطرة. كان والدي من أعيان القاهرة، صاحب نفوذ ورأي سديد. جدي لأبي من أصول چركسية، ورث عنه أبي حرفة صناعة جُعَب النشاب، فأُطلق عليه لقب «تَرْكاشي». سمعتُ كثيرًا أنّه كان راميًا، نادرًا ما يخطئ هدفه، أعتقد أنه بالغ عندما قال لي إن أباه لم يخطئ سهمًا منذ كان في العاشرة من عمره. أصرّ أيّما إصرار على تعليمنا جميعًا الرماية، وكان يخصص ميقاتًا يوميًا لتدريبنا، وعلّمني صناعة الأسهم وجُعبها، فأدمنتُ ذلك معظم اليوم،

حتى أنني كنتُ أتغيّب أحيانًا عن دروس الفقه، للبحث عن أخشاب تصلح لصناعة جسد السهم، وعن أحجار تصلح أن تكون رأسًا فتّاكًا، ومع مرور الوقت أصبحتُ أعرف ما يصلح لصناعة السهم بمجرد النظر.

وعلى الرغم من مهارة أبي في صناعة السلاح والمبارزة، إلّا أنه اختار الأصعب، ممارسة السياسة، كان عقله يعمل أكثر بكثير من يديه. كنت أعلم أنّه لا يقبل بوجود العثمانيين في بلادنا، يُسرُّها في نفسه وظاهريًا يبرر ذلك بأنّ هذه الدولة -وإن لم تكن عربية- لكنها أمل الإسلام الباقي، وعلينا طاعة السُّلطان وألّا نخرج عليه، كما يأمرنا الشرع. وبخبرته السياسية وحنكته، أصبح مقرّبًا من قومندان القلعة، يلتقيان كثيرًا للبتّ في شئون إيالة مِصر، ولأنّه أحد بكوات المماليك الباقين منذ عهد «السُّلطان سليم خان»، وحتى بعدما ارتقى «السُّلطان سُليمان خان» تخت السلطنة؛ ظلّ والدي في منصبه، بتوصية من البكلربكي، نظرًا لسيرته العطرة ومسيرته الطويلة ونزاهته وولائه لمقام الخلافة وإخلاصه للباب العالي، فقرر السُّلطان منح امتيازات خصوصية للبكوات المماليك الذين أقامهم والده، وأضاف إليهم إثني عشر بيكًا آخرين لمهمات فوق العادة، ومنحهم حقًا بالارتقاء إلى رتبة الپاشوية، ومن بينهم أبي.

لم يكن كثيرًا عليه الارتقاء لرتبة «پاشا»، فهذا أقل مما يستحق، فهو أكثر المقربين من «الكِخْيَا» نائب الوالي ومن الوالي ذاته، رأيتُ هؤلاء جميعًا في بيتنا عدة مرات، أقام أبي الولائم كل شهرين فصار بيتنا محطة مهمة لأكبر رجالات الدولة، ومن بين هؤلاء «رحيم أفندي» نائب قومندان ثغر الإسكندرية، وأحد القباطين الثلاثة والذراع الأيمن لقبطان بك. كاد الوالي يعهد لأبي بحكمدارية مديرية الشرقية، لكنه أعرب عن تفضيله للتواجد إلى جوار البكلربكي في القاهرة، فهو وإن كانت جذوره تأتي من ناحية الشرقية، وله أقارب إلى اليوم يحيَون فيها، إلّا أنّه لم يزرها غير مرة أو مرتين في صباه، فهو قاهريّ منذ عهد أبيه وجده، وهو على دراية تامة بأحوالها، ولا يطمح لأعلى من مكانته التي وصل إليها.

بعد ذلك، أعرب أبي لزوجته «تڤهيده خانم» صراحة عن السبب الحقيقي لرفضه حكمدارية مديرية الشرقية، فهي كبيرة المساحة، ومعظم مساحتها صحراء، ومشاكلها عويصة، ومليئة بقطّاع الطرق والعُربان، دائمًا تندلع الحوادث على طريق البريد القادم من العريش إلى القاهرة، والذي يجبرهم على المرور ببلبيس، وقال إنه لا ينسى حادثة السيدة «عائشة الباعونية» التي وقعَت عام ثلاثة وعشرون وتسعمئة هجرية، سبعة عشر وألف وخمسمئة، بالقرب من بلبيس، حيث تعرّضَت قافلتها للنهب، وسرق اللصوص أغراضها، بما في ذلك كتابات السيدة، التي ظلّت مفقودة إلى يوم

الناس هذا. أما في القاهرة، فقد انشغل كثيرًا بالعمل مع جُند المماليك في وُچاق الچراكسة، الذي أنشأه السُّلطان «سُليمان»، يستشيرونه في كل صغيرة وكبيرة، أحبط الكثير من محاولات السرقة والاختلاس، ومنَع الرشوة بينهم، ولحاجة الكِخْيَا إليه، كان يقضي يومًا في الوُچاق واليوم التالي في الديوان الصغير، الذي ينعقد يوميًا في القلعة. يقضي طوال اليوم مع الكخيا پاشا ودفترداره وروزنامجيّه، ويحضر بينهم نائب من كل الوُچاقات الأخرى، والأغا، وكبار ضباط وُچاق المتفرقة، للنظر في الحوادث اليومية، والبحث في الإدارات الثانوية والبتّ في أمرها.

لا أدري كيف وجد أبي الوقت لحضور حلقات الذكر، والتقرب من دراويش النقشبندية، يتبع طريقتهم، ويبجّل كبار شيوخهم ويوقّرهم، لم أرَه ملهوفًا على شيء بقدر لهفته وهو يتجهّز ويتحضّر لاستقبال الشيوخ، الذين جاءوا من مركزهم في بُخارَى. لم يكن هذا الأمر يعنيني في الحقيقة، فلقد ألحقني أبي لحفظ القرآن ودراسة الفقه الشافعي في الجامع الأزهر وأنا في الخامسة من عمري، وهكذا فعل من قبلي مع إخوتي «محمود» و«عَلِيّ». أمّا أختي «زينب»، فقد أتمّت حفظ القرآن والأحاديث النبوية في البيت، على يد أمّي رحمها الله.

في نفس اليوم الذي انتقلنا فيه إلى مقر منزلنا الجديد بمنطقة الأزبكية، عرفتُ أنّ أبي لم يكن ليرحّب باهتماماتي العثمانية، ومحاولاتي الدؤوبة للتحدث مثلهم، حتى إنه نهرني بمجرد أن ناديتُه: «پاپا»، ورمقني بنظرة لم ينظر لي بمثلها من قبل ولا من بعد. أخذ شهيقًا عميقًا وزفره، وأردف قائلًا:

- لا تقلّد الأتراك، قُل «أبي» ولا تقل كما يقولون. التُّرك يا بني قوم قساة، ولا تنسَ ثأركَ لأخوالكَ، فلا تأمنهم، ولا تجعل طموحكَ يحرقكَ، فكما دخل التُّرك بلادنا سيخرجون منها، ولو بعد حين. واجعل حبكَ للسُّلطان في قلبكَ ولا تجهر به لأقرانكَ.

- لماذا إذن أسميتَني على اسمه؟

صمَتَ لوهلة وهو ينظر بعيدًا عني، وقال:

- كان لا يزال أميرًا، يدير للعام الثالث عشر سنچق «طرابزون»، بإرادة قوية ودراية وحزم، لم يملّ من أحلام الغزو والفتوحات. لقد ترك الأمير «سليم» زوجته وهي تصارع المخاض وآلامه، وذهب ليقرأ في كتاب الله، وأخذ يقرأ حتى وصل إلى قوله تعالى «إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ»، لحظتئذٍ أتاه نبأ ميلاد ابنه، فابتسم وأسماه «سُلَيْمَانَ».

تنهّد وأخفى ابتسامته، وأكمل:

- ما حدث مع «سليم خان» أشبه بما حدث معي عند مخاض أمكَ. أسميتُكَ «سُليمان» لأنّها إشارة من الله، أخذتُ أردد «سُليمان.. سُليمان»، قبل أن يخبروني أنها وضعَت ذكرًا، تعجّبوا عندما سمعوني، قلتُ أسميتُه «سُليمان» على بركة الله. ذهبتُ إلى غرفتها، حملتُك بين يدي، وأذّنتُ في أذنكَ اليُمنى، وأقمتُ في اليُسرى، وهدهدتُكَ وأنا أردد «أسميتُك سُليمان».

- إذن أسميتني على اسم حضرة سيدنا «سُليمان عليه السلام».. لا السُّلطان «سُليمان خان»؟

أومأ موافقًا، وهو يبتسم معجبًا لفطنتي.

على الرغم من حبي للسُّلطان، وإعجابي بشخصيته القوية الحكيمة الصارمة العادلة، إلّا أنّ مثلي الأعلى هو «نصوح أفندي السلاحي». سمعتُ عنه الكثير والكثير من حديث الكِخْيَا لأبي في بيتنا، فسعيت جاهدًا لحذو حذوه.. أريد أن أكون مؤرخًا وجغرافيًا ورسامًا مثله. لا زلتُ أحلم بزيارة القسطنطينية المحمية، عاصمة العالم، وأجمل بقعة على وجه الأرض، هكذا تصفها «تقهيدِه آنا»، وحُفر ذلك الوصف في حنايا روحي.

لكن كل شيء تغيّر تمامًا، في تلك الليلة الغابرة التي قلبَت كل شيء رأسًا على عقب. لم تكن القاهرة التي اعتدتُ عليها، بدت وكأن سماءها تذرف الدمع، لم يكن ذاك مطرًا، ولم يكن هزيم الرعد بهزيم، بل أنينًا عصيبًا، وبدا وميض البرق عند تناطح السحب كأنه سيُسقط السماء فوق رؤوسنا، وكأنّ القيامة توشك أن تقوم.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

-٥-

منكبًّا على وجهه، يواجه الضوء المتراقص من شعلة قنديل نحاسي لامع، أخذ يعصر ذاكرته، يتعرّق راكضًا خلف الذكريات المحترقة، لتدوينها قبلما تتحول إلى رماد، يلهث باحثًا عن أنفاسه، يسعل كمن أصاب «الموت الأسود» رئتيه، ويرتشف من قدح القهوة الذي وضعته «مريم» إلى جواره دون أن ينتبه إليها أو يلتفت أو يشكرها. ارتشف رشفة أخرى واستحسن مذاقها وقال ضاحكًا: - لعنة الله عليكَ أيها الحساء الأسود، أرّقت ليلي حتى خاصمني النوم وصرتُ منهكًا مكدودًا.

أكمل التدوين في سرعة غير معتادة، ودقات قلبه تتسارع نابضة، تضرب صدره بعنف، وضع يده على صدره وشرع يتذكر ما كان، أو ما يجب. أخذ ملفوفة جديدة، فردها، تحسسها بيدين مرتعشتين، أخذ نفسًا عميقًا، وغمس القلم البوص في المحبرة، وكتب بخط عريض في المنتصف «مَرْيَم».. ترك قلمه، وأخذ الريشة، وكتب في المستهل..

«ستلتقي بشخصٍ قد تكفيكَ صُحبته عن العَالَمين»

ثم كتب أسفلها جهة اليسار: «شمس التَبْريزي»، وأكمل...

لكأنه علم أنّي سأُحبّها، فقال فيها هذا المقال!.. اليوم قررت أن لها حقًا في تدويني، الذي تعينني عليه غير متململة، ولا شاكية أن جعلتها تهجر بلدها وأهلها، وتتخلى عن عاداتها وتقاليدها، ذلك أنها تحبني من كل قلبها، صدق مولانا «جلال الدين الرومي» بقوله: «من دون الحب، كُلّ الموسيقى ضجيج.. كل الرقص جنون.. كل العبادات عبء». «مريم»، المعجزة في جمال الخلق والخلقة.. عيناها متسعتان، رائقتان. كنهر الدانوب عند شروق الشمس، متحمّستان كهدير مائه، حانيتان لي كرقرقته، قاسيتان على من عاداني كأعماقه. لها أهداب طويلة منحنية، تشبه قوسي عند أقصى شدِّي عليه، لترميني بسهم حدقتيها اللتين أورثتا لون العسل من جدتها. لم تأخذ عن أُمِّها تلك التي بلون البحر، تتفرد أُمّها بتلك الهبة النادرة التي وهبها الله إياها، ولم أرَ مثيلها في حياتي إلا في القطط، ولو ورثَتها عنها لصارت نظرتها قاسية، لكن حدقتيها تلوّنَتا بالعسل، ليجعلها أكثر هدوءًا ورقة، تكفي نظرتها لإذهاب الغصة التي تلمّ بقلبي كل حين. نقاوة بشرتها وحُمرة الخجل في وجنتيها تُنبت آلاف الأسئلة حين الطلّة الأولى، صوتها أعذب من زقزقات بلابل تشدو على أعالي الأشجار المتراصة بانتظام بديع على ضفاف النيل، تتناغم مع أنفاسها الأعذب من صبيحة ربيعية، وأمّا قوامها الذي وهبها من أتقن صنع كل شيء؛ فهذا يخصّني أنا دون سواي؛ أنّى لي باحتمال هذا

الجمال، يا سليلة الطيور الغريبة المهاجرة دومًا.. وا مريماه! يا مقلّب القلوب ثبّت قلبي على حبها، احتلت قلبي في صَغرها، واجتاحت كلي في رَيْعانها، ولما أهدتنِي وردة أعطيتها قلبي، ساءت الأمور، فوجدت متكئي بين ذراعيها، وصار قلبها بيتًا متينًا ثم وطنًا قويًا.. كلما اشتد عليّ كربي وعاندتني أنفاسي، وضعَت رأسي على صدرها، ووضعت كفّها على صدري، فيعود كل شيء إلى سيرته الأولى.

مريم، يا مَرْيَمي.

لمحها بالباب، وكأنها سمعت النداء فلبَّت.. حدّقت به مليًا، دون أن تنبس ببنت شفة، فتساءل في نفسه، وهو لا يزال يدوّن: «ما الذي يدور بخلدكِ يا ذات الوجه الواشي بالألم والحب في آن، أتتساءلين لمَ أنا هنا؟ جدائلكِ الغجرية تحبس نور الشمس المهاجرة، وتتوهّج بظلمة ليلي؛ كم لوجهك المليح من بالغ الأثر، امتزجَت براءته بروحي، فكأنما منحَتني كل الحب والرفق، ووهبَتني ذاك الحس المرهف والقلب الحاني والحضور المتدفق، من دونما إرادة».

اقتربَت منه، أخذَت الريشة من يده ووضعتها برفق فوق المكتب، وأغلقَت المحبرة. قطب، ونظر إليها مشدوهًا.. قالت: - أراهبٌ ناسك؟

هزّ رأسه نافيًا، سألَت:

- أصوفيٌ عزوف؟

ابتسم نافيًا وقال:

- لا هذا ولا ذاك..

قالت:

- ماذا تكتب؟

نظر إلى الورقة ثم إليها، وهزّ كتفيه.. قالت: - لُطفًا.. اقرأها بصوتٍ مرتفع..

رفع الورقة أمام عينيه وقال:

- تالله وبالله ووالله، إنّ الموت أحب إليّ من الحياة وأنتِ حزينة مهمومة، فأنتِ ملجئي إذ لم أجد مكانًا ألجأ إليه، والدعاء الذي أرجو من الله أن نبلغ من الكبر عتيًا جنبًا إلى جنب، أموتُ على وسادتكِ ورأسكِ يشتعل بالمشيب، أنتِ زوجي المصون وخليلتي ومرآتي وبئري وسري وملهمتي الوحيدة الواحدة.

وضع الصحيفة، ونهض يعانقها بحرارة افتقدها وافتقدَتها.. قالت دامعة: - ألا زلتَ تتذكّر عناقي؟!

ضمّها إليه أكثر وأدمع قائلًا: - لا قول أصدق من قول «الحلاج»: «مُزجَت روحكِ في روحي كما تُمزج الخمرةُ بالماء الزلال.. فإذا مسَّكِ شيءٌ مسّني.. فإذًا أنتِ أنا في كل حال».

- لا أصدقكِ.

أبعدها عنه وهو يحيط كتفيها بكفيه، وابتسم قائلًا: - أسمعتِ قول «الشريف الرضيّ»: وبي شوقٌ إليكِ أعَلَّ قلبي وما لي غير قُربكِ من طَبيبِ؟

حدقَت في عينيه وقالت:

- حسبك من العمل هذا الحد.

- على عاتقي مهمة، يجب إنجازها في أسرع وقت ممكن.

- أنت تعمل منذ يومين دون توقف، وأنا وحدي لا أرى إلّا الجواري والخدم، ثم تدَّعي شوقًا إليّ؟!

جذبته من يده، فاستسلم لها، وصعدا الدرج إلى الطابق الثاني، دخلا إلى غرفتهما، فوجدها أعدت عشاءً طيبًا، فأكلا معا، وكلما همَّ بقول شيء وضعت الطعام في فمه، وابتسامته تتسع أكثر حتى شبع، فأشار لها أن كفى، فعانقته كزهرة ثارت متفتّحة، فحدَّث نفسه أن من يُهمل زرعتَه يُلام، عليه المداومة على ريّها كل حين، هي أحق بالنضارة والتورُّد، وهو لا يكاد يتذكر آخر مرة روى فيها أرضه الخصبة العطشى. تسلّل ضوء القمر على الحائط المتشقق، يرسم ظلّيهما المتداخلين في شبق، حتى استحى القمر متنحِّيًا متخذًا مكانًا آخر في قلب السماء، وقد ذابَت قمم الثلوج التي جثمَت على تلاليهما، وعمّ الربيع في قلبها، وقد وضعَت رأسها على صدره وراحا في سُبات.

أتت الشمس دافئة، ودغدغت أذنيها تغريدات الطيور، فالتمعَت مقلتاها متيقِّظتين، وهي تتأمله نائمًا، بعد أن ظل يصل الليل بالنهار لأيام. احتضنته عيناها بابتسامة صبوحة، وأرسلت عبر الهواء قُبلة حانية، تمنت لو طبعتها على جبينه، لولا أن خافت أن توقظه. تسللت خارجة، وأغلقَت الباب خلفها برفق، ثم عادت بعد قليل تحمل الفطور، فوجدَته على حاله لم يتحرّك، صار في الآونة الأخيرة مؤرَّق اليقظة، ثقيل النوم إذا نام. وضعت ما معها على منضدة بجواره، وأخذت لنفسها ملابس نظيفة، وخرجَت إلى الحمَّام وهي تقول في نفسها إنّه الآن يستحق الراحة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

-٦-

القاهرة، ٩٤١ ه

«الحياة حلم يوقظنا منه الموت».

ولما كان اليوم الخامس عشر من شهر جُمادَى الأول في السنة الحادية والأربعين وتسعمئة من الهجرة النبوية عليه أفضل الصلاة والتحيّة، الموافق النهار الأوّل من شهر ديسمبر في السنة الرابعة والثلاثين وخمسمئة وألف من تاريخ ولادة حضرة عيسى عليه السلام». نفس التاريخ الذي انتزع فيه السُّلطان «سُليمان خان» بغداد من أيدي الصفويين، وكسر شوكة شاهَهم «طهماسپ»، وألحق به العار وبقومه وجنده، عندما هربَت الحامية الصفوية تجُرُّ ذيول الخيبة، تاركة عراق العرب دون مقاومة تُذكر.

وقتئذٍ كان «خادم سليمان پاشا» لا يزال واليًا على مِصر، وكان أبي أحد المقربين منه، يثق في رأيه ودومًا يستشيره. استدعاه إلى مقره بالقلعة، فذهب أبي على وجهة السرعة، وغاب من بعد صلاة العصر حتى وقت متأخر من الليل، وفي اعتقادي أنّ الليل قد انتصف، وزوجته «تقهيده آنا» قد اعتراها القلق وراحت تضرب كفًا بكف، وتدعو له بالعودة سالما. فلما عاد، سألَته عن سبب تأخره، فأجابها بوصول مكتوب هُمايونيّ مفاده الاستعداد فورًا لدعم حملة السُّلطان لتحرير العراق من الصفويين - وذلك قبل التاريخ المذكور بشهرين- واستعادة بغداد. سمعتُ حديثهما، فتحمّستُ لأقصى درجة، لكن أبي قتل حماستي بقراره، أني لن أبرح القاهرة المحروسة، وسيرسل بدلًا مني «محمود»، أخي الأكبر. أصبتُ بخيبة أمل كبيرة، حتى لقد فكّرت مليًّا في إعلان أول عصيان لي في حياتي على أبي، والالتحاق بالحملة مهما كانت العواقب.. ربما سأختبئ في عربات المؤن إن اضطررتُ لذلك، هذي فرصتي للقاء مثلي الأعلى، وإلقاء نظرة عن قرب إلى السُّلطان، وأبدًا لن أضيّعها.

كانت الليلة التالية عصيبة، ككثيرٍ من لياليا في السنوات الأخيرة، قامت القاهرة ولم تقعد، وأصوات الجند في الخارج لا تهدأ، ودقّ بابنا أحد العسكر يخبر أبي أن الوالي يريده على وجه السرعة، وعلمنا أن خمسة من عسكر التُرك قُتلوا!.. لا يزال أبناء بلادي لا يرحبون بوجودهم، ولا يرضون حكمهم. على الفور، استعد أبي، وقبل مغادرته حذرني من الخروج، وكعادتي سأطيعه، لكن أخي «محمود» غير موجود بالمنزل، وبالتأكيد سيتعرض لتوبيخ أبي حال عودته. أغلق الباب خلفه، وأخذتُ أنظر صوب الباب الموصد، وأنا

أتحيّن اللحظة المناسبة للخروج، حتى أتاني وقع خطوات تقترب خلفي، وإذ بي أجد «وردشان»، وفي عينيها ونبرتها لهفة اخترقتها كلماتها:

- لماذا تقف عند الباب هكذا، ألم يحذركَ أبي قبل مغادرته ألّا تخرج؟ هيا عد إلى الداخل يا «سُليمان».

أشحتُ برأسي، وهممتُ بتنفيذ أمرها، فأفسَحَت لي مسافة بجسمها كي أمر من الردهة إلى الحجرة المخصصة لي ولأخي «عَلِيّ»، أمّا أخي «محمود» فله حجرة خاصة، كذلك هي، ضربتني على رأسي برفقٍ كعادتها معي، فبيننا الكثير من المناكفات. أحببتُ معاملتها لي كأختٍ كبرى، وأسمح لها دومًا بلعب هذا الدور بأريحية، وإحقاقًا للحق؛ هي تجيده كما يجب أن يكون، وأنا أفتقد ذلك من أختي الشقيقة، حتى قبل أن تتزوّج بالموظف العثماني مساعد قبطان ثغر السويس.

قبل وصولي إلى الحجرة، سمعنا سعال جدي يشق الصمت، فنظرنا إلى بعضنا وهروَلنا إلى حجرته، بينما يزداد سعاله أكثر وتتعالى أنفاسه متقطّعة متحشرجة. وجدنا زوجة أبي تسبقنا مسرعة نحو غرفته، دخلَت فدخلنا خلفها، انحنَت على جدي ووضعَت يديها عليه تتفحصه، فإذ بجسده قد سكن، بعدما تقيأ بعض الدماء على غطائه. نادته، حاولت تدليك صدره وإنعاش أنفاسه، لكنه ظل على سكونه.. نظرَت إلينا وعيناها تقطر الدمع وتهزّ رأسها بأسف.. أمات جدي؟!

تعلَّقتُ به، أناديه وأهزّ كتفيه كي يُجيبني، احتضنتُه بكل قوّتي وأنا أفكر أنما رحل الألم وأنت حي يا جدي.. في قلبي حي.. في عقلي حي.. في روحي حي.. حي يا جَدّي حي. ربتت زوجة أبي على كتفي، وأخذتني تضمني إليها في حنان اعتدتُه منها. جلسنا على الأريكة في جانب الحجرة متجاورين، وقد أخذتنا الحيرة فيما يتوجّب علينا فعله؛ أأذهب لأخبر أبي، فأكون قد خالفتُ أمره بعدم الخروج، وفي الوقت نفسه أحطتُه بخبر سيئ في وقتٍ عصيب؟ في النهاية، توجّهتُ صوب الباب ينازعني التردد، و«وردشان» تقف متصلبة كالتمثال وعيناها مغرورقتان، وزوجة أبي تنظر إليَّ حائرة لا تصل لرأي. قبل باب الدار، تقطّعت أنفاسي، وشعرتُ بثقل الدنيا يجثم على صدري، أغمضتُ عيني بقوّة، وأخذت الرعشة تضرب كامل جسدي، وبدأ دوارٌ رهيب يأخذني للأسفل. أخرجني من تلك الدوامة السوداء سماع طرقات مزعجة على بابنا، وكأنها زلزال جائح، فتمالكتُ نفسي قدرما أمكنني، وفتحتُ، فإذ بجسد يحجب الضوء ويسد حلقَي الباب، وكأني فتحتُه على أفق حالك السواد. دخل صاحب القامة الطويلة والجسم الضخم وهو يحني رأسه حتى لا يرتطم بسقف الحلق، وهو يحمل بين يديه جسمًا تغمره الدماء، ويصرخ فيّ بصوت

خفيض وهو يكز على أسنانه من تحت لثامه «اغلق الباب بسرعة»، ما أجبرني على الانتفاض من مكاني أنفذ الأمر فورًا.

وضع العملاق ما بيديه على الأرض، ونزع لثامه، لتتبيّن لي حدقتان احمرّتا من أثر البكاء الشديد، الذي بلل الشعرات المجعدة المنتشرة بعشوائية على وجه أسود، له أنف أفطس كبير واسع الفتحتين وأسنان شديدة البياض، تلمع في هذا الليل الحالك؛ أعرفه ذلك الأسوَد، إنه «جابر الفيل»، أطلق عليه أهل حارته «بركة الفيل» ذلك النعت المناسب جدًا، فقد زيد بسطة في الجِسم، طولًا وقوّة، يملك عضلات بارزة، كما تبيّن من ذلك الحجرين القابعين على أطراف منكبيه، صدره مرتفع كصخرتين منحوتتين في علياء قوامه. شعرتُ بطنين سدّ أذني، لم أسمع ما تلفّظ به محرّكًا شفتيه الغليظتين، راح يحرّك ذراعيه الطويلتين كجذعي نخيل نبتت في بابل أمام وجهي، وأنا لا أسمع إلّا الطنين!

كانت «تقهيدة آنا» و«وردشان» قد وصلتا قبل أن أفتح الباب، وضعَت «تقيهدة آنا» يدها على وجهها وهي تنحني متفحصة الجسد الدامي، كاشفةً عن وجهه اللثام، لتتبيّن ملامحه.. آه يا قلبي! أخي «محمود» صار جثة مدممة فارقتها الروح! سقطتُ جاثيًا على ركبتي، أضرب رأسي بكفيّ، أنوّح وأولول وقد اكتمل انهياري، فما عدت أقاومه.. آهٍ يا أخي آه.. آه يا جدي.. أي ليلة تلك البائسة المظلمة؟!.. أين أنت يا أبي!..

وفجأةً، غبت في ظلام أحلك من الليل!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وصل أبي، فوجدنا على حالنا، وقد أفقت وأجلسوني مستندًا إلى الحائط بجوار أخي المسجى على الأرض. توجّس من المشهد ووجود «جابر»، وأدرك معناه، فاقترب ببطء، يحتضن الجسد الساكن، ويكتم صرخةً سمعناها جميعًا، ثم حرَّك رأسه ببطء نحو «جابر»، وهو لا يزال مغمض العينين، فأطرق العملاق رأسه ولا يزال يبكي ويهزّ رأسه بلا توقف. قال أبي بنبرة مكلومة لائمة معًا:

- أنتم! أنتم من فعلتموها يا «جابر»؟! لماذا يا بني؟ لن يترك العثمانيون بلادنا أبدًا بهذه الطريقة! لم يأن الأوان بعد لمثل تلك الأفعال، سيتركون بلادنا حين يشاء الله. لا حول ولا قوة إلّا بالله.

أخذ يمسح الدمع عن عينيه، أو بالأحرى يداريه عنّا، ثم نهض وأخذ نفسًا عميقًا، وقال في نبرة جادة:

- هل علم أحدٌ بالأمر؟

هزّ «جابر» رأسه نافيًا، فقال أبي آمرًا في صرامة:

- ويجب ألّا يعرف أحد. سندفنه الليلة.. هنا.. وإلّا هلك الجميع.

ثم نظر إلى زوجته، فوجدها تبكي مطرقة، لا تنبس ببنت شفة، فتوجّه إليها:

- ماذا بكِ يا «تقهيده خانم»؟ إنه أمر الله، ولا رادّ لقضائه. سأطمئن على أبي إن لم يسمعكم، ثم ندفن شهيدنا.

ردَّت وهي تبكي:

- المصائب لا تأتي فرادى يا «شهاب الدين پاشا».

توقف ونظر إليها، فقالت ولا تزال مطرقة:

- البقاء لله وحده يا پاشا.

أغمض أبي عينيه وكأنما أصابته صاعقة، ولم تعد ركبتاه تحملانه، فخرَّ عليهما وجسده يرتجف كاتمًا نواحه. لأوّل مرة أراه هكذا، لا يأبه بمظهره أمام أحد؛ لو أن هذا الجبل يركع منهارًا، فإن لي الإذن بخلع رداء القوة الكاذب.. وأطلقت لدموعي العنان!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في تلك الليلة، لم تغفل عيني لحظة، أستعيد مشهد الدفن.. تلك الحفرة العميقة في باطن الأرض، وهم يضعون بها جسد أخي المكفن بثوبه لم يُغسَل دمه. لا تزال رائحة التراب منذ أهلناه عليه تعبق أنفي، ومنظر أبي وهو يلتفت يمينًا ويسارًا خشية أن يرانا أحد، وكأننا نسرق!.. لكم آلمني أن أبي لم يتحدث عن الأخذ بثأره؛ لكنني حملتُ ذلك العبء على عاتقي، وأقسمتُ على حياتي بأخذه من السُّلطان نفسه.

ولما غفلت عيني بعد انبلاج النهار، رأيتُ حلمًا.. سهمًا عظيمًا يترك الوتر المرتجف، لينطلق عابرًا البحر، طائرًا فوق الجبال، يتخطّى غابات كثيفة، ليستقرَّ في أراضي الغرب، بين قدمي رجل، أمعنتُ النظر إليه، فإذ به أنا!.. تغيّرَت ملامحي قليلًا، لي لحية خفيفة نابتة على خدِّي، وشارب خطَّ طريقه واصلًا بذقني. رغم هدوء الرؤيا، إلا أنني نهضتُ وأنا أتعرّق، وبداخلي عزمٌ على ترك البيت والرحيل إلى حيث استقرّ السهم.

لم أخبر أبي أو أي أحدٍ كان، ولما جنّ الليل، خرجتُ متسللًا، أحمد الله أن لم يرني أحد، حتى ابتعدت عن منطقتنا. سمعتُ وقع خطوات تتبعني، فأسرعتُ في هَمّي، ثم توقفتُ فجأة والتفت خلفي، فلم أجد أحدًا. عاودتُ المسير، فارتطمتُ بحائط سدّ الأفق أمامي، وإذ به الأكحل الغِرْبيب مقطّبًا، ذلك الذي تبقّى من قومٍ عادٍ - كما أطلق عليه أخي «محمود»-. «جابر» ينتمي لإحدى

قبائل النَّوبَة الأصيلة، التي هاجرت قبل عقود بعيدة من جنوب مِصر إلى شمالها، فوُلِدَ هنا، ونشأ وترعرع مع أخي وأقرانه، ونظرًا لغلظة شفتيه، وحلك لونه، وطباعه الحادة، أطلقوا عليه الشنفري، وقد سألتُ أخي عن معناه، فقال إنّه لقب أشهر صعاليك العرب في الجاهلية. لم يكن العملاق يضجر من نعته، أطلق أبي على أخي وأصحابه «صعاليك خوش قدم»، الاسم الثاني لحارتنا، وظَلُّوا - دون علم أحد - يعملون جاهدين على طرد العثمانيين من بلادنا، منذ دخول سُلطانهم «ياووز»، وحتّى بعدما تسلطن ابنه «سُليمان»، وراحوا ينفذّون تلك العمليات تحت جنح الظلام، يرتقون الأسطح، ويصيدونهم بأسهمهم، وكان العملاق يضطر في الكثير من الأحايين للهبوط إلى الأرض، لتكسير عظامهم بهِرَاوته.

من خلف لثامه جاءني صوته الغليظ:

- إلى أين مسيرك؟

أطرقتُ رأسي محاولًا استعادة أنفاسي الهاربة، ومفكِّرًا في حجة أتحجج بها، ليدعني وشأني. عاود سؤالي، ولم أجد حلًا بعد، فوجدتُ نفسي أصارحه بنيّتي، فكان جوابه:

- الكتف بالكتف وقدمي بقدمكَ؛ لقد وعدتُ «محمود» أنّني لن أدعكَ تتعرّض للأذى، وأقسمتُ له بذلك على روحي.. علاوة على أنّني لم يعد لديّ شيء أبقى لأجله.

هدّدني، حال إصراري على الرفض، بِجَرِّي وإعادتي إلى أبي، وهذه كارثة في حد ذاتها، ففُرض عليّ رفيقًا في رحلتي، التي لا أعلم مآلها. ابتعدنا عن القاهرة، وأكملنا خائضين في الصحراء مترجّلين، آملين في ظهور قافلة أو ركب نستأنس به، إلى أن نصل إلى الإسكندرية.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

-٧-

زخّات مطر خفيفة داعبَت أرضَ الحارَة عند الظهيرة، معلنة أنّ الشتاء لا يزال قادرًا على الإعلان عن نفسه، فالاسم لطوبة والفعل لأمشير. لم تمنع الأمطار «كمانگير» من الذهاب إلى الدكان، حيث وقف يسترجع ما صار في صباه، وجَدّه كهل محني الظهر، يسعل كثيرًا، لكنه يداوم على صناعة الأسهم وجعابها، ويتمتع بالقوّة التي تكفيه ليختبر السهم أفضل من فتيٍّ عفي، يجذب ويرمي دون إهدار، ويُحمِّس حفيده لتقليده، فيقلده متبعًا تعليماته دون خطأ، يصنع، يسدد، ويصيب.. يحتضنه الجد ويقبِّل رأسه، متوقعًا له أن يكون خليفته. حُفر كل شيء في ذاكرة الصغير، وفي غيابه بسبب المرض الذي طرحه بالفراش، داوم الحفيد على فتح الدكان، يصنع ويجرب ويسدد بنفس المهارة، كما علّمه.

وطأ بقدميه التراب الذي دفن عتبة الدكان، وأمسك بالقفل الذي غلّفه الصدأ. ليس معه المفتاح، عليه أن يكسره، لكنه لو شرع في ذلك لاعتقد الناس أنّه لص. بعد محاولات كثيرة مرهقة، استسلم، وتوجَّه إلى دكان الحداد بالقرب، ليقترض منه مطرقته، ويضرب القفل عدة ضربات، فانكسر. فوجئ بالحداد خلفه متعجبًا يسأله: - ماذا فعلت يا هذا؟

التفت إليه، وأعطاه مطرقته وشكره، فعاود الرجل سؤاله، لكنه كان مشغولًا بمحاولة دفع الباب بكتفه، فلم يجبه، حتى انتبه إلى تجمُّع التجار وصبيانهم، يراقبون ما يفعله، متسائلين أي لص هذا الذي له تلك الجرأة! طلب مساعدة القوم، فلم يستجب له أحد، بل جرى أحد الصبية حتى دكان سيده، «بلال» تاجر الأقمشة الشهير، الذي هرع إلى الدكان عنيد الباب، وأمسك بذراع «كمانگير» صائحًا: - ماذا تظن أنك فاعل بدكّاني يا هذا؟

أزاح يده بقوّة وقال:

- دكانكَ! إنه دكان جدي، فإمّا أن تساعدني على دفع الباب وفتحه، أو اذهب..

قطب «بلال» قائلًا:

- جدكَ! من ذا يحدِّثنا يا صاح؟!

زفر «كمانگير» وقد ضاق به: - «سُليمان أفندي ابن شهاب الدين باشا»..

جحظَت عينا «بلال» وفغر فاه قائلًا: - «سُليمان»! صديق الطفولة المفقود قبل ثلاثين سنة.. أمتأكدٌ أنكَ «سُليمان»؟

التفت إلى الجموع وقال:

- لا عليكم يا جماعة.. اذهبوا إلى عملكم.. سأتدبر الأمر..

انفض الجمع، بينما عاود «بلال» النظر إليه وهو لا يصدق نفسه، فهزّ «كمانگير» رأسه أن نعم، فقال «بلال» في لهفة: - ألا تتذكر صديقك القديم؟

قطّب يتأمّله ولكن دون جدوى، فقال «بلال» وهو يتحسس قفاه: - أنا «بلال» يا أخي، رفيقكَ.. أنتَ من علّمني الرماية، ولكَ الفضل في ذلك.

أخذا يحدِّقان ببعضهما، يتأملان وجهيهما اللذين غيرتهما السنون، حتى رفع «كمانگير» ذراعيه، فألقى «بلال» نفسه عليه، يتعانقان بحرارة. تباعدا أخيرًا، بعد طول عناق، وابتسم «كمانگير» وهو يربت على كرش صديقه مداعبًا: - ما هذا الكرش يا صديقي؟ يبدو أنكَ لا زلتَ تفرغ همكَ وضيقكَ في تناول الطعام.

ضحك «بلال» وضرب «كمانگير» في كتفه وقال: - لم تتغيّر، لا تزال خفيف الظل مناكفًا.

دعاه «بلال» ليستريح في دكانه، فذهب معه، وجلس قبالته، حيث نادى صبيّه ليحضر فنجانين من القهوة، بينما «كمانگير» يسترجع أيام الطفولة، وابتسامته تتسع شيئًا فشيئًا، متأملًا دكان صديقه، على اتساعه الذي امتلأ بالبضاعة، لقد تغيّر عما كان عليه عندما كانا صغيرين، ووالده يديره وقتئذ. سأله وقد تذكر كل شيء: - أين ثالثنا؟

تنهّد «بلال» متأثرًا وقال: - حدث بيننا سوء فهم دون قصدٍ منّي، قاطعني بسببه.

- ماذا حدث؟!

- سأحكي لكَ ونحن نحتسي القهوة.

ومع آخر رشفة من فنجانيهما، كان «بلال» قد قصّ عليه ما فاته، وارتسم الحزن والتأثر جليًا على ملامح «كمانگير»، وأخذ يردد وعدًا بأن يجد حلًا لما صار. حاول «بلال» تغيير مجرى الحديث، فسأله: - ماذا تنوي أن تفعل؟

- أعمل في مهنة جدي..

- تصنع الأقواس والأسهم وجعبها؟

- أجل.

- وهل أنتَ بحاجة إلى ذلك؟

- لا؛ لكنني لن أقبع بالبيت كالنساء.

ابتسم «بلال» وقال:

- ألن تحكي لصديقكَ أين كنتَ طوال تلك السنين؟

- هذه حكاية طويلة، سأقصها عليكَ فيما بعد..

نهض قائلًا:

- والآن، هل ستساعدني على فتح الباب، أم طالتك الشيخوخة؟

نهض «بلال» وقال ضاحكًا:

- كتفي في كتفكَ يا صديقي.

نجحا في دفع الباب بكتفيهما معًا، حتى تزحزح مصدرًا صريرًا حزينًا، من أثر الهجر والتراب المتراكم خلفه. استقبلتهما خيوط العناكب المتدلية من السقف إلى الأرض، تُكبّل الذباب والحشرات الميتة. ربت «بلال» على كتف صديقه وقال: - لا عليكَ، سأجعل صبياني يتدبرون أمره، لتعود في الصباح وكل شيء جاهز.

- والآن؟

- تظل معي في الدكان، ثم نذهب إلى البيت للغداء، ها، ما قولكَ؟

- لنجعل ذلك في يوم آخر..

- وما المانع؟

- لم أخبر امرأتي أنني سأغيب طويلًا.

فرح صديقه لزواجه، وغمز بعينه وضربه برفق في كتفه، وسأله عن مسكنه في الوقت الحالي، فأخبره أنه لا يزال بنفس بيته بعد أن جدده، ففرح بعودة جيرته الطيبة، هكذا سيلتقيان كثيرًا كما كانا في السابق، إضافة إلى أن دكانيهما قريبان في نفس الخان.

ذهبا معًا يتدافعان كالصبيان كما كانا يفعلان في الماضي، وضحكاتهما تتردد في أرجاء الخان، تجذب أنظار وابتسامات كل من حولهما.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

عاد إلى بيته قبيل الغروب، فلم يجد «مريم» في الحرملك! سأل عنها جاريتها، فأخبرته أنها بالطابق الثاني منذ الظهيرة، لم تنزل، ولم تتناول

طعامًا، فصعد مسرعًا إلى غرفتها، فوجدها جالسة في الفراش وهي في غاية الحزن. ناداها فلم تجبه، جلس على طرف الفراش وسألها عما بها، لم تجبه، وهي تنظر إليه بعينين دامعتين. أمسك بيدها، فانتزعتها منه، وجاوبته بصوت مبحوح: - أين كنتَ؟ لماذا تأخرتَ؟

تنفس الصعداء وعانقها قائلًا: - لا يليق ب «مريم» أن تحزن، لا يليق بها الهمّ أبدًا.. يليق بها أن تقرّ عينها ولا تحزن، ولا تكُ في ضيق..

ابتسمَت بين يديه وقالت بنغمة رقيقة: - لماذا؟

فابتسم قائلًا:

- لأنّ الله قال في كتابه عن ستنا «مريم العذراء»: «يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ»، وقال أيضًا: «يا مريم إنّ الله يُبشِّرُكِ»، وقال: «وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ»، إنّ «مريم» حبيبتي سَمِيَّة من كانت آية من آيات الله.

قبَّل جبينها وقال:

- لن أبتعد عنكِ مرة أخرى.

- وهناك شيء آخر..

- وما هو؟

نظرَت إليه بنصف عين، وهي تقول: - ما الفائدة من وجود الجواري بالمنزل؟

- لخدمتكِ.

- وماذا عن تلك الجارية التي أهدتها لكَ «تقهيده خانم»؟

هزّ رأسه وقد فهم مقصدها، إبتسم وهو يقول: - الآن فهمتُ. إن أعدناها إليها ستحزن، وأنا لا أريد أن أُحزنها، لكنني أعدكِ بألّا أقترب منها ولا من غيرها، اطمئني أنا لكِ وحدكِ.

- عدني بذلك.

- بل أُقسم لكِ.

ضمّها إليه بتحنان، فغلّفته بالألفة والمحبّة، فتضاحكا وتسامرا..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

-٨-

الخروج، ٩٤١ ه

«كُن حيث يُؤخذ بيدكَ وتُبَر، ولا تكُن حيث يُؤخذ برجلكَ وتُجَر».

سرنا خلسة، خلف قافلة متجهة إلى الإسكندرية، على مسافة كافية ألَّا يشعر بنا أحد. كان ل «جابر» الفضل في ذلك، أدهشتني مهارته في اقتفاء الأثر وقراءة خرائط النجوم، وتوقُّع الريح والعواصف. كنتُ أكره أنه أجبرني على أن يرافقني، بخلاف أنه أصبح بالنسبة لي رمزًا للطالع السيئ منذ مجيئه بجثمان أخي «محمود» رحمه الله؛ لكن شيئًا فشيئًا اكتشفتُ سبب محبة «محمود» له، فإنَّ به شيئًا طيّبًا يجبرني على محو الانطباع الذي خلّفه في تلك الليلة الغابرة.

مرّت الليالي وتلتها الأيام، حتى وصلنا إلى شاطئ الإسكندرية، الذي عجّ بالمسافرين، وتبقّى أن ندخل إلى سفينة دون أن يرانا أحد، سيلحظون العملاق بلا شك، إلّا إذا قرأنا عليهم «فأغشيناهم فهم لا يبصرون». لم يكذّب «جابر» خبرًا، وكأنه قرأ أفكاري، وجدتُه يجذبني من يدي ويقفز بي إلى البحر، لم يعطني فرصة كي أخبره أنني لا أجيد السباحة، فكدتُ أموت لولا أن أنقذني، وقد أخذ يسبّ خيبتي التي لم يتوقَّعها أبدا في شقيق ل «محمود»، لكنه رغم ذلك استطاع التسلل بي إلى السفينة. لم أسأله كيف عرف مكان غرفة تخزين الأطعمة، بينما ظلّ يُملي عليّ التعليمات وكيفية حبس الأنفاس عند دخول أحد إلى الغرفة، وأنَّ علينا تحمّل هذا الوضع الصعب لأيام، لا ندري متى ستتوقف السفينة، ولكنها على الأرجح ستتوقف بالبلاد الشامية ليومين على الأقل، ثم ستعاود رحلتها إلى الآستانة، هذا إن كانت متوجّهة إلى عاصمة العثمانيين من الأساس، أي أننا تحت رحمة الحظ؛ ضغط حروف كلمة «الحظ»، ورمقني بنظرة متشككة، كادت تضحكني رغم ما نحن فيه. ولما سألتُه عما يتوجّب علينا فعله إن نفد منا الزاد، قال: سنأكل من الموجود بالغرفة وليسامحنا الله على ذلك!

عجزتُ عن تمييز الليل من النهار في ذلك المخزن الخالي من النوافذ، إلّا أنني أظن – حسب دورة الهدوء والضجيج وحركة الناس على سطح السفينة - أنّ ما انقضى كان ثلاثة أيام، والله أعلم. عانيتُ الأمرّين من دوار البحر، وأفرغتُ ما في جوفي مرارًا، وشعرتُ أن رفيقي قد ضاق بحالي ذرعًا، لكن ما بيده حيلة، فهو الذي أصرّ على رفقتي وفاءً لأخي، وهو لن يخلف وعده ما بقي له من عُمر. كان علينا تنظيف القيء، كي لا تفوح رائحته في المخزن فننكشف، ثم يتسلل للتخلص من آثاره في البحر والعودة إليَّ، واستمر على

هذا حتى توقفت السفينة أخيرًا، وسمعتُ نزول المرساة إلى قاع البحر، والناس من فوقنا تتحرك للنزول إلى اليابسة. أنا أيضًا اشتقتُ لليابسة كاشتياقي لبلادي، التي لا أعلم متى سأعود إليها. شعرتُ لأول مرة في حياتي بمعنى الغربة يجتاح قلبي، وبأنني أحب بلادي حبًّا جمًّا، لم أكن لأعيه لولا هذه الرحلة.

رست السفينة في مرفأ «طرطوس»، وسمعنا من التجار أنها ستعود بعد بضعة أيام إلى الإسكندرية! وأنهم سيكملون الطريق برًا إلى «بغداد»، على بعد مسيرة يومين، فسرنا وراءهم، إلى أن تجلّى لأعيننا مبنى من طابقين، أخبرني «جابر» أنهم يدعونه «بيت القوافل» أو «بيت المسافرين» فخمن أننا في «حِمْص». دخلنا، فاستقبلنا المسئول بابتسامة واسعة، ولكنة شامية ميَّزت كل تعبيرات الترحيب التي تفوّه بها، وأمر العاملين بسؤالنا عن حاجتنا، ثم بعد قليل قدموا لكل منا الخبز والأرز وصحن خضروات، علاوة على قطعة من اللحم المجفف، وصحن فاكهة وقدر ماء. وقبل أن نشرع في تناول الطعام، نادى أحدهم أن الحساء جاهز، وعلى من يريد أن يأتيه بقصعته، وكله بالمجّان! وأمرنا الخانجي بالدعاء لحضرة السُّلطان!

بالكاد تمالكتُ نفسي، وأمسكَ «جابر» بيدي قبل أن أتفوّه؛ لن أنسى أن سلطانهم ذاك يحمل وزر مقتل أخي، وأبوه يحمل وزر مقتل أخوالي، ولن أكلّ عن الاقتصاص منه شخصيًا، فما عزمتُ على ترك بلادي إلا لآخذ بثأرهم من العثمانيين، ولن يثنيني عنهم شيء.

دخل إلى المكان رجل قصير معقوف الحاجبين، منحوت الوجه، له شارب حالك كثيف يخفي فمه تمامًا، لحيته طويلة كثة تخلّلها المشيب، مليح القسمات رغم تقطيبه، يلفّ خصره بشالٍ قطنيّ بلون سرواله الأخضر المائل إلى الزُرقة، عدّل من وضع طاقيّته الاسطوانية الخضراء المائلة للزرقة، الواسعة من الأعلى، مع بَرْنيطة ملوّنة على الجانب الأدنى، لمّ طرف قفطانه المخطط الذي يرتديه فوق عباية الفيراس الحالكة، وجلس إلى الطاولة وهو يتأفّف، ويضرب الأرض بحذائه الداكن الذي بدا واسعًا.

انتبهتُ إليه، واسترقتُ السمع، بينما رفيقه الشاب يهدئ من روعه وهو يقول: - اهدأ يا عمي، ليس عليكَ أن تضجر من طلبات الپاشا، فهو يخدمنا في تجارتنا كما نخدمه.

عقد الرجل جبينه ونظر إليه وقال:

- يا رب العالمين.. الپاشا يطلب كثيرًا لقاء مساعدتنا كتجّارٍ من الروم، وليس عليه أن يحمّلني برسالة إلى تجّار تَبْريز، ماذا لو أمسك بنا العثمانيون؟ ستقطع رؤوسنا بتهمة التجسس لصالح الصفويين.

ابتسم الشاب وهو يقول:

- لا تنسى أننا أيضًا عثمانيُّون، علاوة على أننا من يهود الروم، ومن حسن حظنا وحظ الپاشا أننا مسموح لنا بالانتقال كما يحلو لنا في الأراضي العثمانية، وإلّا لما كان لنا أية قيمة عنده وغيره من الأعيان.

زمّ الرجل شفتيه وقال بصوت خفيض:

- هذا استغلال بغيض لنا كيهود، هكذا يفعل المسلمون دومًا.

اتسعَت ابتسامة الشاب وقال:

- ولكنهم يعطوننا حقوقنا، ولم يبدر منهم شيئًا حتى الآن ينبئ عن سوء النية.

زفر العجوز وقال:

- ماذا لو لم ننفّذ ما طلبه الپاشا، ماذا ستكون عاقبتنا؟

أمال الشاب رأسه وقال:

- نخسر تجارتنا في إيالة مصر؟ لكنه لن يقتلنا.

كشّر عن أنيابه وهو يقول:

- «شهاب الدين پاشا» نافذ إلى أبعد مما تعتقد، يستطيع أن يفعل ما يحلو له، الوالي لا يقدر على اتخاذ قرار من دون مشورته.

توقف الزمن بي، عندما سمعتُ اسم أبي! ما علاقة أبي بهذا اليهودي المتأفّف؟ عن أي خدمات يتحدث؟ وأي تاجر في «تَبْريز» له علاقة بأبي؟ وما فحوى تلك الرسالة التي يحملها الرجل؟ ما علاقة أبي بالتاجر الصفويّ؟ يبدو أنّ أبي يُدبّر شيئًا ضد العثمانيين! عاودتُ الإنصات إلى حديثهما بتركيز، أكمل العجوز قوله: - عرفتُ أنّ الپاشا، بعدما اقترح الپاشوات وأمراء المماليك أن يكون حكمدارًا لمديرية الشرقية، لإبعاده عن القاهرة، استطاع إقناع الكتخدا پاشا ببقائه. ليس هذا فحسب، بل أطاح بكل من أراد إبعاده واحدًا واحدًا، بحنكةٍ منقطعة النظير، فمنهم من أُبعِد إلى الشرقية وفشل في إدارة الأمور، ومنهم من حُبس بتهمة الاختلاس والرشوة، ومنهم من أُعدم جرَّاء جرائم أخرى لم يرضَ الكتخدا بالعفو عنها، لدرجة أن الپاشا نفسه تدخَّل بشكل هزلي لإقناعه بتخفيف العقوبة، إلّا أن الوالي رفض وأصرّ على الإعدام. كانت هذه رسالة منه لأعدائه، كي يعيدوا النظر ألف ألف مرة قبل أن يتخذوا أي موقفًا ضدّه، وإلّا هلكوا بشتى السبل. هذا الپاشا داهية، ولم أجد في حياتي مثيله، حتى بين اليهود أنفسهم، يا الله رحماك! عليّ إخبار جادول (الحاخام) طائفتنا في الآستانة بكل شيء.

أخذَت ابتسامة الشاب تتسّع أكثر فأكثر، بينما عمّه يستشيط غيظًا، وقال: - ليس عليكَ فعل ذلك يا عمي، فمثل هذه الأمور يجب ألّا يعرفها غيركَ والپاشا، وإلّا فتحتَ علينا نيرانًا لا يمكنكَ إخمادها، ولحُرمنا من ممارسة تجارتنا في مصر والعودة إليها مرة أخرى.

ضرب العجوز بكفّه على الطاولة، وقال مستشيطًا:

- يا رب العالمين، ماذا عليّ أن أفعل يا هذا؟!

اتسعَت ابتسامة الشاب وقال بثقة:

- إن لم تستطِع هزيمتهم، انضمّ إليهم. تريّث عمي الحبيب، ولا تدع للشيطان الفرصة لخراب روحكَ.

زفر العجوز وهو يرمق ابن أخيه بنظرة المغلوب على أمره، وامتنع عن الحديث.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بعد مسير ثلاثة أيام بلياليهم، جاء يوم الجمعة التاسع والعشرين من جُمادَى الآخرة للسنة الثانية والأربعين وتسعمئة هجرية، ثالث يناير، وتوقفَت القافلة مرة أخرى عند بيت القوافل الذي التقيناه في طريقنا، فقال «جابر» إننا بلا شكٍ في غوطة دمشق، ولما سألنا عن سبب التوقّف، قالوا إنّها ليلة السبت تحلُّ غرّة رجب، رابع يناير، وعلى اليهود التوقّف حتى يمضي يوم السبت. وبالفعل، قضينا الليلة في بيت القوافل، وكعادتي أشعر بالاختناق في الأماكن المغلقة المكتظة، فخرجتُ عندما جنّ علينا الليل أستنشق الهواء، فإذ بي أرى الشاب اليهودي يقف على مسافة قريبة ينظر إلى السماء، فدفعني الفضول للاقتراب منه، حتى لاحظ وجودي فالتفتَ مبتسمًا، وقال: - مرحبًا، يبدو أنكَ أيضًا تجد صعوبة في المكوث بالأماكن المكتظة.

بادلتُه الابتسام، وأومأتُ برأسي أن نعم. لم أتوقع أن يكون فطنًا إلى هذه الدرجة، أو ودودًا إلى هذا الحد، أو قد يكون مبالِغًا. قلتُ: - لن أسألكَ كيف عرفتَ ذلك، لأنني أعتقد أنكَ مثلي تعاني نفس الشيء.

ابتسم وهو يقول:

- بالطبع، أيضًا أُعاني من الترحال المستمر والانتقال من مكان لآخر مع عمي، لا أقول هذا شكاية، بل أدين بالولاء له، لأنه من ربّاني بعد وفاة والدي، فلم أعرف لي أبًا غيره، وهو يثق فيّ أكثر من أبنائه، ولا ينتقل بدوني. إنه عصبيّ جدًا، ولزامًا عليّ ملازمته وإلّا استطاع الشيطان بكل سهولة الولوج إلى روحه وتخريب كل شيء.

- جزاكَ الله عنه كل خير.

اتسعَت ابتسامته وهو يربت على كتفي قائلًا:

- سلمتَ.

بادلتُه الابتسام، هممتُ بسؤاله عن شيء، لكنني تراجعتُ عنه. ابتسم وهو ينظر إلى السماء قائلًا: - لا تقلق يا صديقي، سيمُر نهار السبت سريعًا، ثم نعاود مسيرنا إلى وجهتنا. أعرف أنّ الجميع يضجر بسببنا في كل ترحال، والرحالة النصارى أكثر من لا يرتاحون لصُحبتنا، لأنهم يروننا مثيرين للمشاكل، كما يتناقلون أننا نُصِرُّ على الوقوف والراحة أثناء يوم السبت، ويشيعون أننا إذا لم نستطع ذلك نقوم برشوة قائد القافلة للتوقّف، أو رشوة أحد المرشدين كي يسمح لنا بالركوب أمام القافلة في اليوم السابق للرحلة والراحة أولًا، ثم اللحاق بالقافلة بعد السُبوت. لكنّهم مُجبرون على تحمّلنا، أوتدري لمَ؟

- لمَ؟

- لأننا أكثر الناس سفرًا، ودراية بالطرق، ونجيد الكثير من الألسنة، فنعرف العربية والتركية والفارسية واليونانية والإفرنكية والإسپانية والروسية. أعتقد أنّ أحدهم أخبركَ بذلك يومًا.

فأشرتُ برأسي أن لا، فابتسم وأكمل:

- لا عليكَ، لتكن مشيئة الرب، وما علينا إلّا تنفيذها مهما كلّف الأمر.

نظر إليّ مطوّلًا وقال:

- بادٍ عليكَ التعب جليًا من أثر السفر، أعرف أنّ الطرق البريّة طويلة ومتعبة، لكنها أسرع وأكثر أمانًا من النهر، فبات التجّار يفضّلونها، علاوة على أنّ قافلتنا صغيرة، مئة وخمسة وأربعين جملًا وأربعين حمارًا، وخمسة عشر حصانًا، وسبعين رجلًا مدججين بالسلاح مكلّفون بحراسة القافلة.

هذا الشاب يثير إعجابي، حاذق ودقيق إلى حد عجيب. التفتَ إليّ مبتسمًا، ثم ذهب وتركني في حيرة أرَّقتني حتى مطلع الفجر.

أشرقَت الشمس، وانقضى نهار السبت سريعًا كما توقع الشاب، كما انقضَت الليلة التالية، وعاودت القافلة المسير ونحن خلفها، في النهار التالي ثاني رجب، خامس يناير. على حين غرّة، هبّت رياح عاتية، شمالية شرقية بحسب قول صديقي، أبطأتنا وصعَّبت السير، ومنعَتنا من رؤية القافلة، فقضينا ليلتين في مكاننا، وفي الثالثة خامس رجب، فشل رفيقي في قراءة خريطة النجوم، بسبب الغيوم التي ابتلعَت كل شيء. ولما هدَأت الريح وانقشع

الضباب، وعادت السماء للظهور، أيقنّا أنّنا أضعنا القافلة، لكنه اقترح التحرك بسرعة قبل أن تعاود عواصف الصحراء الهبوب، وواصلنا المسير والقلق يعترينا، لكن ما من سبيل إلّا المواصلة، فالانتظار في مكاننا لا يعني إلا التهلكة، وربما نصادف قافلة أخرى على الطريق.

صهرتنا الصحراء في متاهاتها، ثلاثين يومًا، لم نرَ خلالها أي بيت أو شجرة أو بشر ولا أية إشارة للحياة، حتى تراءت لنا الغابات عند الأفق. كان علينا خوض الغابات مهما كلفنا الأمر، فقد نفد منا الزاد. كنتُ الأضعف والأقل صمودًا، وقد جفَّ حلقي ولم تعد قدماي تقدران على حملي، أكاد أتوكأ على «جابر»، الذي لم أفهم اشتداد حذره، بدلًا من أن يسعد بأمل الماء والظل والرزق لأحشائنا الصارخة بالجوع، إلا حين فوجئتُ بالسماء تمطر علينا السهام من كل حدب وصوب، أصابتني حيث أصابتني، فلم أشعر إلّا وقدماي تهرعان بي نحو الغابات، يحفزِّني صياح رفيقي بأعلى صوته أن اركض، اركض، فأركض بأقصى سرعتي نحو الغابات، التي وجدتُها تتشكّل أفرعها وكأنها المخالب الطويلة، وتتشابك أغصان أشجارها وتتداخل، لتقتنصني كذبابة غبية كبَّلها بيت العنكبوت، فأدركتُ كم أنّ الطبيعة الخضراء الجميلة عند الأفق في حقيقتها موحشة قاسية عن قرب، أنّى لأحد هزيمتها واستئناسها، استنفدت طاقتي، وأتاهتني في أحراشها الكئيبة، ووجهي قد أدمته لطمات الأغصان الرفيعة، وما عدتُ قادرًا على التقاط أنفاسي، في دوامة لا نهائية من السقوط والنهوض..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

-٩-

أرسل إليه «بلال» أنه قد ابتاع له مستلزمات صنع الأقواس والسهام وجعابها، فمر به ليأخذ أشياءه، وحملها بنفسه إلى دكانه. وجد المكان قد تبدَّل حاله، ووجد صبيًا يجلس على بابه، أخبره «بلال» أنه وظَّفه لمساعدته، وأنه طيب وفيه نباهة وسيعينه على العمل. ما عليه الآن إلّا البدء بجد، وترك التدوين مؤقتًا، حتى يستعيد مهارة صنعته بعد طول هجر.

ولما انتهى من صناعة أوّل سهم، راح يقلّبه بين يديه، يتحسّس جسمه، حتى وصل مقطّبًا للرأس المدبب الملتمع أمام عينيه.. السهم مثالي، لكن هناك شيئا ينقص، ما الذي ينقصه بعد؟ لحظات وزال تقطيبه، والتمعَت عيناه، وعاد إلى مؤخرة السهم قبل الريشة، ونقش وشمه، رأس الهدهد. الآن اكتمل السهم، فوضعه في سلّة بجواره، وبدأ نحت المزيد من الأسهم، حتى امتلأت السلّة عن آخرها، والصبي يناوله ويتابعه بتركيز وإعجاب.

استعاد مهارته في وقت قصير بحق، وظل يعمل حتى نسي الطعام والشراب، نسي حتى نفسه، حتى جاءه «بلال» بكوب، وناول صبيَّه كوبًا مماثلًا، ولما سأله «ما هذا؟»، قال: «بعض الخير»، فابتسم متذكّرًا أيام طفولتهما، فهذا كان جوابه دومًا. شرب دون أن يسأل مرة أخرى، واستحسن مذاق الخير الذي شربه، فشكره، فابتسم «بلال» ناظرًا في إعجاب إلى السلّة وما بها: - أعانكَ الله يا صديقي.

شعر بالهِمّة مرة أخرى، فأخذ يعمل على صناعة الجُعب، يمرر المخراز في الجلد بمهارة، ويحكم تثبيت طبقاته ببعضها بالخيوط القوية. أتبعها بصناعة قوس واحد، أتمَّه وقد اقترب الغروب، فترك كل شيء، وابتسم للصبي الهادئ يخبره أن كفانا اليوم ما أنجزنا، وصرفه وأغلق دكانه، ثم مد الخطو على الطريق لبيته، وإذ «بلال» ينتظره حاملًا جعبتين، ناوله واحدة..

- ما هذا؟

- بعض الخير.

حاول رفضه، إلّا أنّ صديقه أصرّ قائلًا: - إذا أرسلَ الله الغيث، أرادٌّ له؟

- حاشا.

- والخير كالغيث، يرسله الله، فلا يُرَدّ.

ابتسما وسارا معًا، يذكِّر أحدهما الآخر بأيام كانا يسيران هكذا حتى المفترق، فيذهب كلًا منهما إلى بيته، وكأنهما يستعيدانها الآن، ولكن بعد أن راحت

منهما أشياء وأشياء.

استقبلته «مريم» كطفلة، عانقته، قبّلته، تعلقت بعنقه، عاودت ضمّه إليها، وهو منهك لكن يبتسم، متعب لكنه قادر على بث الدفء في روحها بعناقه. رأت الجعبة، فسألته: - ما هذا؟

فابتسم قائلًا:

- بعض الخير.

- ممن؟

- «بلال».

- وهل نحتاجه؟

- لا، ولكننا اعتدنا على فعل ذلك مع بعضنا.

فتحَتها وأخذَت تخرج ما بها: فاكهة، خبز، قارورة حليب، بلَّاص عسل، جبن، وتمر. سألته وهي تمسك بتمرة قسمتها نصفين وأعطته نصفها: - لدينا الكثير من الخير، ويجب علينا أن نتقاسمه معه.

ابتسم وقد راقت له فكرتها، بينما قالت بحماسة: - في الغد سأذهب لزيارة «تقهيده خانم» أثناء غيابكَ في العمل.

ابتسم قائلًا:

- لا مانع، ولكن في حماية أحد الأغوات.

ضاقت عيناها وهي تتساءل:

- أتراقبني؟!

هزّ رأسه نافيًا وابتسم قائلًا:

- حاشا.. وإنما لحمايتكِ، أنتِ الآن خانم، وهذه هي العادات في مجتمعنا.

سكتت على مضض، لكنه كان على يقين أنها لن تخالفه، ولن تستمر في ضيقها.

وفعلًا، في اليوم التالي، عندما عاد إليها بعد العصر، وجدها تستقبله بابتسامة واسعة، وتحكي في ابتهاج أن الخانم أعطتها هذا البرقع، وذاك اليشمك، وجلبابًا فضفاضًا، قد صنعتهم بنفسها، وكيف أنها ودودة، تصنع طعامًا عجيبًا لذيذًا شهيًّا، وأنها حكت لها الكثير عن «شهاب الدين پاشا». استمع إليها مرتاحًا لهذه الصحبة الآمنة لها، والتي ستؤنس أيامها في غيابه، فقد عادت

شهيته للتدوين بعد أسبوعين من الانشغال بالدكان، فصار يكتب حتى منتصف الليل وحضور النوم، ليصحو عند أذان الفجر، فيذهب إلى الجامع الأزهر، كما اعتاد قبل رحيله منذ ثلاثة عقود، يعود بعدها إلى بيته ينام ساعة، ليصحو لتناول الفطور معها، وعند الشقشقة يخرج إلى دكانه في همّة كان قد اشتاقها، وإن صار غيابه عن «مريم» أطول من صحبته لها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فور عودته، أخبرته «مريم» عن تلك العجوز التي اشتعل رأسها بالمشيب، ورغم المشيب إلّا إن شعرها لا يزال كثيفًا طويلًا ناعمًا، لا ترتدي غطاء رأس، لكنها ما زالت تحتفظ بمليح القسمات، تداوم على الجلوس بشرفتها المطلّة على الشارع، قابعة خلف مشربيّة الطابق الثاني ببيتها، المقابل لبيتهم إلى اليسار قليلًا، تجلس لوقت طويل، خدَّاها يتكئان على قبضتيها، لا تتحدث لأحد، قالت: - بينما كنتُ عائدة من عند «تقهيده خانم»، مررت بمنزلها فسمعتُها تنادي: «أيتها الحسناء»، اعتقدتُ أنّها لا تناديني.

قاطعها:

- أهناك حسناء في الحارة غيركِ؟!

ابتسمَت ثم أكملَت:

- ولما كررَت النداء، قلتُ: نعم يا خالة، قالت: «تعالي»، ثم دعتني للدخول.

- وبعد؟

- سألتني: «من أنتِ؟»، فأخبرتُها أنني زوجة «سليمان أفندي ابن شهاب الدين پاشا».. هل تعرفها؟ إنها جارتكم منذ الأزل، اسمها «أم سَمعان».

شهق متذكّرًا:

- «سَمعان» صديق طفولتي أنا و«بلال»، أين تراه الآن؟

أطرق رأسه، ثم رفعه محدقًا بها وقال: - عليّ الذهاب إليها، رتِّبي لي ذلك اللقاء.. في الغد إن أمكن.

بدَت عليها السعادة، وعبَّرَت عنها باحتضانه. كان يعلم أن لن يهدأ بالها حتى تصاحب كل نساء الحارة، ويعلم تمام العلم أنهنّ سيحببنها كثيرًا، ليس لحُسن خِلقتها المليحة فحسب، بل أيضًا لخُلقها، والمودة التي تنثرها أينما ذهبت. أما هو، فلن يهدأ له بال إلّا بلقاء «سَمعان».

دخل إلى غرفته، وراح يكمل التدوين..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

-١٠-

الأحراش، ٩٤١ ه

«ليس كل ما تراه حقيقة، ولا كل ما تسمعه صدقًا، ولا كل ما تعيشه واقعًا».

نهضتُ مرة أخرى، وأسرعتُ في تسلُّق إحدى أشجار السنديان، اختبأتُ بين أوراقها أحاول جاهدًا التقاط أنفاسي، واستكشاف من يطاردونني من أعلى. وصلتُ من التركيز أقصاه ولم أجد لهم أثرًا، لكنّ دخانًا عجيبًا تصاعد ببطء حتى وصل أعالي الأشجار، وكأنّه يغلّفني لحمايتي من المتربصين، أو كان هو من المتربصين! كانت رائحته غريبة نفّاذة، ليست كأي دخان عرفت، وضعتُ يدي على أنفي مانعه من اختراقها، لكنني بدأتُ أشعر بدوارٍ، وأيقنتُ أنني فاقدٌ وعيي لا محالة.

عدتُ إلى الوعي، ولم أدرِ كم لبثتُ في غيبوبتي، لم أقوَ على الحراك، وبصعوبة أخذت عيناي تتجوّلان هنا وهناك باحثة عن أحد، ورويدًا رويدًا التقطت أذناي استغاثات تأتي من بعيد، فنهضتُ أترنّح، أزيح أفرع الأشجار من طريقي، حتى شعرتُ باقترابي جدًا من مصدر الاستغاثة، مصحوبة بجلبة أبغضها؛ نقيق ضفادع وصرير صراصير! تلك الجلبة التي لا تجتمع على خير، وانتهى طريقي بمستنقعٍ يعجّ بأنكر الروائح. قاومتُ شعوري بالغثيان، ووضعتُ لثامي أكمِّم أنفي وفمي، ودرتُ بعينيّ حول المستنقع، لأجد كهلًا كالحًا يصرخ في وسطه، عالقًا لا يقوى على الخروج، نظرتُ حولي أبحث عن غصنٍ أمدّه إلى الرجل فألتقطه من مأزقه، وبالفعل وجدتُ غصنًا طويلًا تحت إحدى الأشجار، مددتُه إلى العجوز، فالتقطه متشبثًا به بقوّة، وجذبتُه بصعوبة. ألقى بنفسه على ظهره، وظلّ مستلقيًا جاحظ العينين يجتهد لأخذ أنفاسه، حتى ظننتُه مفارق الحياة. لكنه فاجأني عندما اعتدل واقفًا، كمن خرج لتوّه من شرنقة، أصلع الرأس منسدل الشعر من الجانبين مبتلًّا، نحيف الجسم كأنّ عظامه تبرز من فوق لحمه. كان منتصبًا، ولما أمعن النظر إليّ أحنى ظهره، وكأنه أجبره على ذلك! لا يعوَّل على أفعال الكهّال، وعلينا تحمّلهم دون ضجر. لكنه تحدث إليّ بنغمة فحيحية أقلقتني: - أي بني، أشكركَ جزيل الشكر على ما فعلتَ لأجلي، هل لكَ بحملي لنخرج من هنا؟

لم أستوعب جيدًا قوله، لكنه أعاد ما قال وزاد بقوله: - أنا أحفظ الطريق عن ظهر قلب، وسأرشدكَ للخروج من هنا.

ما كان أمامي اختيارٌ إلّا أن حملتُه، ولما حملته زادت الريبة في صدري، فبرغم خروجه من ماء المستنقع إلّا أنني شعرتُ بسخونة جسمه فوق كتفيّ! أخذتُ أقطع الطريق بين الأشجار والأفرع البارزة والأوراق المنتشرة

من حولنا، وهو يدلّني على الطريق؛ لكنّه سألني سؤالًا عجيبًا: - أسمعتَ عن «آشماداي»؟

لم أستطع تحريك رأسي للنفي، وخرج صوتي بصعوبة وأنا أقول «لا»، فقال: - إنه ملك العفاريت، أحد أمراء الجحيم السبعة، المسؤول عن اللهو والمتعة. أتعرف «إبليس»؟

هنا اعترتني الرجفة وأنا أقول بصوت مرتعش: - ومَن لا يعرف اللعين؟!

ضحك وقال:

- إنّه أحد المقربين منه، كلَّفه بإلحاق الضرر بمن يعارضه ويعصاه، وفي الوقت نفسه ساعد «شلومُه ها-ميليخ» على البناء، وبناء الهيكل اليهويّ مع باقي العفاريت. أتريد معرفة أوصافه؟

لم أُجبه، أكمل دون أن أُبدي موافقتي:

- ذو رأس كبير مكسو بالشعر الأجعد، يضع تاجًا على رأسه، له أذنان كبيرتان مسحوبتان مدببتان، ضيّق العينين مشقوقتان في وجهه بالطول، أفطس الأنف واسع الفتحتين، شارباه ينبتان من سافلة أنفه ويحيطان بشفتيه كخطين رفيعين، منتفخ الشفة العليا والسفلى أكبر منها، له لحية كثيفة ولكنها ليست من الشعر بل من خيوط العناكب تنسدل حتى بطنه تغطي لُغْده الكبير الذي يخبئ عنقه القصير الملتصق بكتفيه ورأسه، مترهل الصدر والبطن منبعج الجانبين، ثخين الرجلين والساقين، تنتهي أطرافها بمخالب حادّة كالضواري، يملك أربعة أجنحة كالخفافيش. يالروعته.

شعرتُ بغثيان، حاولتُ منعه دون جدوى، استمر في إخافتي: - يُزيّن كتفه الأيمن برأس ثور مدبب القرنين، والأيسر برأس كبش أقرن، يستطيع تسخير ما شاء من الزواحف السامّة. رغم سِمنته المفرطة وترهّلاته الكثيرة؛ يستطيع السباحة في الهواء كالطير.

تغيّرَت نغمته واحتدت:

- عصى أمر الملك، سرق بساط الريح، وغادر «أورشليم» سابحًا قاطعًا الهواء به، لم يكترث بتحذير أقرانه من عاقبة فعله وعصيانه، سخَّر الملك الريح فأعادته خانعًا صاغرًا عند قدميه، أمر العفاريت فكبّلته وشلّت حركته، وتقلّص حجمه، وحُبس في قمقم، وأمَرَ أحد العفاريت بإلقائه في البحر، فيتخبطّه الموج ويظلّ حبيسًا ذليلًا هكذا أبد الدهر.

لم تتوقّف القشعريرة عن وخز جسدي أثناء حَكْيه، أردتُ كثيرًا مقاطعتَه، إلّا أنني لم أقدر على ذلك وكأنني أُبكمتُ مجبرًا، حتى استوقفني حيوان عجيب،

حَمَلٌ كثيف الصوف ناصع، نحيف السويقات، يرتبط بالأرض بجذع نبتةٍ عن طريق حبل سُرّي؟!

تحدث الكهل بنغمة مزعجة:

- نبتة الحَمَل التتارية، أروع نبات في الغابة.

نظرتُ إليه بطرف عيني وأنا أتعجّب من قوله: - نبتة؟! أنباتٌ هو أم حيوان؟

فقال بنغمة ضاحكة:

- «يدْوَع» بلسان اليهود، ونبتة الحمل التتارية كما يسميه الأعاجم، حيوان حقيقيّ ونبات حيّ في الوقت نفسه، يهلك الحيوان متى تمّ فصله عن النبات، وإذا أكل الحمل كل النباتات التي حوله يموت. عندئذٍ يمكننا أكل لحمه اللذيذ. يقول القدماء إنّ مذاق دمه حلو كالعسل. يستخدم العجم صوفه لصنع أغطية الرأس والملابس الجميلة، أمّا اليهود فيستخدمون عظامه في طقوسهم عند قراءة الطالع. الحيوانات اللّاحِمة التي تنجذب إليه غير البشر، هي الذئاب.

تهادى إلى أسماعي قرع طبول تتعالى وصرخات تتصاعد تأتي من بعيد! شعرتُ بكتفيّ يزدادان سخونة والتصقت ملابسي بلحمي وكأنّ الكهل تبوّل فوقي؟! تسلّلت الريبة إلى روحي وتدفق الدم يغلي في عروقي، ولولا مخافتي من ربّي لألقيتُ بهذا الكهل البغيض المخيف على الأرض لأتخلّص منه.

سكنَت الطبول وتبخرت الصرخات، وحلّ محلّهما عواء تصاعد مدوِّيًا، حتى ظهر من العدم ذئب أشهب، توقف على مقربة منا. هرب الرضاب من حلقي، وحبستُ أنفاسي حتى لا تتمكن مني رعشاتي، وبرفق أنزلتُ الكهل من فوق كتفي بصعوبة. كان ملتصقًا بي بشدة، يطوّق عنقي بساقيه النحيلتين كثيفتي الشعر كريهتي الرائحة. وضعتُه على الأرض برفق ولما نظرتُ إليه أصابتني القشعريرة، إذ كان يبتسم ابتسامة واسعة، تظهر فمه الواسع الخالي تمامًا، يقطر الزبد منه، وتحوّلَت عيناه إلى خطين رفيعين من فرط تبسّمه البغيض، فأصبح والعياذ بالله دميمًا أكثر مما كان عليه، ولم يبدُ عليه الاكتراث لأمر الوحش الذي يوشك على التهامنا!

أشحتُ بوجهي بعيدًا عنه، وببطءٍ رمقتُ الذئب المتأهِّب وهو يزمجر ولعابه يسيل من بين فكيه وأنيابه اللامعة الحادّة، يمد عنقه نحوي يتحيّن اللحظة المناسبة لينقضّ عليّ. جهّزت سهمي وقوسي من خلف ظهري، وأنا أرجع للوراء عدة خطوات، حتى لا أثيره فيهجم عليّ مبكرًا. وكأنه قرأ أفكاري، فقفز قفزة عالية لم أرَ في حياتي حيوانًا يفعلها! وهنا أطلقتُ سهمي ليصيب

بطنه قبل سقوطه فوقي، فخرجَت رأس السهم من ظهره مخضّبة بدمائه، بينما أخذتُ ألهث باحثًا عن أنفاسي وأنا أزيح جسم القتيل الثقيل من فوقي، والكهل البغيض يصفّق كالمجذوب ويصفّر صفيرًا مزعجًا، لا أدري كيف خرج من فمه الفارغ، ويعرج نحوي كالإوزة. برزَت فوق كتفه الأيسر حدبة لم ألحظها من قبل، وجحظَت عيناه لدرجة أن ظننتهما ستسقطان من محجريهما، وإذ بساقيه تتجلّى لي كساقي ماعز، فعرفتُ لماذا كانتا نحيلتين إلى هذه الدرجة، واتسعَت ابتسامته وهو يقول بصوت مرتفع مزعج: - «كمانگير».. «كمانگير».. هذا اسمكَ من الآن فصاعدًا، أيها النشّاب المدهش.

قهقه ضاحكًا وأنا أهرول من أمامه هربًا، لا أدري إلى أين! منعتُ عقلي من التفكير في ماهيته، لا أعتقد أنه من بني آدم، يستحيل أن يكون كذلك، أخذتُ أعدو مبتعدًا، وعلى حين غرة زُلزلَت الأرض من تحتي، سقطتُ مرغمًا وارتطم جسدي بجذع شجرة، وكان هذا من حسن حظي، فقد مر من أمامي قطيع من الأفيال الضخمة الهائجة، يمتطيها رجالٌ لا رؤوس لهم! وأيم الله لولا أنني لا أشرب الخمر لاعتقدتُ أنّ عيني تهذي من فرط ثمالتي.

مر القطيع الهائج بسلام، وتوقفَت الزلزلة، وعادت أنفاسي تنتظم، لكنني فوجئت بالكهل البغيض يدركني، فقفزتُ ممسكًا بفرع الشجرة البارز، واعتدلتُ في نصف جلسة وسألتُه وقد ضقتُ به ذرعًا موجّهًا سهمي نحوه: - من أنتَ يا هذا وماذا تريد مني؟

نظر إليّ ممعنًا، وجحظَت عيناه أكثر، وقال بنغمة بطيئة غليظة: - «ديو سپيد».

كان وقع جوابه عليّ أقوى من الصاعقة، لأنني أتذكّر هذا الاسم جيّدًا، فأنا أعرف كل شخصيات قصص الشاهنامة منذ نعومة أظفاري. «ديو سپيد» ليس من الإنس، ومعناه «الجِنّي الأبيض» بالفارسية التي أعرفها، يسكن الكهوف الحالكة والغابات البعيدة، قبيح دميم، ذو عادات قذرة وأفعال بغيضة، لكن بطل القصة ويدعى «رستم» قتله واستخرج كبده، وأخذه معه إلى الملك «كيكاووس» الذي فقد بصره، ولما كحّلوه بقطرات من دم الكبد ارتد بصيرًا.

كررتُ سؤالي:

- ماذا تريد مني؟ لا تجبرني على إيذائكَ.

فقال بجدية:

- ولأنّ اسمكَ «سُليمان»، لن تؤذيكَ الشياطين، وسيتجنّبك المرَدَة، وستهيم بكَ عشقًا كل الجنيّات.

- كيف تعرف اسمي، وماذا تقصد؟ لا أفهم شيئًا منكَ!

سكت لحظة، ثم قال بنغمة ناصحة:

- ستصبح ذا شأنٍ، وستنال كل أمانيكَ. ولكن رفقًا بقلبك. إلى اللقاء يا «كمانگير» المدهش.

حرّكَ رأسه ببطء نحو كتفه الأيمن، وهو يرمقني بذات النظرة، فبدَت لي عيناه مشقوقتان بالطول، ثم عاود تحريكها إلى كتفه الأيسر، وقد اتسعَت ابتسامته، وصفّق مرتين، فإذ بالشجرة تهتز وأنا أفقد توازني فوق الفرع لأسقط، وأثناء سقوطي رأيتُه ينقشع كالدخان ويتبخر كأنه لم يكن!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وعندما عدتُ إلى الوعي، إثر هزّات عنيفة اجتاحت جسدي، لم أقوَ على رفع عنقي، ولم أكد أرى شيئًا أمامي، لكنني سمعتُ صوتًا يتحدث قائلًا: - أخيرًا استعاد وعيه. سيعيش.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

-١١-

دخل «كمانگير» و«مريم» على «أم سَمعان» عند العصر، تأمَّلَته قليلًا، وما لبثَت أن ضمّته إليها، وراحت تربِّت على ظهره وتبكي، فما تمالك نفسه، بكى هو الآخر.

- أتعلمين أيتها الحسناء، أنّ «سُليمان» هو من علّم «سَمعان» الرماية، ولم يفترقا أبدًا و«بلال»؟ كانوا يحدّدون يومًا يتناولون فيه الغداء عند كل منهم، وكانوا لا يبرحون هنا إلّا عند النوم، هم إخوة ابني، لم أفرِّق بينهم أبدًا، والحق يقال ولا هم أيضًا..

عادت تتحسّس وجهه، وتتأمل تقاطيعه ولحيته، وقالت: - يا ربي، وكأنّي ب «شهاب الدين پاشا» في شبابه، أطال الرب في عمركَ يا بُني.

مسح أدمعه، وجاهد في الابتسام، وسألها عن «سَمعان»، وقبل أن تجيبه..

- ها أنا خلفكَ مباشرة أيها الهارب.

التفتَ خلفه فوجده، نهض وراح يتأمّله، صار في مثل طوله تقريبًا، إلّا إن كتفيه أعرض، ليس سمينًا، ولا بنحيف، وجهه خمريّ اللون يلمع، وقد ترك شاربه حتى التحم بذقنه ولم يربِّ لحيته قط، سالفاه عريضان يتخطيان حد إذنيه قليلًا، مبالغ في زينته كأنه أحد الفرنك، وكيف لا يبالغ وهو ابن العائلة الميسورة، وكان دومًا كريمًا بشوشًا. تعانقا بحرارة، وراح «سَمعان» يضربه بكفه على ظهره، يرحب به وفي الوقت نفسه يعاقبه على هروبه لثلاثة عقود، وهما اللذين لم يفترقا قبلها أبدًا.

- عودًا حميدًا يا صديق العُمر، أقسم بالعذراء أنني أشتقتُ إليكَ كثيرًا.

- وأنا أيضًا يا «سَمعان».

ربَّتَ «كمانگير» براحته على فخذ صديقه وقال: - جهّز نفسكَ، في الغد سنذهب معًا لزيارة «بلال».

قطّب «سَمعان» وقال:

- لن أذهب إليه..

- لماذا؟

- سأحكي لكَ.. عندما اتفقتُ مع «ملاخ» على استئجار دكانه، ووعدتُه بالقدوم في الغد لأدفع له إيجار شهر مقدم كما اشترط عليّ، ذهبتُ في

الموعد المحدد للدفع، اعتذر مني وأخبرني أن تاجر أقمشة استأجره منه، علمتُ بعد ذلك أنّه من كان صديقي.. وقاطعتُه منذ ذلك الحين.

ضحك «كمانگير» وقال:

- نجح اليهودي في الوقيعة بينكما.

- ماذا تقصد؟

- أقسم لي «بلال» أنّه لم يكن يعرف أنكَ سبقتَه إلى اليهودي، وحاول التواصل معكَ أكثر من مرة، وبعث إليكَ بالكثير من الرجال كي يتنازل لكَ عن الدكّان، لكنكَ لم تعطِه فرصة.

- أمتأكدٌ أنتَ من هذا القول؟

- ومنذ متى و«بلال» يكذب؟

أرخى «سَمعان» عينيه إلى الأرض، وأمسك عن الكلام لحظات. ربَّتَ «كمانگير» على فخذه ثانيةً، وهو يقول في حزم: - سنذهب إلى دكانه معًا في الغد، ونُصفّي الأنفس.

***

-١٢-

التيه، ٩٤٢ ه

«الصديق إمَّا أن ينفع وإمَّا أن يشفع».

تركنا ناحية جنوب جبال «زاغروس»، واتجهنا صوب شمالها، عبرناها وتوغّلنا لأيام عجزنا عن حصرها، في الغابات الممتدةٌ أشجارُها تحتلّ الأفق. أخبرني صديقي أننا كنا في «كركوك»، وأنّ بعض أهلها الكُرد هم من أخفونا من كمين للصفويين، وأكرموا وفادتنا، وعالجوا جراحنا، بينما كنتُ في غيبوبتي عالقًا بين الموت والحياة، وأنني كنتُ أهذي بكلمات لا معنى لها، لسبعة أيام، حتَّى حادي عشر شعبان سنة اثنين وأربعين وتسعمئة هجرية، ثالث عشر فبراير، السنة السادسة والثلاثين وخمسمئة وألف ميلادية، أفيق ثم يغشى عليّ مرة أخرى. أشفقوا عليّ كثيرًا، حتى قال أحدهم إنني استعدتُ وعيي أخيرًا، وسأعيش. بعدما استعدتُ عافيتي، قال دليلي إننا نعبر خائضين نحو عراق العرب، بينما في الشمال عراق العجم «آذربايچان»، التي فتحها الصدر الأعظم «إبراهيم پاشا» قبل عامين في حملة العراقَين، بعد خيانة «شرف خان» حاكم بتليس (بدليس) للعثمانيين وتحالفه مع الصفويين، فاستعادها، وعبر تلك الجبال، ليدخل «تَبْريز» أهم مدن الصفويين وقتئذ دون مقاومة، ثم لحق به السُّلطان بجيشه بعد ذلك، ثم اتجهوا إلى «بغداد» فإستسلَمَت القوات الصفوية، ودخل العراق العربي تحتَ السيادة العثمانية، وأعدم الپاشا بعدها بعام في طوپ قپو سراي بأمر السُّلطان، بعد ثلاثة عشر عامًا قضاها في الصدارة العُظمى، ومنذ ذلك الوقت وشاه العجم «طهماسپ» يراوغ العثمانيين، ولا يملّ من لعب الغميضة أبدًا.

أخذنا نعبر الغابات، نرتوي من مياه لم أدرِ قط أنّها موجودة في هذه الأماكن، وكان صديقي خبيرًا حقًا في فنون البقاء، وعالِمًا مُلِمًّا بتفاصيلٍ ما أجهلني بها.. تعلَّمتُ أنّ هناك بعض الأشجار إذا قُطعَت أغصانها بطريقة معيّنة وأملتها قليلًا ليكون اتجاه القطع في اتجاه الأرض، عندئذٍ يخرج ما بها من ماء عذب، نقيّ، صالح للشُرب، هذا الماء مخزنٌ بها منذ وقت لا يعلمه إلّا الله، لذيذ، ذو مذاق خاص. وعندما شحّ منّا الزاد ونَفَدَ الماء، لم يتردد «جابر» في أكل أوراق الشجر، أو ضرب الجراد بكفّه وأكله. سألتُه كيف يأكل الجراد، فأجابني: - أُحلّت لنا ميتتان ودمان، الجراد والحوت، والكبد والطحال.

أكمل التهامه للجراد بشراهة، ولما عجزتُ أن أتحمّل الجوع أكثر، ووجدتُه يغطّ في خضم شخيره، رُحتُ أبحث عن الجراد وأضربه بكفّي، وآكله بعدما

أتأكد من موته، فوجدتُه مقبولًا عن أوراق الشجر! داومنا على ذلك الطعام لثلاثة أيام.. وفي نهار الرابع، وكنا نستظل بشجرة قضينا وقتًا كافيًا للراحة عندها، نهض العملاق فجأة على عجل، وهو يقول إنه لن يعود قبل العثور على لحم! جلستُ في مكاني أنتظره، حتى سقط شيء فوق رأسي، فنظرتُ لأعلى، فاختلتُ بنسناسٍ يتحرك على أعلى أفرع في الشجرة. ألهمني بأن أصعد، ربما رأيتُ طريقًا من الأعلى، فأخذتُ أتسلق، ولم يخف القرد الصغير عندما رآني، ظل يأكل من ثمارها، لا يكترث لوجودي. الثمار لا تقتل النسناس، إذًا هي ليست سامة، قطفتُ ثمرة أنا الآخر، ونجحتُ في فتحها وأكل ما بها. كانت لذيذة، قطفتُ بعضًا منها وهبطتُ، فملأتُ منها بطني، وادخرتُ الباقي لرفيقي، الذي عاد بعد قليل يحمل بين يديه صغير أيَّل، ألقاه أمامي وذهب مرة أخرى، ثم عاد يمسك بحجرين وبعض الأغصان الرفيعة، جمعها على شكل هرميّ وأحاطها بأوراق جافّة، وراح يضرب الحجرين ببعضهما حتى تطاير الشرر واشتعلت النيران التي سيشوي بها صيده. أعدّ مشواته من الأغصان، وضع الصيد عليها بعدما جهّزه بخنجره، وراح يتابع عمله بمهارة، وأنا أناوله بعض الثمار وأحكي له كيف حصلتُ عليها. التهمنا وليمتنا حتّى شبعنا، ثم لففنا ما تبقّى - وكان كثيرًا- ودفنَّاه في الأرض كي لا تصل رائحته لسباع الغابة، ثم تسلق كل منا غصنًا سميكًا، وأمضينا الليلة فوق الشجرة. وعند الفلق، نهضنا وأكملنا رحلتنا عبر الغابات المجهولة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

صدفة، ٩٤٢ ه

داومنا المسير لأسبوع، حتّى الأحد الحادي والعشرين من شعبان، ولما فتك بنا الإرهاق. جلسنا إلى شجرة عملاقة، حيث وصلت إلى أسماعنا جلبة بشرية أخيرًا، وأحدهم يقول بصوت جهور «دستور»، يرددها مرارًا وتكرارًا، حتى قال رفيقي والقلق يعتريه: - أعتقد أنه أحد رجال الدولة المهمّين، إن لم يكن أميرًا أو سُلطانًا.. لنختبئ!

ومن فورنا نهضنا وتسلّقنا أغصان الشجرة، حتى اختبأنا بين الأوراق، وأمسكتُ بقوسي وسحبتُ سهمي من جعبته، وأخذتُ وضعية التصويب. كانوا جنودًا لا حصر لهم من الإنكشارية، أصحاب الأردية السوداء والقبعات البيضاء الطويلة المثنية إلى الخلف، مزيّنةٍ قمة قلسونتها النحاسية بريش طير، ومن بينهم رجل في غاية الأناقة والأبّهة، يمشي على مهل ينظر هنا وهناك، لا شكّ أنّه السُّلطان، صوّبتُ سهمي إلى قلبه مباشرة، لكن اعتراني هاجس مفاجئ، فالتفتُ خلفنا، فإذ بسِنّور مرقّط الجلد ضخم، يتحيّن اللحظة المناسبة للانقضاض! عاودتُ النظر إلى السُّلطان ثم إلى النمر، فأيقنتُ أنّ الوحش اختاره تحديدًا ليهجم عليه، لكنني لم أكن لأدع ذلك يحدث، لن أترك ضاريًا يقتصّ لي منه، هذا ثأري أنا، ولا أحد غيري سيأخذه.

عاودتُ التصويب إلى قلب السُّلطان، فباغتني تحرك النمر تجاهه، وإذ به في لحظة قد أردى اثنين من الحراس، وأثار الجلبة، وتوقف السُّلطان ينظر في ذهول، ثم إذ به يقفز صوبه، فما كان مني إلّا أن أطلقتُ سهمي نحوه، فأصاب عنقه، وأطلقتُ آخر أصاب بطنه، ليسقط تحت قدمَي السُّلطان صريعًا. وبسرعة البرق، صوب العسكر سهامهم إلى شجرتنا، وما هي إلا لحظات، وكان حارسان يحيطان بصديقي، الذي لم يقاومهما، بينما أخذني چاويشهم إلى السُّلطان، وأجبرني على الركوع أرضًا أمامه.

كانت زوجة أبي تحكي لي عن تكرمة السلاطين العثمانيين للوزراء والپاشاوات بتقبيل طرف ثيابهم، فمددتُ يدي لأمسك بطرف ثوبه، فإذ به يجذبه ويربت على رأسي، ثم مَدَّ يمينه إليّ، وهذه في عرفه أقصى درجات التكريم. ما الذي تفعلهِ بي الحياة، قبل قليل كنتُ أريد قتل هذا الرجل، وإذ بي أنقذ حياته وكدتُ أقبّل طرف ثوبه، ثم ها هو يكرّمني بمد يده لتقبيلها! أمسكتُ بيده، نحيفة نافرة العروق ذات أصابع طويلة، وعلى الرغم مني قبّلتُ خاتمه ذي الجسم الفضي المحيط بخِنْصَره، سطحه الدائري النحاسي الأملس منقوش عليه طغراء، ويزيِّنه حجرٌ من العقيق الأحمر، لم أرَ في حياتي مثيله. رفعتُ رأسي إليه، حدقتُ مباشرة في عينيه الواسعتين السوداوين، عريض الجبهة مرفوعها، تأملتُ أنفه فإذ به دقيق قليل الانحناء،

له شاربان كثّان طويلان أصهبان، ولحيته ليسَت كثيفة لكنها طويلة مهذّبة تغطي عنقه الطويل النحيل، وعلى الرغم مما حدث إلّا أنه لم يكن كئيبًا كما يشاع عنه، ولم يكن غضوبًا معي، لكنه قليل الكلام بالفعل، وذلك لم يمنعه من الابتسام إليّ، أو بالأحرى شبه ابتسامة، كانت كفيلة لتكشف لي أنه أفلج الأسنان. سحب يده من أمامي برفق، ووضعها مع الأخرى خلف ظهره وقال بصوت رخيم: - انهض.

قالت زوجة أبي: إذا التقيت السُّلطان فلا تقل له «سُلطانم» لأنها تقال للسُّلطانات اللاتي لن ألتقيهنّ أبدًا، بل «هنكاريمز»، أي مولانا. بادر هو وقد تقدّم خطوتين وأمرني بنبرة هادئة: - سِر إلى جواري.

ولما هممتُ بالسير، اقترب مني حرسه الخاص، لكنهم بإشارة بسيطة من يده، ابتعدوا وتفرقوا منتشرين. لم يلتفت إليّ، وظل يسير وأنا إلى جواره، ثم قال بذات النغمة المتزنة: - أشكركَ يا بني، سلمتَ.

- حاشا «هنكاريمز»، أنا من عليه أن يشكر حضرتكم على تكرمتي بتقبيل خاتمكم الشريف.

توقّف ونظر إليّ وهو يبتسم، وبسرعة أحنيتُ رأسي، حتى لا توقّع عليّ أية عقوبة من التحديق في السُّلطان، وفوجئتُ به يربت على كتفي وهو يقول بهدوء: - لا تبالغ يا بني، لقد قمتَ بعمل عظيم، لن يسعني ما تبقى لي من عُمر لشكركَ، ولن تكفي كل خزائن السلطنة لتقديركَ.

- أفدي جلالتكم بروحي.

- لن أسألكَ بني عن سبب وجودكَ في تلكم الغابات، ولا من أين أتيتَ، ولا أين ومتى تعلّمت الرماية بهذه الروعة، لكنني استدعيتُ أسطورة «أرخشه كمانگير» أشهر قصص الأڤيستا الفارسية، التي كان يقصها عليّ معلّمي في صغري، لذا من اليوم سأدعوكَ «كمانگير أفندي»..

تذكرتُ لحظتئذ قول الجِنّي في غيبوبتي قبل أن يتبخر: «ستصبح ذا شأنٍ، وستنال كل أمانيكَ، ولكن رفقًا بقلبكَ. إلى اللقاء يا «كمانگير» المدهش». عاودتُ الاستماع إلى السُّلطان فوجدتُه يقول: - لا أشك مثقال ذرة أنّ الله سبحانه وتعالى هو من وضعكَ فوق تلك الشجرة لتنقذ حياتي، فالحمد لله على تقديره ورحمته ولطفه.

ابتعلتُ رضابي، ووجدتُ في الحديث معه راحة لم أعهدها مع أبي نفسه، قلتُ: - الحمد لله الذي وضعني على تلك الشجرة، ليكون ما حدث سببًا لرؤية وجهكم الشريف، والسير إلى جوار مقامكم الرفيع، والتكرّم بالحديث إلى جنابكم الهُمايوني.

صمتَ مبتسمًا ثم عاود المسير والحديث بقوله: - سَل ما شئتَ، ألبّي.

بسرعة أجبتُه:

- حاشا لله، لقد نلتُ ما سألتُ.

ربت على كتفي مرة أخرى، واتسعَت ابتسامته وهو يقول: - حفظ الله مَن أدَّبكَ فأحسن تأديبكَ.

تنهّد ثم أستأنف بقوله:

- هل لي بسؤالكَ ما أريد منكَ؟

أحنيتُ رأسي متأدبًا، ويبدو عليّ أنني استحسنتُ تلك الحركة: - بل سَل ما شئتَ مولاي، أنفذ فورًا.

وضع كفّيه على كتفيّ، فاعتدلتُ أواجهه مباشرة، ثم قال: - أريدكَ أن تكون إلى جواري حارسًا خاصًا، في طليعة الجنود في أي مكان أتوجّه إليه.

غلّفني الصمت، ولم أستطع التفوّه بشيء. لو كنتُ خططتُ أدهى الخطط كي أصير في أقرب مكان إلى السُّلطان، ما كنتُ حلمتُ بهذا القدر في حياتي أبدًا!

عاود حديثه بعدما لاحظ صمتي:

- لكَ مطلق الحرية يا بني، هذا سؤالًا وليس إجبارًا، سأتقبّل جوابكَ أيًّا كان، وهذا لن يثنيني عن مكافأتكَ، أنتَ وصديقكَ العملاق.

لم أستطع التفوّه، وأخذتُ أنظر إليه لا أعلم كيف أبلغه برفضي عرضه الثمين، الذي يجب على أي عاقل قبوله؟!

استجمعتُ قوّتي وأطرقتُ رأسي واستعنتُ بالله وقلتُ: - ما من عاقل خلقه الله يستطيع رفض عرض جلالتكم، لكنني يا مولاي؛ خرجتُ من بلادي وقد وهبتُ نفسي للترحال، لمعرفة كل ما هو جديد وغريب، ولولا ذلك لأقسمتُ لجلالتكم على البقاء إلى جواركم ما تبقّى لي من عُمر، والله على ما أقول شهيد.

خيّم الصمت علينا، وما تجرأتُ على رفع رأسي والنظر في عين السُّلطان. أغمضتُ عيني وحبستُ أنفاسي وتمنّيتُ أن تنشقّ الأرض وتبتلعني توًّا، لكنّ تنهيدة السُّلطان اخترقَت مسامعي، وقد وضع يمينه على كتفي الأيسر وهو يقول: - لا عليكَ يا بني، أحترم رغبتكَ، وأتقبّل جوابكَ. لو لم أكن سُلطانًا لوهبتُ نفسي للترحال، لكم تمنيتُ أن أجوب البسيطة من أقصاها إلى أقصاها.

ثم ترك كتفي وهو يقول:

- ارفع رأسكَ يا بني.

رفعتُ رأسي، فوجدتُه يبتسم.. لم أكن أُحب في حياتي الأسنان الفلجاء، لكنني أحببتُ هيئته تلك التي تتناغم مع بعضها بعضًا، حتى وإن كانت تقاسيمها غريبة عليّ. رأيتُه يسحب طرف ذقنه بأطراف أصابعه وهو يحدق فيّ مليًّا ثم قال: - ماذا تجيد غير الرماية والتحدث بالتركية؟

- أتحدث العربية والفارسية والإفرنكية، والحمد لله أتعلّم الألسنة بسرعة كالرماية.

اتّسَعَت ابتسامته وهو يقول:

- عال، أنتَ إذن تقصد الترحال جهة الغرب؟

أومأتُ برأسي أن نعم، وقلتُ:

- أجل مولاي.

- وعلى استعداد لتتعلّم أي لسانٍ كان؟

- أي لسان يأمرني به مولاي، سأتعلّم لغته في أسرع وقت ممكن بأمر الله.

قال السلطان:

- سأعرض عليكَ وظيفة، لن تؤثر على حلم ترحالكَ..

- تفضّل جلالتكم.

نظر إليّ مطوّلًا قبل قوله:

- أتتعلّم المجريّة؟

قلتُ وقد اعتراني الفضول:

- نعم، ولأجل مولاي أصنع أكثر من ذلك. لكن.. سامحني مولاي، لماذا المجريّة؟

ابتسم السُّلطان وسار بضع خطوات، وأومأ إليّ بأن أسير إلى جواره ثم قال: - أتعرف قصة هُدهد حضرة «سُليمان» عليه السلام؟

أومأتُ برأسي قائلًا:

- بالتأكيد مولاي، ومن منا لا يعرفها.

ابتسم وقال:

- عال، أريدكَ أن تكون هُدهدنا في تلك البلاد، وسأخصّصُ لكَ راتبًا، تستطيع أخذه من أيّة خزينة بأي مكان في دولتنا العلية، ما قولكَ؟

ابتسمتُ وقد فهمتُ مقصده، وقلتُ وروح المغامرة تغمرني، وأومأتُ أن نعم، قائلًا: - هنكاريمز.

صارت عيناه كخطّين رفيعين من فرط تبسّمه، وهو يهزّ رأسه ببطء، وابتسمتُ أيضًا وقد أحسستُ براحة عظيمة، لأنّ الأموال التي خصصها لي ستعينني على الترحال، بأريحية لم أكن أحلم بها في حياتي. صدق القائل «في العفو لذة لا نجدها في الانتقام».

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

سرنا منذ تلك الحادثة في ركب السُّلطان، الذي أمر بالتوجّه إلى العاصمة، فاستغرقنا المسير ثلاثة أسابيع حتى وصلنا «أنقرة»، ثم تحركنا ولم نتوقف إلّا للضرورة لأسبوع رابع، حتى دخل الخان محروسته، ونحن خلفه بين الحاشية. للمرة الأولى في حياتي أدخل قصرًا، وليس أي قصر، بل «طوپ قپو سراي»، مقرّ حكم السلاطين العثمانيين منذ عهد «الفاتح» الذي أسّسه. أسكنونا مؤقتًا بمسكن خارجي في حديقة القصر، وقضينا يومين منعمين بالراحة، حتى طلبني السُّلطان إلى غرفة ملحقة بالقصر، تُصنع بها المصوّغات، وهي الحِرفة التي تعلّمها منذ صغره؛ كأي أمير عثمانيّ عليه أن يتعلّم صنعة. رأيتُ مخطوطًا للقرآن الكريم، أخبرني السُّلطان أنه نسخه بنفسه، وأنها ليسَت المرة الأولى التي ينسخ فيها الكتاب الشريف، وأنه يداوم على تمرُّس الخطوط المختلفة التي تعلّمها في صغره. كان جالسًا خلف مكتبه الذي يعجّ بأدوات الصياغة، منهمكًا في عمل شيء بتركيز شديد، قال ولم ينظر إليّ مكملًا عمله: - منذ عقود، راود جدّي الأكبر حضرة «عثمان غازي» حلم، قصّه على شيخه «إده بالي»: «يا شيخ لقد رأيتُ قمرًا خرج من حضنك، ودخل حُضني، ولما دخلَ في حضني نبتت منه شجرةٌ عظيمة في بطني، عمّت ظلالها العالم، وتحت ظِلّها جبالٌ وأشجارٌ وصحاري وفيافي، ويخرجُ من أسفل كل جبل وشجرة مياهٌ تتدفّق وتسيل، ويشربُ بعضُ الناس من هذه المياه، وبعضهُم الآخر يسقون بساتينهم، وبعضهُم أيضًا يسقون زرعهم، والسواقي تدور والعيون تتدفق وتسيل». ثم تحوّلَت أوراق الشجرة إلى سيوف لامعة، ثم فجأة، هبّت رياح عاتية، وتوجّهَت كل السيوف نحو مدينة واحدة..

ثم نظَرَ إليّ منتظرًا، فقلتُ:

- «القسطنطينيّة»؟

أومأ برأسه أن نعم، وقال:

- وصارَت جسرًا نعبر منه لتحقيق أحلامنا، لإعلاء شأن ملّتنا، ولن يهدأ لي بال حتّى تحقيق تلك الغاية، وقطف التفّاحة الحمراء.

- «روما»!

نظر إليّ مبتسمًا.. لحظتئذ، كان قد فرغ من عمله، فنهض ومَدّ يمينه إليّ، يفاجئني بإعطائي خاتم إبهام النشاب، الذي انتهى لتوّه منه، موشومًا بنقش رأس هدهد متوّجٍ بقُنْزُعة! لقد داومتُ على ارتدائه، لا أخلعه من إصبعي حتّى عند النوم.

أمر «السُّلطان» صديقه «نصوح أفندي السلاحي» بالاهتمام بي وصديقي، وأن يذهب بي في القريب العاجل إلى «ترچمان ريزا أفندي»، لتعليمي المجريّة. أخذَنا «السلاحي»، الذي انتظرتُ لقاءه طويلًا، فتجوّلنا في العاصمة، حتى أوصلَنَا إلى مسكن خُصِّص لنا، ثم عاد إلينا في الصباح ليأخذنا إلى المعلِّم، الذي استقبلنا ببشاشة وترحيب. كان من بين الحضور شخص مريب، يُدعى «سونگر»، لما رأيتُه اعتراني القلق، ومنذ الوهلة الأولى بدا لي ما يبطن، تفضحه مقلتاه! لم أفعل له شيئًا، ولم نتحدث، لا أعرفه ولا يعرفني، لكن نظراته رفعت بيننا حائلًا غير قابل للتجاهل. ربما غار من أنّ «السلاحي» جاء بي إلى «ريزا أفندي» بنفسه، وسمعه يوصيه بي خيرًا بأمرٍ من السُّلطان، وربما لديه سبب آخر لم أستطع استنباطه، لكن لم تزغ عيناه عني، مقطّبًا بنفس الطريقة المريبة.

راح «ريزا أفندي» يختبرني في الألسنة، ولما وجد مني ما لم يكن يتوقعه، هلّلَ «الله الله»، وضاقت عيناه وهو يبتسم ويقول: - ستكون تلميذًا نجيبًا يا ولد..

عندها استرقتُ نظرة إلى الحاقد، فإذ به يرفع حاجبًا كاد يصل إلى منبت شعره، بينما حاجبه الآخر يرتعش غير مستقر، فوق عين لا منها مسبلة ولا مفتوحة، أيّ وغد هذا؟! كانت زوجة أبي تقول في حكاياتها أنّ للأوغاد ملامح خاصة تقسّم سحنتهم ليشذّوا عن باقي المخاليق، كلنا نقطب، لكن لا يحيد حاجب عن الآخر إلى هذه الدرجة، فلا هو بمقطب ولا مندهش، ولا أبله، كأنه يريد الابتسام ويمتنع، أو أنه لا يصلح للابتسام من الأساس. كدتُ أضحك لكلام «تقهيده خانم»، ليتها ترى «سونگر» هذا؛ ستشير إليه وتقول إنه الوغد تمامًا كما تخبر عنه الحكايات.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

-١٣-

عناق «بلال» و«سَمعان» لم يتطلب أكثر من أن يجعلهما «كمانگير» يلتقيان، وانهمر الدمع من عيون ثلاثتهم. جلسوا جميعًا أمام الدكّان، وتنّهد «سَمعان» مطوّلًا قبل أن يقول لصديقيه: - فلولا الرب ما نجونا من أفعال اليهود. أتدريان ما واجه السُّلطان «سُليمان بن سليم» في أوّل عهده من حسد الشيطان؟ وصل الأمر أن أقنعه أحد المنجمين اليهود بقتل كل النصارى في مصر وبلاد الشرق.

شهق «بلال» وصاح متسائلًا:

- لماذا؟

- لأنّهم يمثّلون خطرًا على مملكته، وقد يلجؤون للفرنجة ضدّه.

قطّب «بلال» وسحب سافلة ذقنه وأمعن التحديق قائلًا: - وماذا فعل؟ أقتلهم وأنتَ هاهنا بيننا حي ترزق؟

ضحك «سَمعان» وقال:

- لا يا أخي، رزقه الله بوزير أقنعه بأنّه إن فعل هذا خرّب مملكته، فردّ السُّلطان إلى صوابه.

ضرب «بلال» كفًا بكف وقال:

- أيُعقل؟! يا صديقي، أتنكر أنّه في عهد السُّلطان المرحوم، نُظر إلى الأقباط على أنهم رعاياه دون النظر إلى الملّة؟

أشاح «سمعان» نافيًا وقال:

- لا أنكر، ونشترك مع غيرنا من أهل الذمة في الحقوق والالتزامات بأشكالها، وندفع الضرائب المختلفة بالإضافة إلى الجزية التي كانت مفروضة فقط على أهل الذمة من الأقباط واليهود.

تدخل «كمانگير» قائلًا:

- أودُّ أن أذكّركَ بالفرمان الذي أصدره المرحوم في أوّل عهده، بأن يكونوا محميين مراعين على الدوام، وذمتهم محفوظة بذمة الإسلام، لا يمسهم سوء ولا ضرر، ولا تشويش ولا كدر. لذا، فالروم الأرثوذكس أتباع الكنيسة الأرثوذكسية الشرقية اليونانية التابعة لبطريركيّة القسطنطينية؛ أهم ملّة بعد الملّة الإسلامية في الدولة العثمانية، ثمّ كنيسة الإسكندرية. وأقل منهما شأنًا؛ ملّة الكاثوليك. حتّى الكنيسة المارونية بالشّام وكنيسة أورشليم لكل

ملّة بطريرك يقوم بأعماله دون تدخّل أو تأثير. كذلك ملّة الأرمن وملّة اليهود.

نظر «سمعان» إليه وقال:

- أشهد على ذلك، لكن، على الرغم من أنّ السُّلطة العثمانية الحاكمة في مصر كانت تحرص دائمًا على الالتزام بالعدالة تجاه الأقباط عملًا بالدين الإسلامي، أو ما صدر من فرمانات، إلّا أنها كانت في بعض الأحيان تمارس حفوظًا كثيرة عليهم، إرضاءً لعلماء الدين، ذوي النفوذ الواسع من جهة؛ ومراعاة لمشاعر العامة من جهة أخرى.

صاح «بلال» قائلًا وهو يضع فنجان القهوة: - يا رجل، لما قام عربان «بني عطية» بتخريب ونهب دير القديس «بولا»، وضربوا وقتلوا أحد رهبانه وشتّتوا شمل بقيّة الرُّهبان، لم يفلتوا من العقاب، وسُمح للبطريرك بتعميره وعمل اللازم.

ارتشف «سَمعان» من فنجانه وقال:

- أجل، وقام مطيّب القلوب البابا «غبريال السابع» بطريرك الكَرازة المرقسية، أطال الرب في عمره وأيام حبريّته؛ بإعادة تعمير دير أنبا «بولا» في برية العربة بالجبل الشرقي للنيل، ودير أنبا «أنطونيوس» على سفح جبل الجلالة القبلي بالجميزة، بالأنفس والمباني، وتعميرهما عمارة حسنة روحانيًّا وماديًّا، وكذلك دير المحرق بجبل قسقام. وأعاد الصلة بين كنيسة مصر وكنيسة أثيوبيا. وفشل أُسقُف روما في ضمّها ثانية لحظيرته اللاتينية عندما قابل البطريرك مبعوثيه بكل لطف وأخبره أنه لا ينحرف عن التمسُّك بالعقيدة قيد شعرة.

ابتلع «بلال» ما ارتشفه وقال مضيّقًا حدقتيه: - أليس هذا العهد أفضل من عهد المماليك؟

قطّب «سَمعان» وخرجَت منه آهة حارقة وقال: - بغضّ النظر عن أفعال الوالي الحالي الملعون، الذي قصم ظهورنا بالضرائب وابتزاز كل التجار؛ لا مقارنة، ليس هناك كالمماليك في العجرفة والفظاظة، اضطهاداتهم لنا كانت كارثية، لم تحدث من قبل، ولا أعتقد أنّها ستحدث بعد.

ازداد تقطيبه وغلبَت نبرة الحزن على صوته: - لقد حالت دون سيامة الرعاة، لدرجة أن تحوّل الكثير من القبط إلى الإسلام، وأدّى ذلك إلى قِلّة دَخْل الكنائس وفقر القبط، كما حال دون شغل مقام البطريركية، مما أدّى إلى اضطراب كثير بين الأقباط في حياتهم الدينية، وسبّب ذلك دفن كثير من

الموتى دون الصلاة عليهم، وتكفين أجسادهم في الحصر لعدم وجود أكفان تكفي، والفقر الشديد الذي حال دون شراء الأكفان.

ثم تنهّد قائلًا:

- والحسرة؛ زواج الكثيرين دون طقس الإكليل. والفاجعة؛ إذا سُيّم كاهن فإنّه كان يُسام دون كفاءة، وبدون علم بأصول تعاليم العقيدة أو تفسير للإنجيل، أو دون تعليم على الإطلاق، فقلّت العناية الروحية، وما تعرّضَت له الأديرة من هدم وتخريب أدَّى إلى تبديد الثروة، وإذا كان قد بقي فيها عدد من الرُهبان فقدً عمدوا إلى إخفاء ما تبقّى، ولكن إذا ماتوا لا يعرف أحد أين خبئوها، فانحط الشعب روحيًا،وتمكن الفقر منهم، وساءت علاقتهم ببعضهم وبالآخرين .

تدخل «كمانگير» بقوله:

- بعدما توطدَت أقدام «صلاح الدين الأيوبي» في الحكم، وبعد أن لمس تعاون النصارى معه في فتح القدس؛ شملهم بعطفه ورعايته، وقرّبهم منه، وأصدر لهم المراسيم لترميم ما تخرّب من كنائسهم فيما سبق، ألا يذكّركَ ذلك بالعهد الحالي؟

ابتسم «سَمعان» قائلًا وهو يشير بفنجانه: - أجل، لم يكن ليقدر على فعل الصالح في عهدنا هذا إلّا هذا البطريرك الصالح، الروح القدس حال عليه، ولا ينكر الرعاة اجتهاده الكبير في الصلاة والصوم والنُسُك، لهذا فهو طويل القامة معتدل الخلقة حسن الخلق وطاهر الروح.

ثم سكت قليلًا وقال مبتسمًا:

- موسى نبيّ، وعيسى نبيّ، ومحمد نبيّ، وكل من له نبي يُصلّي عليه.

راح ثلاثتهم يتضاحكون وينظرون إلى بعضهم، يصمتون لوهلة ثم يعاودون الضحك مرة أخرى، حتّى بدأ المارّة يتساءلون في أنفسهم «ما الذي ألمّ بهؤلاء المجانين؟!». صبُّوا فناجين القهوة، الواحد تلو الآخر، يضحكون وهم يسترجعون أيام الطفولة وطرائفها، حتى اصفرت الشمس، فدعاهما «بلال» إلى الغداء ببيته، فقاموا جميعًا وقد تفتحت شهيتهم، ثم ذهبوا في المساء إلى المقهى الذي اعتاد «بلال» الذهاب إليه، لعب و«سَمعان» الشطرنج كما اعتادا منذ أيام الصبا، بينما لم يزل «كمانگير» لا يحبه ولا الطاولة، فاكتفى بأن يتابعهما مبتسمًا. قال «سَمعان»: - أتذكر يا «سليمان» عندما سألتني عن معنى اسمي، ماذا قلتُ لكَ؟

ابتسم «كمانگير» وقال:

- ولن أنسى، فتلك القصّة أعجبتني كثيرًا، وحُفرت في ذاكرتي.

- قُصّها علينا.

- وبينما كان جالسًا يُصلح النعال، جاءت إلى دكانه امرأة ليصلح لها حذاءها، وبينما كانت تقوم بخلعه وقعَت عينا «سَمعان» على ساقها، فاشتهاها، وبعد ذهابها فقأ إحدى عينيه بالمخراز.

- ولما سألتني «لماذا فعل ذلك؟»، قلتُ لكَ تنفيذًا حرفيًّا لإحدى وصايا المسيح..

- سألتُكَ حينها «ما هي؟»

- «فَإِنْ كَانَتْ عَيْنُكَ الْيُمْنَى تُعْثِرُكَ فَاقْلَعْهَا وَأَلْقِهَا عَنْكَ، لأَنَّهُ خَيْرٌ لَكَ أَنْ يَهْلِكَ أَحَدُ أَعْضَائِكَ وَلاَ يُلْقَى جَسَدُكَ كُلُّهُ فِي جَهَنَّمَ».

- لذلك سمّاك أبوكَ «سَمعان»، لتصبح ورِعًا تقيًّا كالقديس «سَمعان الخَرَّاز».

ابتسم قائلًا:

- وفي النهاية صرتُ تاجر ذهب كأبي.

نظر إلى «بلال» الذي بدا عليه الكدر، وقال بثقة وهو يمسك بسافلة ذقنه: - مات الشاه يا صديقي.

زفر «بلال» هزيمته، وعادت ابتسامته وهم يجترّون جميعًا من جراب الذكرى الذي لا ينفد، وفي نهاية السهرة، عاد كلٌ منهم إلى بيته محمّلين بالحنين.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

-١٤-

البحر، ٩٤٤ ه

«من لا يُحبّ البحر لا يُحبّه».

لَم أُحبّ ركوب البحر يومًا، بيننا حاجزٌ عظيم. من زقاق إلى طريق إلى رصيف إلى مرسى إلى متن، ثم دوار وغثيان فقَيْء صار حالي، استجبتُ لهديره مرغمًا لا راضيًا. ولما استقرّ بنا الأمر أخيرًا على متن إحدى سفن الأسطول، أثناء الحملة على جزيرة «قورفو» (كورفوز) في الخريف، والتي انطلقَت بسبب خيانة البنادقة، أوائل سبتمبر في السنة السابعة والثلاثين وخمسمئة وألف ميلادية، ربيع الأوّل لسنة أربع وأربعين وتسعمئة هجرية، راحت نفسي تصرخ فيّ «أخوض معركة ليسَت معركتي، صارَت معركتي».

تم حصار القلعة، ونصبت المدافع على الأرض، وبدأ ضرب المدينة لعدة أيام، واستمر الحصار قرابة أسبوعين. وبحلول الشتاء، انصرفَت الأنظار عن القلعة، وتمّ نقل المدافع إلى السُفن، وأثناء العودة، قام الجنودُ الذاهبون مع السُفن بقتل كل من يقابلونه في جُزُر «وندیك» (البندقية)، فهلك كثيرٌ من جندها وأهلها، وأسر أولادهم وبناتهم ونساؤهم. وبهذه الطريقة قاموا بتخريب كثيرٍ من الجُزُر، والتزموا بتسليم الجُزُر الباقية لهم، ثم خرج العسكر بهذه الغنائم إلى «إسلام بول»، وأذِن السُّلطان لهم بالتسريح!

ورأيتُ البحارة يهنئون أحدهم، وعَجّ المتن بالمهنئين، ولم أكن أعرفه آنئذ. كان باسمًا بشوشًا مع كل من بالسفينة، يعرفه أو لا يعرفه. لم أهنئه، ولكنه ابتسم لي. عرفتُ من البحّار إلى جواري أنّ «سِنان پاشا» ترقّى لرتبة ضابط بحريّ، نظير خِدْماته الجليلة للدولة، وقد عاد لتوّه من سواحل إيطاليا، حيث كان يتقصّى الآثار المعمارية. هرعتُ أفرغ ما في جوفي بالبحر، فجاء بنفسه إليّ، وربت عليّ سائلًا: - أأنتَ بخير؟

مسحتُ بقايا القيء عن فمي بمنديل، واعتدلتُ إليه، وأومأتُ أن نعم، وخلفه كان «جابر» مقطّبًا، يرمقه بنظرة تحفّزيّة، فما زال يكره العثمانيين. ظلّ الرجل إلى جواري، يتأمّل وجهي فاحصًا، ثم قال: - افتح فمكَ..

فتحتُه، فقال:

- لثتكَ ملتهبة؛ أتشعر بضيق في التنفّس وألم في صدركَ؟

أومأتُ أن نعم، نظر إلى عيني متفحّصًا وقال: - عيناكَ جافّتان، أتشعر بحساسية تجاه الضوء؟

قلتُ:

- نعم.

- أهناك ألمٌ حادّ يصيب قسمًا واحدًا من رأسكَ ويرافقه غثيان واضطرابات بصرية؟

- أجل.

- الإسقربوط.. عادة ما يُصيب البحارة، أكثر من أكل الفاكهة، وخاصة البرتقال.

ثم مدّ إليّ يده ببذور سوداء صغيرة تشبه المسامير، ولما رآني متعجّبًا ابتسم وقال: - هذه حبّات قَرَنْفُل، ضع القليل تحت لسانكَ، ودَعِ الباقي معكَ عند الحاجة، ستساعدكَ كثيرًا.

أخذتُها منه، وعملتُ بنصحيته، كان مذاقها غريبًا لكنه أنعشني، قال: - عليكَ الاعتناء بنفسكَ جيدًا، ولا تضع في حسبانكَ دوار البحر الذي يؤرقكَ، تناساه قدر ما أمكنكَ، بإذن الله ستكون بخير.

تشوّشتُ.. أطبيب هو أم بحار؟ لا يهمّ، قدّرتُ اكتراثه لأمري، شكرتُه قبل ذهابه، ولحظّي السيء لمحتُ المدعو «سونگر» يرمقني بعينين اعتادتا الحقد، نظراته تزوغ هنا وهناك، ثم تعود إليّ بمقلتين مليئتين بالغيظ، ويتحدث إلى من هم بجواره بصوت مرتفع: - يقولون إنّ النساء يجلبن الحظ السيء للسفن.

تساءل أحدهم متلفّتًا حوله: - وأين النساء؟!

قال البغيض:

- من لا يستطيعون مقاومة دوار البحر ويغرقون في قيئهم.

تعالت ضحكاتهم، وهو يرمقني بالنظرة نفسها، ولا عجب، فهو من الغلمان أسرى الحروب، الذين تمّ فصلهم عن ذويهم وأصولهم، وأُخذوا إلى العاصمة تسديدًا لضريبة الفتيان، وتمّت تربيتهم وتدريبهم على القتال والحرب، فلم يعرفوا حرفة أخرى، فصار انكشاريًّا. هذه الحقيقة تثير فيَّ شفقةً نحوه أحيانًا، وتجعلني أقرر ألّا أكترث بمحاولاته المستمرّة لاستفزازي، رغم علمي أنّه يقصدني تمامًا. رُحتُ أنظر إلى البحر، وإلى جواري رفيقي يتابع الأفق الأزرق المتمدّد. قال ولم ينظر إليّ: - لا تتعلّق بأي من الأشخاص الذين تلتقي بهم في البحر.

نظرتُ إليه سائلًا:

- لماذا؟

هزّ رأسه وهو على حاله مثبتًا نظره نحو الأفق: - حكمة قالها البحارة.

عاودتُ النظر إلى الوحش الأزرق الذي لا أوّل له ولا آخر، داعيًا أن نصل إلى اليابسة على خير، فأنا لا أعلم ما هي الخطوة التالية التي كُتبَت لنا في هذه الرحلة، التي لم أحدد خططًا مسبقة لها، وليكن ما يكون، وإنّ مشيئة الله نافذة لا محالة.

فجأة، هاجَ الوحش الساكن، وضربَت أمواجه سفينتنا، فكادَت تلفظ من بها. تمسّكتُ بالسور الذي اتكأتُ عليه، بينما تدحرج البعض مرتطمين به، وإلى جواري وصل الوغد. اتسعت عيناه، وإذ به يتشبث بقوة، ثم يدفعني بقدمه! انفلتَت إحدى يداي وكدتُ أسقط، لكنني عاودتُ التشبث بكلتيهما، فقطب وضربني بقدمه مرة أخرى بقوّة. هدأت غضبة الوحش، ولم يهدأ الوغد، مُصِرًّا على إسقاطي، وأنا أحاول جاهدًا بكل قوّتي التشبّث والنجاة بروحي، ولوهلة ظننتُ أنني ساقط لا محالة، ولكن رزق الله لي بحارسي «جابر» كان فيه حكمة ليمد عمري أعوامًا أخرى. دفع البغيض بقوة، وأمسكَ بيدي وجذبني إلى المتن مرة أخرى، وقد سقط الوغد بعيدًا وارتطم رأسه بالسور جاحظًا فاغرًا، و«جابر» يتجه نحوه. أمسكتُ بذراعه بكلتي يديّ، محاولًا منعه، فلم يكترث بي وجرّني في طريقه، وقد ازداد إصرارًا على الوصول، كان «سونگر» يزحف على ردفيه متراجعًا، وقد صنع أصدقاؤه جدارًا ليحولوا بينه وبين رفيقي الغاضب.

أسرع أحد الضبّاط، ليفرّق بيننا ويمنع جلَبَة لم تكن لتنتهي على خير. نهضتُ عن الأرض معتدلًا، وقصصنا عليه ما حدث، فنصحنا بتقديم شكوى للقاضي، ففعلنا. تجنبنا «سونگر» منذ تلك الحادثة، فإذا ما صادف «جابر» أشاح ببصره عنه، متمنيا لو يغيب في أعماق البحر حتى يتخلص من هلعه.

عُدنا إلى العاصمة على خير، وفي ذلك الوقت كان السُّلطان قد أمَرَ بتجهيز الأسطول للذهاب إلى غزوة «فرنكستان»، وفور وصولنا تقدمنا بشكوانا، وحدد القاضي موعدًا للمحاكمة، في حضور بعض الشهود. أنكر كل رفاقه صحة أقوالنا، فوجدتُني أرتجف غضبًا من الزور الجائر، وارتفع صوتي، بينما كان الوغد في غاية الثبات والبرود، فوبّخني القاضي وهدّد بزجّي في الزنزانة إن لم أهدأ، فاضطررتُ إلى الرضوخ لأمره. لا أدري كيف انتهى الأمر بمعاقبة كلينا، كيف يكون الحُكم سيّانًا على المجني عليه والمذنب؟! لكن ما أثلج صدري منعنا من ركوب البحر، وأدركتُ أن القاضي واقع تحت تأثير وأوامر آغا الانكشارية، الذي بطبيعة الحال في صفِّ رجله.

استقرّ بنا الأمر لعدة أشهر، أداوم على أكل الفاكهة وخاصّة البرتقال كما نصحني «سِنان»، وأحتفظ بحبّات القرنفل معي دومًا، وأُكمل تعلُّم المجريّة بكل جهدي. كانت مختلفة عن كل الألسنة التي أجيدها، ولكن استمرّت محاولاتي دون كلل، لمحبّتي لكل جديد، وقد أبدى معلّمي «ريزا أفندي» إعجابه بي وبفطنتي على حد قوله. كان هو من اقترح مسبقًا ذهابي إلى البحر، لاكتساب الخبرة كجنديّ، والترجمة إن استدعى الأمر؛ ما لي أنا ومال البحر، كُلّما هربتُ منه وجدتني أركبه؟!

ولما علم أستاذي أنّي لا أجيد المبارزة، تعجّب، ونصحني بأنني لا بُد وأن أتعلّمها، فماذا سأفعل إن واجهني العدو مباشرة، بمَ ستنفعني الرماية وقتئذ؟! وعدتُه بأنني سأحاول، ولما وجدتُني قد أتقنتُ المجرية على نحو مُرْضٍ، سألتُه متى أستطيع الذهاب إلى مجرستان، فبشَّرني أن «في الغد القريبً».

بذل «نصوح أفندي» جهدًا جبّارًا معي في تعليمي المبارزة. كان الرجل قويًا ماهرًا يجيد النزال، كم شعرتُ بضآلتي أمامه، واعتراني شديد الخجل، لكنه في كل مرة كان يبتسم ويمدّ يده إليّ ليساعدني على النهوض ومعاودة النزال من جديد. داومتُ على التدريب معه، ومقاومة ارتعاشاتي، وعدم سقوط السيف من يدي، ورفيقي يتابعني وهو يهزّ رأسه آسفًا في كل مرة أسقط فيها أمام «السلاحيّ». في السابق نصحني كثيرًا بأن يعلمني بنفسه، إلّا أنني لم أستمع له وتمسّكتُ برفضي. الآن فقط عرفتُ أنّه كان محقًا، وأعترف كم كنتُ مخطئًا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

-١٥-

داوم ثلاثتهم على اللقاء يوميًا في الخان، بالتبادل في دكان أحدهم، وآخر النهار يذهبون إلى المقهى، بينما دوامت «مريم» على زيارة «تقهيده خانم»، تتبادلان الحديث وتتفننان في إعداد أنواع الأطعمة المختلفة، واعتادتا العمل معًا في حياكة وتطريز الألبسة والمفارش. أمّا «أم سَمعان»، لسنّها الطاعن لم تقدر على النزول، فلم تقصّر الحسناء في الاهتمام بها ورعايتها، ومعاملتها كجدتها، فبيت ابنها ليس بقريب، وإن كان لا ينقطع عن زيارة أمّه، مرتين أو ثلاثة في الأسبوع، كانت تلك الليلة التي التقيا به إحداها، وفي أيام الأحد يُحضر أولاده بعد الصلاة ويظلّون جميعًا معها حتّى المساء.

أحبّت «مريم» الحياة في المحروسة كثيرًا، وعوّضتها عن تلك الحياة السابقة على الضفاف، من عربة لخيمة، ورغم إنها اشتاقت لعشيرتها، لكنها الآن في حالٍ أفضل، فقد زال الخطر الذي كان يحدق بها طوال الوقت، فالنمساويون لا أمان لهم ولا عهد، وبسبب غدرهم فقدَت أمها، ولذا فهي لا تندم على تركها للأرض التي نشأت وترعرَعَت بها، وأصبحَت بالنسبة إليها ذكرى تحمل الطيب والسوء.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

مجرستان، ٩٤٥ ه

بداية عملي كهدهد للسُّلطان

بعد إتمامي التدريب على يد «نصوح أفندي» الناصح الأمين، الذي علمني أنني وإن كانت المعلومات مهمتي وسلاحي، فقوة السيف هي التي تحمي حتى المعرفة. وفي ربيع السنة الخامسة والأربعين وتسعمئة هجرية، الثامنة والثلاثين وخمسمئة وألف ميلادية، جهّزتُ أغراضي وكل حاجتي، عاقدًا العزم على المسير نحو الغرب إلى مَجَرِستان، مع رفيقي وبعض المتطوّعين الذين اختارهم «نصوح أفندي» بنفسه لمهام المراسلة. وبناءً على الشعار الذي اختاره السُّلطان لي، اختار اسمًا لفرقتنا، «إيبيكلر» أي الهداهد.

ثم بلغتنا أوامره بتغيير الخطط مؤقتًا، والاستعداد للحملة السُّلطانية المنطلقة في القريب العاجل، لم نعلم ما هي الوجهة، فالسُّلطان يخفي ويستر توجّهه إلى أي جانب، ولم يُطلع أي شخص كان على مقصده، عاملًا بالقول: «استر ذهابك». رتّبنا أمورنا، وعند شروق شمس التاسع من صَفَر انطلقنا مع الحملة من «إسلام بول»، والرؤوس الذهبية للأعلام تلمع عاكسةً شمس أوّل النهار، وبعد عشرة أيام توقفنا في «أدرنه»، وفور وصولنا، صدَرَ فرمانًا واجبَ الاتِّباع إلى خان التتار «صاحب گراي خان»، وأمرَه: «لتأتِ أنتَ إلى ناحية «بغدان» بقصد المكرِ والسلبِ والحربِ».

بعد عدة أيام، تحرّكنا إلى ناحية «ينبولي»، وفي الثامن من ربيع الأول عبرنا من هناك إلى جبلِ البلقان، وبعد مسير ثمانية أيام وصلنا إلى إيالة «طوبروجه»، حيث طلب رئيس حُجّاب حاكم بُغدان الڤويڤود «ستيفن مايلاث»، وترجمانه مقابلة السُّلطان، وقَدَّم الرسول الكثير من الهدايا الثمينة عند اللقاء. ولما استشعر عزم السُّلطان على التوجّه إلى بلادهم، جثا أمامه يرتجي العفو عن ذنب سيده الڤويڤود، وتعهّد بامتثاله للأوامر الهُمايونية من اليوم، فاستُجيب لمطلبه، وأُرسل معهما «سِنان چلبي» محافظ «كفه»، نظرًا لمعرفته أحوال تلك الديار، وحُمّلوا مكتوبًا فحواه: «لو أعلن الڤويڤود الطاعة، وتعهّد بالانقياد، وأتى وقَبّلَ تراب بلاط حامي العالم، سيُعفى عن ذنبه وزلّته، وعفا الله عمّا سلف».

وبعد يومين آخرين، توجهنا إلى ميناء «إيساقجي»، وعبرنا الجسر الذي بناه أمير سنچق «سلستره» على نهر «طونه»، حيث وصل «سِنان چلبي» إلى موضعنا الجديد، وأبلغ السُّلطان بنتيجة لقاء الڤويڤود وامتناعه عن إعلان الطاعة، فانتقلنا إلى المستنقع قرب نهر «پروت» الكبير.

بذل المعماريون كلّ ما بوسعهم لإنشاء جسر لعبور العسكر، إلّا أنه لم يصمد، وهوى بعد مدّة قصيرة في الوحل، ولما أَعيَت البنَّائين الحيل، قال «لطفي پاشا» الوزير الثاني للسُّلطان:

- مولاي السُّلطان، يمكن بناء هذا الجسر لو تولّى أمره «سِنان» خادمكم الضابط البحريّ، فهو معماريّ حاذق وماهر جدًا.

وبالفعل، كُلِّف بالأمر «سِنان» الذي التقيتُه من قبل في البحر، وبالفعل أتمَّ بناء جسر متين عبر النهر في أقل من أسبوعين، وهكذا عبرنا إلى الشاطئ الآخر ليل نهار، ثم وافق السُّلطان على اقتراح «صوفو محمد پاشا» بهدم الجسر، حتى لا يستخدمه الأعداء، اقتداءً بحرق العثمانيين سفنهم بعد فتحهم روم إيلي. ولما وصلنا إلى مدينة «سوچه آوا»، كان قد فرّ جميع أهلها خوفًا من العسكر، فأعطى السُّلطان الأمان لكل أهالي البُغدان، فلا يتعرّضَ أحدٌ لمن بالقلعة، وعلى مدار أربعة أيام استقبل في بلاطه جميع أمرائها وأبناءهم، ورهبانها وقساوستها وأعيان النصارى، فأقسموا على صُلْبانهم بالانصياع والخضوع لكل ما يأمر به، ورجوا أن يُعيّن «إمريك بالاسا» ڤويڤودًا عليهم، وقُبل طلبهم بشرط دفعهم الجزية. ولقد أُخبِرَ السُّلطان أنّ ثروة وممتلكات حاكمهم السابق، الذي أعلن العصيان ثم فرّ، موجودة بقصر المدينة، فكلف «حسن آغا» رئيس الإسطبل الكبير بالبحث عنها والعثور عليها، فلمَّا وجدوا الأواني الذهبية والفضية، والصلبان والسيوف المرصعة والمنمنمة، وسيوف من نوع الشيش، ولؤلؤ مرصَّع بالذهب يبهر الأبصار بريقه، وأقمشة فاخرة مختلفة الأشكال والألوان، وأشياء أخرى لا تعد ولا تُحصى، صادروا كل هذا للخزينة العثمانية.

قبل الغروب، وَصَلَ «صاحب گراي خان»، وفي صباح اليوم التالي اصطف الأمراء والوزراء والأعيان والأركان، وأمير أمراء الروم إيلي «صوفو محمد پاشا» وبعض أمراء السناچق، كلٌ في مكانه المحدّد له، ووقف خان التتار وقواد جيشه في الجانب الأيمن مقابلهم، منتظرين قدوم السُّلطان. ضُربت ثلاث نوبات بالبنادق، ثم ثلاثة أخرى بالمدافع، فأُصيب جند التتار بالاندهاش من تلك العادات العثمانية غير المألوفة لهم، بينما ظهر جلالته وسط حاشيته. تحركت عربات المدافع والطوبجية وسائقو العربات المسلّحون، وخلفهم الإنكشاريين، يتبعهم القائمون بأمور الطبل والنقارة، وخلفهم ظهَرَت وحدات التتار. عبروا جسر«طونه»، حتى اقتربوا منه، فتعطَّف وسرَّ خواطرهم بحديثه، ثم عادوا إلى مواضعهم، ودُعيَ الخان وكل أمراء التتار للديوان الهمايوني وقت العصر.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وبينما هذا يحدث، كان الڤويڤود وجنوده يحتمون بجبل «بوطشان» الوعِر، ويحكمون تحصين أطرافه والطرق ومجاري السيول، بإنشاء موانع ومتاريس، وقد أيقنوا أنّ المواجهة لابُدَّ وأن تكون في هذا المكان. أَمَرَ السُّلطان العسكر المسلّحين بالفأس من جُندِ الأفلاق بفتح طريق واسع في هذا الجانب، ولم يجد العسكر صعوبة في العبور، لكنّ المتمرد هرَبَ من طريق سِرّي، تاركًا جنده يحاولون إنقاذ أهلهم وأولادهم والفرار بهم، وأحرقت مدينة «ياش بازاري» وسوّيت بالتراب، وكُلّف غزاة «سمندرة» وفرقة من عسكر التتار بتعقّب الهارب.

وأخيرًا، عُدنا مع الحملة إلى «طونه» مرة أخرى، عبرنا الجسر، وأُقيمت الخيمة السُّلطانية، ودقّت الطبول والمعازف، وأُرسلت رسائل البُشرى إلى أطراف العالم، ووُزعَت الخلع والعطايا والخيول العربية الأصيلة على الوزراء والأمراء، ثم تمّ تسريح عساكر الروم إيلي والأناطول والتتار. أحسستُ بأنني أعود للحياة، فأنا لا أرى في نفسي روح الجنديَّة، وأعاني كثيرًا من قسوة أجواء الحرب والدماء. منَّيتُ نفسي بأيام من الراحة والعودة إلى ذاتي الحقيقية، لكننا التقينا «حسن بك بن خير الدين پاشا» وسعاته، وقد جاء برسالة عاجلة من والده پاش قبودان الأسطول «بربروس»، سلّمها لحاجب الخيمة السُّلطانية، أَمَرَ السُّلطان فور استلامها بعقد اجتماع طارئ، ليستمع إلى فحواها مع قادته، فكدتُ أبكي من زوال أملي.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

-١٦-

عاد «كمانگير» إلى بيته عند الظهيرة، فوجد «مريم» تجهّزت بالبرقع واليشمك، فتجمّد أمامها مبتسمًا.

- ماذا هناك؟

اتسعت ابتسامته وهو يخبرها في ابتهاج: - في كل الأحوال، أنتِ أجمل امرأة خلقها الله، ظُلمَت كل النساء من بعدكِ.

رفعَت اليشمك إلى الخلف، وقالت: - كيف؟

أعاد اليشمك إلى مكانه مرة أخرى وقال: - بلا يشمك أو برقع أو بهما؛ أنتِ الأجمل دومًا على الإطلاق.

ابتسمَت وعانقته، ثم كبحا اشتياقهما وخرجا لزيارة زوجة أبيه، فقد تأخر في تنفيذ عهده الذي قطعه على نفسه بزيارتها.

راحت «تقهيده آنا» تضمّ الجميلة إلى صدرها، ولم تنقطع عن تسبيح البارئ الذي خلقها فأحسن، قالت فرحة: - لكم أحبكَ الله يا بني أن أكرمكَ ب «مريم»، هنيئًا لكَ يا قرّة عيني.

أردفت:

- لن تعتذر مني اليوم يا «سليمان».. تبيتان عندنا الليلة..

ودون انتظار موافقته، نظرت إلى الجارية الواقفة بالقرب وقالت: - «ريحانة».. أخبريهم بإعداد الغداء اليوم بما طاب من اللحم.

ثم عادت تنظر ل «مريم» وتقول:

- ستظلين معي طوال اليوم، اليوم لا طهو ولا خبز ولا أشغال التطريز، بل هو السمر وحديث طويل.

ربتت على كتفها وقرَّبتها منها أكثر، فقال «كمانگير»: - فلأترك أنا إذًا حديث النساء الطويل، وأذهب لأخي «عليّ».

خرج من الحرملك، وذهب حيث غرفة أخيه، فوجد الأغا عند الباب يطرق رأسه، وفور أن رآه طرق الباب وفتحه، فدخل «سليمان» متمهلًا. كان «عليّ» يفترش الأرض، يحملق في اللاشيء بنظرات غير مستقرة، فجلس إلى جواره وربَّت على كتفه. انتفض «عليّ» متفزِّزًا، والتفتَ إليه بجبين منعقد، ثم أشاح عنه. نظر إليه «كمانگير» بعينين مغرورقتين ووضع كفه

على كتفه برفق، وقد ارتعشت الكلمات على شفتيه: - أنا أخوك «سليمان»..

- سو.. لاي.. مان..!

ابتسم «عليّ»، ثم تبدلت ملامحه وأخذ يبكي. ضمه «كمانگير» إلى صدره وبكى معه.. هدأ «عليّ» سريعًا، فهدأ بدوره ومسح أدمعه وابتسم وهو يقول: - أتذكر يا «عليّ» عندما كنتَ تحميني من الأشقياء؟ ذلك الفتى الضخم المتعجرف الذي كان يضربني كلما رآني، لن أنسى أنكَ لقنتَه درسًا منعه من التعرض لي مرة أخرى، وكلما رآني أطرق رأسه وتحسس الندبة التي خلّفتَها له على وجهه. كنتَ دومًا تخاف عليَّ، وتعمل على إرضائي بأي شكل حتى على حساب نفسكَ، ولطالما اعترفتَ على نفسكَ أمام أبي وعوقبتَ بدلًا مني..

نظر إليه «عليّ» بعينين جاحظتين وشفتين مرتعشتين، ثم هز رأسه بعصبية وتفزَّز جسده وصاح بصوت مرتفع متقطّع: سو.. لاي.. مان.. ورفع ذراعه يشير به عاليًا، و«كمانگير» غير مستوعب لما يفعله أخوه، الذي راح يهزّ رأسه وهو يشيح ويقول: سو.. لاي.. مان.. ثم أخذ ينهنه باكيًا. ضمّه «سليمان» إليه مرة أخرى، ونفسه تؤنبه لما آل إليه حال أخيه. ظلّ يربِّت على ظهره، حتى هدأ وراح في سُبات عميق بين يديه، فأشار «كمانگير» إلى الأغا، ليساعده على نقله إلى فراشه. غطّاه، ورمقه بنظرة حانية دامعة، ثم خرج وأغلق الباب خلفه برفق.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

-١٧-

پريڤيزا، ٩٤٥ ه

«إذا ارتأيتَ في منامكَ الأسماك تجنح إلى الشاطئ فأبشر».

كمُدوِّن أو مؤرّخ كما حسبتُ نفسي، كان عليّ الاستماع جيّدًا لما قاله «حسن بك بن خير الدين پاشا»، وما يقصّه ويحصيه على مسامعنا، والكتابة دون زيادة أو نقصان، حتى أنهي عملي على نحو مُرْضٍ، أو على الأقل يرضيني، فقد أدهشني بهذه الدرجة الحكائية الدقيقة، فحَفظت عن ظهر قلب، لأخطّه فيما بعد كما قاله بالتمام والكمال. حيث قال:

خَرَجتُ مع أبي پاش قبودان «بَرْبَروس» إلى البحر بأسطوله، وكان ذلك في ربيع جُمادَى الأولى سنة خمس وأربعين وتسعمئة هجرية. هذه المرة طال مكوثنا في اليَمِّ، ولم نرجع إلى اليابسة إلّا بعد رفع علم السلطنة على ثماني وعشرين جزيرة من جزر «البندقية»، وأربع قلاع أخرى، لتأمين جميع الطرق البحرية، ولم يبقَ سوى جزر «صاقيز» و«كريت» و«قبرص» خارج الحظيرة العثمانية. لقد أسر الجند عشرين ألف أسير وأرسلوهم إلى العاصمة، ولكنني لم أجد وقتًا لتغشاني أفكاري الضاغطة حول الأسرى وترحيلهم إلى المجهول بالنسبة لهم، فقد استجابَت العصبة المقدسة دون تردّد لنداء البابا «پولُس الثالث» في روما للقضاء على أسطولنا، وجمعوا ما يزيد عن ستين ألف جنديّ، وانطلق أسطولهم بأكثر من ست مئة قطعة بحريّة، على متنها مئات المدافع، بقيادة الچنوي «أندريا دوريا»، فالتهديد كان شديدًا هذه المرة. لَبَّى ثلاثة آلاف من رماة الرصاص الإنكشاريين، وعشرون ألفًا من العسكر نداء القبودان، الذي أمرنا بالتحرّك في أواخر سبتمبر، عند وصول نبأ حصار قلعة «پريڤيزا» (پروزه). انطلق بأسطول يتألّف من مئة واثنين وعشرين سفينة فقط، ولم يمضِ على حصار الأعداء للقلعة إلّا يومًا واحدًا، ولم نتوقف إلّا في خليج «أكتيوم» لليلة، قبل ملاقاة العدو.

كانت ليلة حالكة من ليالي سبتمبر، هي الأكثر صمتًا، وكأنه النذير بحدوث شيء رهيب. انتشر بين البحّارة أنّ «خير الدين پاشا» لم يُغمض له جفن، بعدما وصلت أنباء تفوّقهم عددًا وعتادًا، فتوتَّر الجند. ظَلَّ پاش قبودان على حاله حتّى مطلع الفجر، ثم صلّى بجنوده، وسأل الله العون والنصر والثبات في مواجهة العدو المحتشد، ثم غلبت عينيه غفوةٌ، استيقظ منها يقصّ علينا رؤياه:

«كنا على ساحل الميناء، فإذ بأسماك صغيرة تخرج إلى الشاطئ، وبينها سمكتان كبيرتان. وبينما أنظر إليهما، رأيتُ رجلًا يمتطي حصانًا أحمر اللون

ينطلق نحوي مسرعًا، وقف أمامي وأعطاني مِنْزرًا مملوءًا بالسمك الصغير، وقال: «خذ هذا يا «خير الدين».. هدية من السلطان «سُليمان» خليفة الله في الأرض»، ثم أعطاني رسالة، وغاب عن ناظري. فتحتُها، فرأيتُ بخطٍ أخضر قد كُتِبت الآية: «نصرٌ من الله وفتحٌ قريبٌ وبَشّر المؤمنين». مسحتُ بها وجهي وعينيّ، واستيقظتُ وأنا أقول: الحمد لله رب العالمين، والحمد لله على البشرى».

شاعت الرؤيا بين البحّارة، وراحوا يحمّسون بعضهم بأنّ پاش قبودان يبشركم بنصر الله. أبحرت سفننا عند الشقشقة، متشكّلة على هيئة هلال، قائدنا على القلب بسفينته «القادرغه» الكبيرة، ومعه العبد الفقير إلى الله وأخي بالتبنّي «حسن»، وعلى الجناح الأيمن «قازْدَاغْلي صالح ريّس»، والأيسر «سيدي علي ريّس» عالم الجغرافيا والرياضيات، وأمر «طورغودچه ريّس» قائد سِرب المتطوعين بسحب احتياطي الأسطول والبقاء في الخلف، بينما اصطفَّت سفن العدو في ثلاثة صفوف متتالية، في مقدمتها سفن «الغاليون» و«الكاراكا» الكبيرة، يقودها «أندريا دوريا» على رأس سفن «القادرغه» المصطفة في الصف الثاني.

على حين غرّة، انطلقَت نيران مدفعيتنا بقوّة دون توقّف، قبل أن يتوقّع أسطول العدو هجومنا، وبهمَّة منقطعة النظير انطلق الپاشا بسفنه إلى مقدمة أسطولهم، فاختلّ نظامهم وتخلخلَت صفوفهم من هول المفاجأة والجسارة، فتفرّقوا، لا يدرون ما عليهم فعله. لكن ريحًا شديدة من الجنوب عاندتنا، مخالفة لاتجاه سفننا، فقوّت العدو، الذي استغلّ الفرصة لصالحه، وانطلقَت قذائفه نحونا، وكلما سقطَت في البحر، ظلوا يحاولون دون كلل. لاحظ پاش قبودان الإحباط الذي خيّم علينا، والمعنويات التي ابتلعها البحر في أعماقه، فأمر الجميع بكتابة آيات من القرآن الكريم على بعض الأوراق، شرفتُ بكتابة بعضها على أشرعة طويلةٍ، وربطها على جوانب سفينته، وكافة أطراف السفن، ونثرنا بعضًا على سطح البحر، ثم وقفَ على مقدمة سفينته متضرعًا إلى الله أن ينصرنا على أعدائه.

لم أصدق أن يأتي ما فعل بنتيجة، فنحن في حرب ولسنا أنبياء لتتنزل معنا الملائكة يحاربون، ولكن عجبًا، سرعان ما خضعت الرياح، وتغيَّرَ اتجاهها وهدأت قليلًا، فثبتت سفننا ولم تعد تتراجع، بينما اثَّاقلت سفنهم في أماكنها، فذهب قصف مدافعهم هباءً في عمق البحر، وتمكنت مدافعنا طويلة المدى من تدمير سفنهم الأمامية. وعند بلوغ تلك المرحلة، التف «طورغودچه ريّس» حولهم من الخلف، واستعرت حرب ضروس لعدّة ساعات، وقد صاروا مطوّقين داخل حلقة، حتى اعترى «دوريا» اليأس، وأمر أسطوله بالانسحاب، ففروا مستغلين ظلام الليل.

لم يأمرنا الپاش قبودان بتعقّبهم، لكنه أمر بإحراق سفنهم المتبقية، فتحوّلَت صفحة البحر الأزرق الممتد إلى جمرة من لهب ونيران تسطع متصعّدَة إلى عنان السماء، وكأنّه احتفال بالنصر العظيم، فقد فَرَّ «أندريا دوريا» بحياته، خاسرًا عددًا هائلًا من السفن، ولم نفقد ولا سفينة واحدة، وأسرنا أكثر من أربعة آلاف جندي، واستولينا على ستة وثلاثين قاربًا وستة وثلاثين سفينة أخرى صالحين للاستخدام، وأعطبنا أكثر من مئة وعشر سفينة أخرى.

بعدما أنهى «حسن بك بن بربروس خير الدين پاشا» قصة معركة «پريڤيزا» والانتصار العظيم، أَمَرَ السُّلطان بنشر أخبار النصر في كلِّ إيالات الدولة، والاحتفال في كل أنحائها، واتخذت أنا ركنًا أفكر في أحوال الحرب، ومشهد النار المشتعلة فوق الماء يرجفني، وما أغمضت عيني إلا وتجسد لي فأستغفر وأستعيذ من نار الآخرة، وأطرد وسواس التساؤلات كي لا تزل قدمي في الفتنة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لم أكن مرتاحًا لبربروس، هكذا حالي دائمًا مع ذوي العيون الملوّنة، لكن مع الوقت أدركتُ أنّه ورِع تقيّ، لم يخُض حربًا قط قبل أن يُصلّي ويستخير ويبتهل، ورغم أنه يحتدّ في كلامه عند الغضب، إلّا أنه، إذا ما اقتربت منه، مريح مقدام، يقظ فَطِن، له عين ثاقبة تحلل الأمور قبل بدء الحرب، وقبل الإقدام على أية خطوة يخطوها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

عندما وصَلنا «أدرنه»، وقبل موسم الشتاء، أمر السلطان الأسطول بالرجوع إلى «إسلام بول» وتسريح كل الجنود. في ذلك العام مُنحَت بالأمر السُّلطاني إمارة أمراء مصرَ ل «داوود پاشا»؛ وتوجه «سُليمان پاشا» والي مصر الأسبق إلى هندستان، من أجل مساعدة حملة «بهادر خان» بسبعين سفينة، أبحرت من «السُوَيْس» إلى «عدن»، ومنها إلى «ديو»، وهناك حاصروا قلعتها، وأقاموا المدافع والمتاريس، لكن وفاة «بهادر خان» منعَت هنودُ ذلك المكان من مساعدتهم، واستمرَّ ضرب القلعة لفترة دون جدوى، وبسبب ضيق الوقت رجعوا إلى «عدن»، وعبروا من هناك إلى ميناء «زيد»، وعادوا إلى السويس. وفي سنة ست وأربعين وتسعمئة هجرية، التاسعة والثلاثين وخمسمئة وألف ميلادية، وقت صلاة المغرب في يوم الجمعة سابع عشر صَفَر، ثالث يوليو، اندلع حريق في باب الميناء ب «إسلام بول»، ثم انتقل إلى السجن، حتى أحرق كل الموجودين بداخل الزنازين، ثم انتقل إلى أسفل القلعة، وسبّب خسائر كثيرة، وانتشر الطاعون بالعاصمة، وأصاب «آياس پاشا»، وتوفي بسببه في السادس والعشرين منه، وأصبح «لطفي پاشا» وزيرًا أعظم مكانه.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

-١٨-

ذاكرتي تأبى استرجاع تفاصيل تلك الفترة التي أدوِّنها، فأكتفي بتلك الأحداث الجسام، وأتجاهل ما كان حولي من علاقات وأمور، وما كان في نفسي من وجل، فلعل الله يريد لي عدم ذكر تلك التفاصيل من باب ظاهره يضايقني أن صرت أنسى، وباطنه الرحمة ولطفٌ عظيم بروحي التي مرت بما ليس هينًا على كائن من البشر، هجرت موطني في مقتبل العُمر؛ حقّقت ما لم يحققه غيري من المؤرخين المحنّكين والرحّالة، مررت بأحداث كثيرة مهمة في أول عامين فقط، لم أتوقّع حدوثها وأن أكون في معمعتها حتى في أحلامي، كلها كُلِّلَت بالنصر. لولا المحيطين بي ومؤازرتهم ما كنت لأتحمّل، وللعنت اليوم الذي تركت فيه القاهرة، ومن نهر لبحر، ومن جزيرة لأخرى، لم أجد الوقت لالتقاط أنفاسي المتقطّعة المنهكة، شاركت بشيء ما، وأدليت بدلوي في كل ما مر بي، حتى وإن لم تكن معركتي، دوّنت وأحصيت كل ما أراه وأسمعه، المناخات وتقلبها، الغابات والفيافي، البشر وملابسهم العجيبة وعاداتهم الغريبة، رسمت المباني وما فيها والطرقات بما عليها، حتى اكتظّ مجلّدي الأوّل. وقد أبقيت أمر التدوين سِرًا، لا يعرفه غيري وصديقي، وظلّت جعبتي بما فيها تحت ناظري، لكم وَددت أن أضعها في مقلتي عيني وأغلقهما عليها، حتى لا يصيبها مكروه ولا يعرف عنها أحد!

وأخيرًا، غلبه النعاس، فكف عن اجترار مواجعه، ونام وهو يفكّر في الأحداث التالية، وعقله مشغول بها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في الليلة التالية، استقبلته «مريم» فور عودته من دكانه بحماسة أدهشته، وراحت فرحةً تعرض عليه فناجين جديدة صغيرة ابتاعتها من الخان، وتفرّجه عليها واحدًا واحدًا، وحتى لا يُسرف في الشراب؛ ستُعد له قهوته المفضّلة بها، بدلًا من الأقداح القديمة الكبيرة. حبيبته تعمل جاهدة للحفاظ على صحته التي لا يراعيها أثناء التدوين، يظلّ يدوّن حتى مطلع الفجر، وقد لا يذوق طعم النوم إلّا ساعة أو ساعتين. أراها من استجابته ما يعلم أنه يسعدها، ثم طلب منها أن تعدّ له القهوة في أحدها، فلم تتوانَ، وهرعَت فورًا لإعدادها.

دخل إلى مكتبه، وأخذ ريشته، وقبل أن يبدأ وجدها قد أتته بالفنجان الصغير، وانتظرت تراقبه وهو يرتشفَ منه ويهز رأسه إعجابًا يرضيها، فضحكت ونقرت قبلةً على رأسه، وتركته لأشغاله. أخذ نفسًا عميقًا وهو يتابعها تكاد تطير فوق الأرض بخطواتها الرشيقة، وابتسم.. هي بهجة البيت والله، بل هي البيت والملجأ لقلبه، وما هو إلا ضيفها وصغيرها المدلل المنتظر لمساتها تدفئه.

ألقى ناظريه إلى نافذته، التي تسلّلَ منها ضوء القمر على استحياء، وسافر عبر السنوات، يتذكّر ويدوِّن، عساه يتم مهمته.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

حصار بودا، ٩٤٧ ه

«بعد الحظ السيئ حظ جيد».

في السنة السابعة والأربعين وتسعمئة هجرية، الحادية والأربعين وخمسمئة وألف ميلادية، وبعد وصولنا مَجَرِسْتان، وأحداث الحانة المجريّة، وما بعدها، وحتّى بداية الحصار في الثامن والعشرين ذي الحجة، رابع مايو، وبعد إرسالنا الرسالة وعودتنا مرة أخرى إلى قلب النار، وجدنا المعمعة قد بدأت. أثبَت النمساويون أن لا أمان لهم، انتهكوا ما استطاعوا، وخرّبوا بحقد دون هُدىً، واحتمينا مع الهنغار والغجر بقلعة «بودا». مرّت علينا أيام حصارها كسنوات مصر السبع العجاف، ولكنَّا لم نجد «يوسف عليه السلام». لم يأتِنا خبرٌ من العاصمة، وكلّما تسللنا إلى الأشجار حيث وكر الهداهد، لم نجد وشمًا جديدًا، ولا جديد.

كان من المهم للسُّلطان أن نعرف ما يدور في بلاد المجَر والنمسا وفي قصر الحكم، فعسستُ وبحثتُ حتى وجدتُ مرشدًا لي، وصيفة جميلة اسمها «صوفيا»، أخبرتني أنه عندما مات «يانوش زاپوليا» ملك المجر قبل هذه الأيام العجاف بعام، وبعد ولادة الملكة «إيزابيلّا» ابنه بأيام معدودات، عندئذ لم يلتزم النبلاء الموالين للعرش بمعاهدة ناغڤاراد، قادهم لذلك الأُسقف «چورچي مارتينوزي» عاملًا بوصيّة كلّفه بها الملك الراحل، ووفقًا لتلك المعاهدة المنقوضة حقَّ للأرشيدوق «فرديناند» الهابسبورغي عرش بوهيميا، وأرسل رسولًا إلى القسطنطينية مطالبًا بحقه في عرش المجر، ومن ناحية أخرى بدأ بتجهيز جيشه، بعد انحياز بعض نبلاء المجر له، ممنين أنفسهم باحتلال «بودا» قبل وصول العون الذي أرسله السُّلطان، وولى «ليونارد فيلس» قيادته، فسار به واستولى في طريقه على مدن «والتزن»، و«إسترغوم»، و«شتولڤايسينبرغ»، و«ڤيشيغراد»، و«پيشتي»، وحاصر العاصمة «بودا». استغاثت أرملة «زاپوليا» بالسُّلطان، ورغم كل شيء لم يستطِع جيش الأرشيدوق دخول المدينة واحتلالها، ففك الحصار منسحبًا.

وبينما كان السُّلطان يلتقي سفير النمسا في الآستانة ليتباحثا أحوال المجَر، أخبرتني «صوفيا» أن الأرشيدوق «فرديناند» شعر بضرورة التحرّك بشكل أكثر فعالية، لأنه - فيما عرفتُ منها- كلّف جيشه بمحاصرة «بودا» للمرة الثانية، في ربيع استثنائي تجمّعَت في أيّامه كل الطقوس والأزمات. أرسل جيشًا كبيرًا بقيادة الچنرالين «ويليام ڤون روغيندورف» و«پيريني پيتر» لإخضاع المدينة، ولم تكن تلك الكتيبة التي لاحت راياتها بالأفق إلّا فرقة من هذا الجيش المتكوّن من خمسين ألف جنديّ، تم جمعهم من النمسا والإمارات الألمانية، وبوهيميا، وهابسبورغ المجر، واستمر الحصار هذه المرة

لأربعة أشهر، لم تتلقَ خلالهم الملكة أي دعم أو مساعدة من أهلها بپولندا، ولكن قاوم الموجودون في المدينة بشتّى السبل الممكنة، تحت قيادة الأُسقف «مارتينوزي».

وعبر طريق سِرِّيّ، أخبرنا عنه الأُسقُف «مارتينوزي»، أخذتُ أنا و«جابر» نتسلل خارج القلعة نتلمس أيّة أخبار، فقد طال الحصار، وتأذّى الجميع وضاق بنا وبأهل «بودا» وبالغجر. وذات نهار، ذهبنا إلى قرب وكر الهداهد، فتهادى إلى أسماعنا نباح ألم، جاء مستمرًّا متقطّعًا من خلف إحدى الأشجار، ووجدنا كلبًا ضخمًا ممدّدًا باسطًا ذراعيه، اخترق سهمٌ فخذه، وبلل الدم فروه الكثيف، يمسح بذيله الطويل الأرض من حوله. ولما اقتربنا منه أكثر، رفع عنقه الثخين، فبدا أكثر طولًا، ورغم بنيته القوية وظهره المستطيل وصدره العريض، أطرق رأسه، وتدلت أذناه ذات العلامات السوداء. دنا «جابر» منه ببطء، ومسح برفق على فروه الناعم، وقد قرر استخراج السهم، وتضميد الجرح. وقفتُ حزينًا متأثرًا بمصابه، أجد دومًا صعوبة في التعامل مع مثل هذه الدوابّ، قد لا أُحبّ التواجد في المكان الذي تنتشر فيه القطط، لكنني لم أرهب الكلاب يومًا، واعتقدت دائمًا أنّها أوفى من الكثير من البشر. حدَّث رفيقي الكلب في حنانٍ، نادرًا ما رأيته منه، فهو في عيني دائمًا ذلك العملاق الجسور غير المبالي لشيء ولا لأحد..

- هوّن عليكَ أيّها الراعي الأناضوليّ، اللعنة على اللّاهي الذي فعل هذا بكَ، بعد قليل يصبح كل شيء على خير ما يرام، ثم إنْ شاء الله ستعود إلى سابق عهدكَ، مقاتلًا ضاريًا، تصيد الذئاب بمتعة، أو تحرس الغنم بعينين ثاقبتين.

كانت عينا الكلب البنّيتين الذهبيتين كأنهما تلمعان بالدمع، وراح يزوم متقرّبًا، فانتزع «جابر» السهم فجأة، بسرعة ومهارة، ومن الزاوية التي أراد، فلم يقدر الضريّ على منع عوائه الأليم، لكن كل شيء سيكون كما وعده به «جابر» في القريب العاجل، قوّته تؤهّله لذلك. عاد يربِّت عليه ويكاد يحتضنه، ثم نظّف له الجرح كما يجب. أشعل نارًا في الأفرع اليابسة، ثم ثبَّت الكلب جيدًا تحت ذراعه، وكوى جرحه النازف بخنجره، الذي تحوّل نصله إلى جمرة من اللهب. أكمل رفيقي تضميده بخرقة، قطعها من ذلك البنطال القطنيّ، الذي ضمدنا به الكثير من جراحنا، وجراح آخرين، منذ تركنا بلادنا.

تبسّم «جابر» على غير عادته، وأطعم الجريح من خبزه، وهو يقول: - عودًا حميدًا أيها ال «كاراباش» الصبور.

تركناه يستسلم للنوم، وأخذنا نبحث من جديد عن وشم يقودنا إلى رسالة تحمل مستجد الأخبار، حتى فقدنا الأمل، فعدنا نجلس بالقرب من رفيقنا

الجديد.

كدنا نستسلم لغفوة، حين باغت آذاننا وقع سنابك يقترب، فوضع «جابر» لثامه وقبض بقوّة على هراوته، وبالمثل فعلتُ متوشّحًا بالذئب، وسحبتُ قوسي وسهمي، بينما تصلّبت أُذنَي «الراعي» ومَدّ عنقه يزوم متأهّبا نحو الصوت. ظهر القادم، ورآنا على هذا الوضع، فرفع يسراه وشد لجام الجواد، فأوقفه بالقرب، وترجّل عنه. صاح بنا الفارس الملثّم: - ما ليَ لا أرى الهُدهد؟

عرفتُ أنّه يطلب كلمة المرور الخاصة بالهداهد، قلتُ: - أكله الذئب..

قال الرسول:

- لِتأتينّي بسُلطانٍ مبين..

فقلتُ:

- أحطتُ بما لم تُحط به.

- أنّى لكَ هذا؟

- إنّه مِن سُليمان وإنّه بسم الله الرحمن الرحيم.

وضعَ يمينه على صدره جهة القلب، فبادلناه بالمثل، فأماط لثامه ومدّ يده بإناء مستطيل مغلق يحوي رسالة: - تفضّل «كمانگير أفندي»، رسالة من العاصمة.

أخذتُها منه متلهفًا، وعلى الفور فتحتُها، ووقف السّاعي ينتظر الجواب.

أخذتُ أقرأ وأنا أبتسم، لكن بعد ذلك تبدّل حالي، وقطّبتُ ضائق الصدر، فسألني «جابر»: - ماذا هناك؟

سمحتُ للساعي بالانصراف، ثم نظرتُ إلى صديقي وقلتُ: - الرسالة تحمل أخبارًا سارّة، وأخرى ليست كذلك.

- وأمّا الأخبار السارّة؟

- السُّلطان في طريقه إلى هنا بجيش جرار.

- وغير السارّة؟

- قبل انطلاقه إلى هنا بأربعة أيام، أصدرَ فرمانًا بنقل شاهزاده «مصطفى» من «مانيسَا» إلى «آماسيه»، وتعيين شاهزاده «محمد» بدلًا منه.

صُدِمَ «جابر» هو الآخر من هذا القرار، وقال:

- إبعاده لابنه الأكبر عن العاصمة بهذا الشكل، يدل على أنّه قد سقط من حساباته لولاية العهد! ليس هذا أمرًا هيِّنًا.

سكت يفكر في الأمر، ثم هز رأسه واستطرد:

- دعنا الآن نستغل الأخبار الجيدة، وننقلها إلى مَن بالقلعة حتّى تصمد أطول وقتٍ ممكن، فالجميع في أمسّ الحاجة إلى دعم في هذا التوقيت العصيب.

تركنا الرفيق الجديد بالقرب من الوكر، فلم يكن ممكنًا أن نصحبه في تسللنا، وانطلقنا من فورنا إلى القلعة المحاصرة..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

منذ اليوم الأول لفرض الحصار، وتثبيتهم مدافعهم الكبيرة أمام «بودا»، وإعمالهم ليل نهار على دكّ حصونها بقذائفهم التي لا تنقطع؛ لم يسمح «مارتينوزي» لجيش هابسبورغ بنيل ما جاءوا لأجله، زاد عنها هو والحامية بإصرار، وردّوا على قصفهم بالشدّة نفسها، ومنعهم عنها بصمود واستبسال، حتى وصلت قوّات الروم إيلي التي سيّرها السُّلطان، وعلى رأسها الوزير الثالث «صوفو محمد پاشا»، الذي أقسم على تنفيذ الأوامر بالدفاع عن المدينة وإن كلفه الأمر حياته وكل عسكره.

وكعادة السُّلطان، لم يكن ليخرج من عاصمته للحرب، قبل إرسال خطاب رسمي لغريمه، وقد أَخْبَرَه في رسالته أنّ تحرّكاته العدائية لا تتوافق مع تصريحاته التي يدلي بها، حول رغبته في السلام، وهو والعالم بأسره يعلمون أنّ المجر خاضعة للدولة العثمانية، وهو بهذا يحاول هدم دولة نصرانية هناك، ولهذا تحرّك السُّلطان بنفسه على رأس قوّاته نحو المجَر للمرة الرابعة، لردع الأرشيدوق.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أسرَعَت الجدة «فوري داي» نحو امرأة غجرية تكتم صراخها بصعوبة محاولة التماسك، وهي على وشك وضع طفلها وقد اشتدت عليها آلام المخاض. كنتُ بالقرب فسمعتها: - تماسكي، عليكِ التحمّل، يجب ألَّا تضعي حملكِ هنا في القلعة.

همست أسأل «ماريا»:

- لماذا؟

سمعتني الجدة، فردت بنبرة حادة:

- حتّى لا تُلعن هي ومولودها.

سألتُها متعجبًا:

- لكنها تلد الآن، فماذا علينا أن نفعل؟

- يجب أخذها إلى الخارج، لتضع حملها تحت إحدى الأشجار، ثم على من يرافقها أن يبقى بعيدًا عنها.

نظرتُ إلى «ماريا» مشدوهًا، ثم عاودتُ النظر إلى الجدة والمرأة، وقلتُ: - معلوم، سنساعدها أنا و«ماريا» على ذلك.

ساعدنا المرأة على النهوض، وسرنا بها، نكاد نحملها، إلى خارج الغرفة، سألتُها في الرواق: - وماذا سيحدث بعد الولادة؟

- عليها أن تعزل نفسها لأسبوعين على الأقل.

- وبعد؟

- تعود إلى حياتها الطبيعية.

- لماذا كل هذا؟

- الحامل غير طاهرة، وأثناء فترة الحمل تظلّ معزولة في خيمة منفصلة بعيدًا عن العربة، وبعد الولادة لا يلمس والد الطفل مولوده إلّا بعدما تلقّنه الجدّة.

- عال!

قلتُها آسفًا، محاولًا ألّا أنتقد تقاليدهم أمامها. قالت: - الخروج في هذا الوقت قد يودي بنا، ماذا سنفعل؟

- لن نخرج، سندخل إلى غرفة أخرى بعيدة، وأنتِ تساعدينها، وعندما نعود نخبر للجدة أننا نفذنا أمرها.

انقبضت عضلات وجهها، لكن لم يكن منها إلّا أن وافقتني الرأي، فهذا هو المناسب. همست أحدث نفسي: «إن كان ربُّ الغجر سيلعنها ومولودها، فالربّ الرحيم لن يفعل ذلك». لمحت شبح ابتسامة على شفتي «ماريا»، فكدت أصرخ بإعجابي بروحها المتمردة وفطرتها السليمة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

قبل وصول القوات العثمانية بقيادة الوزير الثالث «صوفو محمد پاشا»، بَنَت القوات الهابسبورغية أسوارًا حصينة على هيئة مستطيل، أطلق عليها العثمانيون «استابور»، وحفر الجند الخنادق حول قواعدهم الحصينة، وانتشرَت مدافعهم وعربات نقل الذخيرة والمؤن خلفها على التوالي، وبذلك تفوّقوا بتشديد الحصار على القلعة، للقتال بتفوق كبير في العدد والعتاد والخطط، إذ تمكنّوا من تثبيت القوات العثمانية في أمكانها. لكن عسكر

العثمانيين استطاعوا إصابة الكثيرين منهم، ولم يستطِع القائد العام للجيش «روغيندورف» ورفيقه «پيريني» إدارة الحصار بالشكل الذي يرضي الأرشيدوق الهابسبورغيّ، فتحيَّن فرصة نبأ اقتراب السُّلطان على رأس جيش جرار، ليأمر الجنود بالانسحاب والرحيل على سفنهم الراسية في نهر الدانوب والعبور إلى ضفّته المقابلة، متجاهلًا إعدادات قائده. لكن «صوفو محمد پاشا» لم يرض بانتهاء الأمر بانسحابهم دون قتال، وأصدر أوامره بالهجوم. أكثر من سعد بهذا القرار كان «جابر»؛ الذي أخذ هِرَاوته بيمينه، وبيسراه رمحًا، وخرج من القلعة يقود بعض الأهالي ومتطوعي الغجر، يلقي برمحه فيسقط أحدهم صريعًا، ويطيح بواحد تلو الآخر بهرواته، لدرجة أن بعض العسكر العثمانيين تركوا المداهمة وراحوا يتابعونه مشدوهين. كنت أفهم حماسته، فقد كره أولئك القوم وعجرفتهم وبطشهم الفاجر بالبسطاء، وكنت مثله. صعدت سور القلعة، وأخذتُ أصوِّب سهامي، فلم يخذلني سهم كما اعتدتُ، وعندما سقطت الهراوة من يد «جابر» بسبب عيار ناريّ كان يقصد صدره، رميت سهمي، فأصاب ذراع الفاعل، فسقطت بندقيته، وأمسك به «جابر» ورفعه عاليًا وألقاه في الدانوب، ثم لوَّح لي شاكرًا، فابتسمتُ وأنا أتابعه يلتقط هِرَاوته ويطوّح بها من جديد.. لكم أحببت ذلك العملاق الغاضب، صاحب المبادئ والصمود.

وقبل نهاية اليوم، كانت الحصون قد دُمرت، وأعمل العسكر في رقاب الفارّين السيوف والرماح وما تيسّر من بارود، وحاول «روغيندورف» الفرار بحياته، بعدما أُصيب باثنين من أسهمي، لكنّه لقِيَ مصرعه متأثرًا بجراحه وهو في الطريق، ولم يسلَم باقي قادة الجيش من نيل نفس المصير، ومنهم من غرق في أعماق النهر الكبير.

كنت في كل ذلك أخاف من الفتنة، هل أنا بطل مغوار، ساهمت في نصرٍ يكتبه التاريخ، أم أنني شريك في قتل من اختاروا الانسحاب، فمنعناهم عنه. حاولت الارتياح لما ردَّ عليَّ به «جابر»، إذ كان يرى أن هؤلاء الفجرة استحقوا القتل، بكل جرم أتوه ضد كل من استضعفوه من الخلائق، فالأمر ليس مجرد جيشين يتواجهان.. وحسدته على الارتكان الخالص لتلك القناعة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وَصَلَت أنباء هزيمة جيش «هابسبورغ» إلى مسامع السُّلطان، قبل أن يصل إلى مشارف «بودا»، يوم الاثنين، الخامس والعشرين من أغسطس، الثالث والعشرين من ربيع الثاني لسنة ثمان وأربعين وتسعمئة هجرية. ومع احتفالات المجريّين بالتحرير، انتقلتُ و«جابر» بأمر السُّلطان مع «علي آغا» رئيس رقباء الديوان السُّلطاني وبعض العسكر، حاملين الهدايا الثمينة إلى قصر «بودا»، وقدمناها إلى الملكة «إيزابيلّا ياغيلّون» أرملة الملك «زاپوليا»

وابنها الصغير «چون سيغسموند» ولي العهد، وكُلّفت بإبلاغها طلب السُّلطان مقابلتها في خيمته هي ورضيعها، فوجدتها قد توجّسَت خيفة من هذا اللقاء، وتردّدَت كثيرًا في اتخاذ قرارها. وبعد مشاورات جَرَت بينها وبين حاشيتها، أقنعها الأُسقُف أنّ عليها إطاعة أمر السُّلطان، وفي النهاية قرّرَت الذهاب في وفد مكوّن من ستة أشخاص..

دخلَت الملكة إلى الخيمة السُّلطانية في كامل أبهتها وأناقتها، تحمل رضيعها بنفسها، ومستشاروها وفي مقدمتهم الأُسقُف «مارتينوزي» يتأخرون عنها خطوة. غض كل من في الخيمة أبصارهم، عندما دنَت للتحيّة، محنيَّة كما لُقِّنَتْ، فبدا عنقها الطويل في بياض الشمع، صافيًا كمرآة، وأبعد السُّلطان ناظريه بمشقة عن كتفيها المكشوفين، يتدلى إليهما قرط اللؤلؤ، وتزينهما جديلتان بنيّتان مفتولتان بأنامل ماشطتها الحاذقة، ينسدلان حتى نهديها اللذين يكادا يتفجران داخل ثوبها الضيق، المحبوك بصدار سميك، مزين بالأحجار الكريمة، ومن تحته تنورة طويلة منتفخة مزركشة بالأصفر والأحمر، فتجلّت رشاقة قوامها وجمالها. لقد كانت فاتنة، لكن السُّلطان ظلّ موجّهًا نظره صوب رأسها، الذي بدا كبيرًا مرتفعًا بشعرها الطويل، حيث وضعَت الماشطة فيه ريشتين لطائر أبيض، ثبتتهما بماسكَين ذهبيَّين مرصَّعين، وأحكمَت ربطهما بأشرطة ملوّنة تحيط بعقد لؤلؤ، يحيط بالرأس لتثبيت كل هذا الهيلمان، ثم وضعَت غطاء رأس أزرق طويل شفاف. إنها زينة تليق بملكة أتت للقاء سُلطان لبَّى نداء استغاثتها، مُسَيِّرًا عسكره بالآلاف قاطعين مئات الأميال، ليحفظ لهذه الحسناء ذات الاثنين والعشرين ربيعًا عرشها، هذه الشابة التي تزوّجت لعامين فقط، بملكٍ يكبرها بأكثر من ثلاثين سنة، ومات عنها تاركًا لها ورضيعها إرثًا من الخلافات والنزاعات مع آل هابسبورغ لا حد له ولا حصر. بعد التحيّة، عادت للخلف خطوتين، وبدا وليّ العهد في مزاج غير مناسب للموقف؛ ولكنها ظلّت مطرقة، يتبدى حزنها جليًّا في عينيها الخضراوين بلون عشب تيميشقار.

وقف الأُسقف «مارتينوزي» خلفها، يرتدي كامل اللباس الكاثوليكي الذي يناسب مقامه؛ الكاسوك الأبيض الصوفي طويل الأكمام، أحمر الأزرار، مع الفيراليو القماشي الناصع الذي يصل طوله إلى الكاحل، وفوقهما الغريسا مراعاة لطقس هنغاريا. أحنى رأسه المغطّى بقبعة الزوتشيتو وفوقها البيريتّا الحمراوين، لتحية السُّلطان، ثم اعتدل ببطء يعدل من وضع الصليب الذهبي المرصع المتدلّي من سلسلة ذهبية على صدره، واسترق نظرة إلى السُّلطان، مدّعيًا ضبط كولارينو ياقته الكتابيّة الذي يطوّق عنقه.

خلفه وقف باقي الوفد، يرتدون اللباس الرسمي لمثل تلك المناسبات، تنوّعَت أشكال السترات المطرزة بالذهب، واختلفت ألوانها بين الأرجواني

والأحمر والأزرق، مزركشة بالأبيض منتفخة عند الأكتاف والأكمام، والسراويل الضيقة بالألوان نفسها، منتعلين أحذية جلدية مدببة الأطراف، وقِلّة ذات عنق طويل، وضعوا أيديهم أمامهم مسبلين، وأطرقَت القلانس الصوفية المسطحة المصبوغة بالأسود للتحية، ولما ارتفعَت يمين السُّلطان اعتدلوا منتصبين مرة أخرى وأنظارهم صوب الأرض.

راح وليّ العهد يصرخ وينهنه باكيًا عندما استقبله السُّلطان، وهو يحرّك يديه بعنف تجاه فمه، ليمصَّ إبهامه، فطلب السلطان من الملكة أن رفقًا بالوليد، ولتستدعي مرضعته، وأخذ يداعبه ويلاطفه بنفسه حتّى هدأ بين يديه، ووصَلَت المرضعة وأخذَته وذهبَت.

استمع السلطان للوفد المجريّ فيما حول قضية بلادهم، ثم أخبرهم بأنّ «بودا» صارت إيالة عثمانية. بعد ذلك، قدّم النشانجي المكلّف بشؤون الفرمانات «جلال زاده مصطفى چلبي» وثيقة حُكم المجَر إلى الملكة «إيزابيلّا»، في وجود مترجم كان بجوارها، وأبلغها بأنّ ابنها سيُنصّب على عرش المجَر عندما يكبر. كنتُ أقف إلى جوار السُّلطان للتأكّد من أنّ الترجمة تسير على خير ما يرام دون زيادة أو نقصان، وطوال المفاوضات لم ينزل السُّلطان عينيه عني، فكنتُ أومئ برأسي بعد كل مقولة تُرجمَت، مما جعل السُّلطان يبتسم بارتياحٍ لسير المفاوضات كما يريد. استطاع السُّلطان إقناع الملكة وسادَة المجَر بما يريد، وهو ما في صالحهم هم والأهالي على حد سواء، ثم أمرَ بإسكان الوفد المجريّ في خيمة أُعِدَّت خصيصًا لهم.

تحوَّلت «الأم مريم»، أكبر كنائس المدينة - بأمره- إلى مسجدٍ جامع، لقد ناقش هذا الأمر مع الملكة ووفدها، ليجد جنده - حماة مدينتها - مكانًا لائقًا للصلاة، ووافق الوفد طائعين. في الحقيقة، كنت مشفقًا على الأسقف، وأضع نفسي مكانه، كيف لأحدٍ أن يأخذ مكان عبادتي، ليجعله مكانًا لدين آخر؛ ولكن للسلاطين نظرةً مغايرة، وتأسيسًا لاعتبارات السيادة حيثما يحلّون.

عُيّن الوزير «سُليمان پاشا»، ذو الأصول المجريّة، واليًا على «بودا»، نظرًا لكفاءته وخبرته التي اكتسبها عندما كان واليًا على بغداد، ثم أمر بإرسال رسالة إلى الصدر الأعظم «خادم سُليمان پاشا»، فحواها أنّ جميع قلاع المجَر وملحقاتها صارَت خاضعة لسيطرة الدولة العثمانية، وتمّ تعيين القضاة والقادة العسكريين والمحافظين، ووَصَلَت القوّة العسكرية مكوّنة من ألفَي جندي من الإنكشارية، وألف فارس، وعشرة آلاف من الجنود المجريين، وثلاثمئة جندي آخرين، للدفاع عن الإيالة الجديدة، وهكذا تحولت كامل «بودا» إلى مدينة عثمانية، وصار اسمها «بودين»، وقُسّمَت إلى عدد من

السناچق، لتصبح أكبر قاعدة للدولة العثمانية في وسط أوروپا والمجَر، التي صارت ثلاثة أجزاء، «بودا» إحداها، والثاني الجزء الذي مُنح لمملكة «أَرْدَل» (ترانسلڤانيا)، حيث أرسل السُّلطان وليّ عهد المجَر الرضيع ووالدته إلى قلعة «ليپوڤا» لتولّي مهام حاكميّة المنطقة، وشكّل «مارتينوزي» هيكلًا إداريًا جديدًا، وأنشأ المحكمة في مدينة «غولافاهيرڤار» (ألبا يوليا)، بينما ظلّ الجزء الأخير الواقع في شمال وشمال غرب المجَر تحت سيطرة آل هابسبورغ النمساويين.

علمتُ من «صوفيا» أنّ «فرديناند» ظنّ الجيوش العثمانية ستُغير عليه، لأنّ «ڤيينا» عاصمته خالية من المدافعين عنها، ورعاياه هناك يشعرون بالخوف والهلع، فسارع بإرسال مبعوثين؛ «نيكولاس ڤان سالم»، والكهل الطاعن «سيغسموند ڤون هيربير سلين»، ليلتقيا بسفيرهم لدى السُّلطان، ويلتقوا جميعًا عددًا من الوزراء العثمانيين، للاطِّلاع على شروط السُّلطان، لعقد اتفاقية سلام مع آل هابسبورغ، بيد أنّ سفيرهم كان يتواجد في مقر قيادة الجيش العسكري، تركه السُّلطان في «بلغراد» وهو في طريقه نحو «بودا».

ترجمتُ العرض الذي أتيا به للسُّلطان:

«يطلب «فرديناند» التنازل عن جميع أراضي المجَر لصالحه، في مقابل سداد الخراج لخزينة الدولة العثمانية بقيمة مئة ألف فلورين، وفي حالة إعادة الأراضي التي استولى عليها النمساويون قبل عام عقب وفاة «زاپوليا» له، يتعهد بسداد أربعين ألفًا آخرين سنويًا».

لم يقبل السُّلطان العرض، وأمرني بإبلاغهما بأنّه لا يمكن بأي حال من الأحوال عقد اتفاق سلام مع «فرديناند» قبل إعادته كافة الأراضي التي استولى عليها مؤخرًا؛ «إسترغوم» و«تاتا» و«ڤيشيغراد» و«شتولڤايسينبرغ»، ويتعهّد بإرسال خراج عن المناطق التي يحكمها عامًا بعام إلى خزينة الدولة العثمانية، عندئذ يمكن عقد معاهدة السلام، وإن لم يفعل فلن يكون للسلام مكان.

غادرا عائدين من حيث أتيا حاملين الرد، وفيما علمتُ من «صوفيا» أنهما نجحا في استمالة بعض نبلاء «ترانسلڤانيا» إلى صفّ آل «هابسبورغ». وعلى رأسهم الڤويڤود «بالاسا»، الذي شرع في تحريض الأهالي ضد العثمانيين. وعندما أخبرتُ السُّلطان بهذا، بعث فرمانًا إليهم يحذّرهم فيه، ودعاهم إلى إظهار الولاء، وذكّرهم بتبعيّتهم إلى وليّ العهد «چون سيغسموند» ووالدته الملكة، تحت حمايته شخصيًا، وهدّدَهم عند انصياعهم لأفكار «فرديناند» فإنّهم سيُعرّضون أنفسهم لمخاطر لا قِبَلَ لهم بها،

وسيكون للعسكر الحق في تخريب بلادهم بدعم من قوات التتار، فاضطر الترانسلڤانيون للرضوخ للهيمنة العثمانية الكاملة في بلادهم.. مؤقتًا!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

انتقلتُ و«جابر» مع الغجر إلى مكان آخر عند الضفة، ترجَّلَت الجدّة على مهل، وهي في سنها هذا لابد لها من التمهل. سرتُ إلى جوارها، فتوكأت على ذراعي، ونظرَت إليَّ باسمة وقالت: - شكرًا لكَ، لم نكن لنخرج أحياءً من هناك لولاكما.

قبّلتُ رأسها، فاحتوتني بذراعيها، ثم تنهّدَت قائلة: - كُتب علينا الانتقال من مكان لآخر مجبرون، وما علينا إلّا الرضوخ لأمر الرب.

سألتُها:

- لماذا مجبرون؟

- عندما قتَل جدنا الأوّل «كين» أخاه، عاقبه الرب بأن جعله هائمًا في الأرض، هو وذريّته من بعده، نحن.

- جدكم؟!

- نعم، لقد جاء البشر من صُلب ثلاثة رجال.

- فعلًا؟

- نعم، أحدهم أسود وجاء من صُلبه السود، والآخر أبيض وجاء من صُلبه الإفرنك، والثالث جدّنا.

- الذي قتل أخاه؟

- أجل، يروي أسلافنا أنّ سبب شتاتنا والتنقّل من أرض لأخرى، أنّ أحدهم أفرط في شرب الخمر، حتّى غاب عقله، ولم يستطِع الدفاع عن «يسوع»، وقال آخرون إنه صنع المسامير التي دُقَّت في جسده لصلبه. لكنني لا أصدّق هذا كله.

- ولا أنا.

قلتُها بيقينٍ اتسعت له ابتسامتها، ولم تعلّق. لحظتئذ، عرفتُ سبب العداء بين الغجرِ والإفرنك، ومبرر عدم سماح الدول التي تؤويهم بامتلاكهم للأراضي، والباعث الحقيقي لاتهامهم بالسرقة وانعدام الأمانة، فأفعالهم سبب مباشر لمطاردة الكاثوليكية اليسوعية لهم واتهامهم بالشعوذة، وحبسهم، وتعذيبهم في الزنازين، وحرقهم في الميادين ليكونوا عبرة. لم يمنعهم ذلك من ممارسة تجارتهم المفضّلة، وتأقلمَت مهنهم مع طبيعة

حياتهم المتنقلة، يُرَبُّون الأحصنة والبغال والحيوانات الأخرى ويبيعونها، واشتهرَت أناملهم الماهرة بصياغة الذهب والفضَّة، وصناعة أجمل الأشكال من الحديد. لم أستطِع تحديد ماهية ملّتهم؛ إلّا أنّني استشعرتُ بها الكثير من المعتقدات الوثنية، ولكنني أنكرت أن يكونوا وثنيين.

خرجَت «ماريا» من العربة، فلحقَت بنا وعانقَت جدتها متعجبة. نظرَت إليَّ باسمة، فبادلتُها الابتسام وأكملنا المسير، وعندما وصل الركب الغجري إلى الضفة، نظرَت الجدة صوب الماء، اقتربت منه، أغمضَت عينيها، رفعَت يديها للسماء وراحت تتمتم بكلمات غريبة لم أفهمها، ثم قررت أنه المكان المناسب. سألتُ «ماريا»: - ماذا تفعل؟

- الأنهار كلها مأهولة بكائنات غير مرئية، كما في الغدران والغابات، وهي تطلب منها الأمان، وتأخذ منها العهد بألّا نتعرّض للأذى.

- وإن رفضوا؟

- ننتقل إلى مكان آخر.

عادت الجدة ونظرت إلى الجميع، وابتسمَت، فهمست ل «ماريا» ساخرًا: - أعتقد أنّ الصفقة تمّت على خير.

كتمت ضحكتها، وضربتني بقبضتها في ذراعي، فابتسمتُ وأكملتُ المسير إلى جوارها، حتى وصل «جابر» ممتطيًا جوادًا قويًا، والراعي يركض إلى جواره؛ كانا يراقبان مؤخرة الركب، فلما وقفنا، همَّا نحونا، ونظر إليَّ مقطبًا، وقال: - لا يوجد من يتبعنا، يبدو أنّ الأمور على خير ما يرام مؤقتًا.

- عال.

قلتُها مبتسمًا، وهي تمسك ذراعي بكلتي يديها بقوّة، فابتسم العملاق الذي قلّما يبتسم، ورفع حاجبه وانطلق بجواده يستكشف الطليعة، ليخبرنا بصلاحية المكان لضرب الخيام.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وصلَت رسالةٌ للسُّلطان تخبره بهزيمة الإمبراطور الهابسبورغي «شارلكان» في «الجزائر»، والذي لم يستطِع تحمّل الهزيمة السابقة، فقاد بنفسه أسطولًا قويًا، هاجم به سواحلها، لكن «حسن آغا» ابن «بربروس» بالتبنّي؛ مسئول الإيالة، دافع بقوّة وشجاعة عن محميّته، وأجبره على الانسحاب. سُرّ السُّلطان لذلك كثيرًا، وقرر مغادرة «بودا» عائدا لعاصمته، لكن جاءه السفير الفرنسي «بولين» ليبلغه بمقتل سفيرهم السابق «رينسون» في إيطاليا.

بعدما وُضعَت القوانين المنظمة لحياة المجريين وحقوقهم، وتحديد الأراضي التابعة للدولة من جهة، والتعريف بالأوجه الاقتصادية والقانونية من جهة أخرى، وتطبيق النظام الإداري العثماني، سعى «سُليمان پاشا» لرفع الظُّلم عنهم، بغضّ النظر عن توجّهاتهم، كما بذَلَ ما بوسعه كي يعيش من يخضعون لسُلطة هذه الإدارة في أمان وسلام تامّيْن، لا يتعرّض أيٌّ من سكّان وسط المجَر إلى إكراه أو ضغط. وفيما علمتُ من «صوفيا»، لم ييأس الأرشيدوق ومعاونوه، واستمرّ الضغط على الملكة، حتّى ديسمبر منه، فوقعَت مُجبرة على اتفاقيّة؛ تتنازل فيها عن «ترانسلڤانيا» لصالحه، دون علم السُّلطان!

وطوال عامٍ، لم يكفّ الأرشيدوق عن أفعاله، لكنه فشل في اقتناص «بودا»، فتقدّم العثمانيون مرة أخرى حتى «إسترغوم» وحاصروها لأسبوعين، ولم يجد «فرديناند» القوّات الكافية للدفاع عن أراضيه، وسيطر العسكر على المدينة، ونجحوا خلال شهر في الاستيلاء على «سيكشفهيرڤار»، «شيقلوش»، «سيغيد»، وما تيسّر من قلاع، لتأمين «بودا» بشكل أفضل، وبذلك أُجبر أخيرًا على التوقّف، خوفًا على عاصمته.

وبعدما نجحت الحملة، قرر السُّلطان أن حان أوان العودة إلى الآستانة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أتعبه التدوين، ورغم احتسائه الكثيرِ من فناجين القهوة تلك الليلة، سقط في النوم جالسًا إلى مكتبه، حتى دخلَت «مريم» تنبهه لصلاة الفجر كعادتها. استفاق بصعوبة، فمسحَت على رأسه وهي تبتسم في إشفاق، ثم ساعدته على النهوض، وصَبّت له الماء ليتوضأ، ووقفَت مكانها ممسكةً الدورق النحاسي، تتابعه وهو يخرج إلى الصلاة، متسائلة في نفسها إن كان ذلك التدوين يستحق فعلًا كل هذا الإرهاق.

عند الظهيرة، ذهب إلى دكانه، فلم يطِل كثيرًا، وأوصى الصبي به ثم توجَّه إلى «بلال» يسأله عن طبيب ماهر كي يأخذه إلى أخيه. اصطحبه صديقه إلى بيت الطبيب «داوود»، ثم توجهوا جميعًا إلى بيت أبيه، وبمجرد أن دخلوا الغرفة، شعر «عليّ»، بالذعر واختبأ خلف «كمانگير»، وهو يصرخ في هلع: - سو.. لاي.. مان..

اقترب منه الطبيب، وربت عليه محاولًا تهدئته وتفحصه، لكنه لم يسمح له وظل خائفًا، فهز الطبيب رأسه آسفًا وقال: - مع الأسف، من هم في مثل حاله لا أمل في علاجهم..

غيم الحزن على «كمانگير»، وضم أخاه إلى صدره، فهدأ قليلًا، فقال الطبيب: - أرى أنه هدأ بين يديكَ، إذا كان يستجيب لك، فأنتَ من يمكنكَ أن تعيده إلى الحياة مرة أخرى.

- كيف؟

- اخرج به إلى الشارع، اصطحبه في جولة، اجعله يرى الطرقات والناس، سيستجيب لرفقتكَ.

ثم أعطاه قنينة وقال:

- هذا الترياق يساعد على التهدئة.. اسقه القليل منه إذا انتابه الهلع..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

-١٩-

مجرستان، أواخر ٩٥٠

«ظمأ القلب لا يُروى بماء».

قبل حصار «إسترغوم» الذي لم نحضره، غادرتُ وصديقي «جابر» مَجَرستان إلى الآستانة للحاق بالحملة البحرية المنطلقة وقتئذ، مهمّة كانت ضرورية، وإلّا لما خرجتُ أبدًا، ولا تركتُ ضفاف الدانوب التي عندها تَرَكتُ قلبي. ولما عدنا من السواحل الجنوبية لفرنسا، وذلك في أواخر السنة الخمسين وتسعمئة هجرية، الثالثة والأربعين وخمسمئة وألف ميلادية، والحُزن يغمرني من منبت شعري إلى أخمصي، وفور اقترابنا من خيام الغَجَر، رأيت حصانًا يدلي رأسه لطفلة صغيرة لم تبلغ عامها الثاني بعد، تُقلِّده وتخرج لسانها إليه كما يفعل، وتطعمه جزرة، التقمها بلسانه ومضغها بصوت مسموع. توجهتُ إلى الصغيرة مبتسمًا، فأنا أخشى دائمًا على كل صغير، واحتضنتُها بتحنان وكأنّي أعرفها، حملتُها ورحتُ أضاحكها بحركات وجهي، وهي تضحك وتخمش وجهي وتشد أنفي، وجذبتني من لحيتي، فقطفَت شعريات منها، فابتسمتُ غير مكترث بما أخذَت، وسألتُها: - أين أمكِ يا صغيرتي؟

جاء الصوت من خلفي مباشرة: - هنا..

التفتُ مقطّبًا، لأجد «ماريا» تقف واضعة يديها إلى خصرها. حدّقتُ فيها، ورفعتُ حاجبي مستنكرًا قائلًا: - عال!

اندفَعَت تعانقني بحرارة وهي تقول: - اشتقتُ إليكَ كثيرًا، ولم أتوقّع عودتكَ مَرّة أخرى.

قلتُ والصغيرة على يدي، وأُمّها تحتضننا معًا: - معلوم.. اشتقتِ إليّ لدرجة أنّكِ خلال غيابي لعامين تزوجتِ وأنجبتِ طفلة؟! لقد اقتنعتُ تمامًا..

وصل «جابر»، فتراجعَت «ماريا» قليلًا، وأخذت مني الصغيرة، التي ربتت على ظهرها بلطف، فتعالت ضحاكتها حتى اهتز كل جسدها، وشاركتها ابنتها ذلك. شردتُ أسترجع لقاءنا الأول، لم أسألها من قبل إن كانت متزوجة أم لا، ولم أتأمّل قولها حين قالت «نتزوّج في سنٍ صغيرة»، ولكنّني أبعدتُ عن رأسي فكرة أن يكون المهرج ذو الملابس المبهرجة هو زوجها ووالد هذه الصغيرة، لن أحتمل ذلك حقًا، سألتُها: - ما اسمها؟

ابتسمَت قائلة:

- «ماري».

ابتلعتُ رضابي بصعوبة، ارتجف شقّي الأيسر. حاولتُ تمالك نفسي، افترشتُ الأرض وجلستُ أبحث عن أنفاسي، وخفقات قلبي تتعالى، يكاد الكون بأكمله يسمعها، ولم أعد أسمع أحد ممن يسألونني: أأنتَ بخير؟

أظلم الكون من حولي، وغصتُ في أعماق نفسي، أستدعي جُرحًا لا يزال حيًّا، لم يندمل بعد..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

مارسيليا، ربيع ٩٥٠ م

«من لا يحب ليس بإنسان».

عَبَرَت بي ذاكرتي إلى الماضي القريب، تاسع ربيع الثاني، الحادي والعشرين من يوليو، هناك قرب ميناء «مارسيليا»، جذَبَتني ضحكاتها الرنّانة وشعرها الأحمر المهوّش يزين ظهرها المفرود، وأحد الجنود الفرنسيين يقبض على خصرها بيده، وتتعالى ضحكاتها أكثر عندما يضربها على عجيزتها بكفه، حاملًا في يده الأخرى زجاجة «رُم» يتجرع منها، وكلما طبع قبلة على خدها، تعاود الضحك. كنتُ في طليعة العقد الثالث، منطلق مفعم بالحماسة، أتوق إلى المغامرة وأبحث عنها أينما كنتُ، ظَلّلتُ أحدق بها وهي تنطلق متحمّسة مع المترنّح السكير، وتركتُ «جابر» مندفعًا خلف فضولي أتبعهما، حتى اختفيا داخل بيت عتيق من طابقين، وانتظرت أراقب بابه غير مكترث بالوقت ولا بأفراح النصر الذي أحرزناه قبل أيام، قادمين من «تولون» إلى هنا، حيث تم استقبال «بَرْبَروس» وتشريفه، الذي يرى التحالف بين العثمانيين والفرنسيين تأكيدًا لقول حضرة «عَلِيّ ابن أبي طالب»: «أَعْدَاؤُكَ ثَلاَثَةٌ: عَدُوُّكَ، وَعَدُوُّ صَدِيقِكَ، وَصَدِيقُ عَدُوِّكَ، وأَصْدِقَاؤُكَ ثَلاَثَةٌ: صَدِيقُكَ، وَصَدِيقُ صَدِيقِكَ، وَعَدُوُّ عَدُوِّكَ». أعلم أنّ حاكم مارسيليا والقبودان، يعيدان ترتيب الأمور، ولن يحتاجاني للترجمة.

خلخلت كياني البكر بضحكاتها الرقيعة، وأصابت قلبي الضعيف بسهمها الساحر، وصرت أتخيل في نفسي كيف سأتحدث إليها وبأية مناسبة حال خروجها، الذي لم يتأخر كثيرًا، إذ فُتح الباب، ودُفعَت للخارج لتسقط أرضًا، فشعرتُ بقلبي يسقط معها، وهرعتُ إليها. أمسكتُ بذراعها أساعدها على النهوض، أشيح بوجهي بعيدًا عن رائحة الخمر التي تفوح منها، وهي على حالها تضحك بالرقاعة نفسها وتتعجّب من أمري، بينما تحاول جاهدة تحديد ملامحي المتأرجحة أمامها، غير قادرة على الرؤية من فرط ثمالتها، ورأسها يتمايل فوق عنقها الطويل، ولم يعد في مقدوري تحديد ما عليَّ فعله في هذا الموقف الذي لم أتعرّض له من قبل. اصطحبتُها، لا أدري إلى أين أذهب بها، أخجل من نظرات المارين. توقفَت فجأة، فسألتُها: - ماذا بكِ؟

فقالت وهي تكتم ضحكاتها:

- أريد أن أبول، هلا ساعدتني؟

تلعثمتُ متسائلًا:

- وكيف أساعدكِ في ذلك؟!

أغمضَت عينيها ورأسها لا يزال يهتز، وإصبعها يشير إلى ما ورائها: - ساعدني على رفع تنورتي، فقد نسيتُ يديّ هناك.

انتحيتُ بها جانبًا وساعدتُها على رفع تنورتها، فقرفصَت وهي تمسك بيدي، ولما هممتُ بالذهاب جذبتني إليها وقالت: - إلى أين تذهب؟

- أتركِكِ لتقضي حاجتكِ.

ضحكَت وهي تقول:

- لن تبرح حتى أنتهي.

شعرتُ بوجهي يتأجج بالحمرة، وهي متشبثة بيدي، حتى نهضَت بعدما فرغَت، ولم تنزل تنورتها بعد. غضضتُ بصري، لتنطلق منها ذات الضحكة، وتشبثَت بذراعي أكثر، وأنا أمعن النظر في حمرة شعرها. لم تستعِد وعيها بعد، إلّا إنها استطاعت توجيهي إلى حيث تقطن، وأنا أكاد أحملها لفرط ترنحها، وفور دخولها غرفتها، تركَت يدي وألقت بنفسها على فراشها وراحت في سبات عميق. ظللتُ طيلة الليل جالسًا على مقعدٍ متهالك لا ظهر له، أتطلع إلى وجهها الأبيض وخدها المتورّد متسائلًا في نفسي: «كيف لهذا الجمال بكل هذه الإهانة؟!»

عند الشقشقة، غفلتُ رغمًا عني، حتى شعرتُ بنفسي أهتزّ، وإذ بحدقتين خضراوين تحدقان بي. انتفضتُ واقفًا على سؤالها: - من أنتَ، وماذا تفعل هنا؟

قصصتُ عليها ما حدث، فما كان منها إلّا أن راحت تضحك ضحكاتها المعهودة، وسألتني: - كم ستدفع لقاء مضاجعتي؟

قطّبتُ قائلًا:

- لم أفكّر بكِ على هذا النحو، ولم أفعل هذا في حياتي من قبل قط.

ابتسمَت، وراحت تبحث عن شيء لم تجده، قالت: - انتظرني، سأذهب لإحضار طعام.

هممتُ قائلًا:

- لا عليكِ، سأذهب أنا وأعود على الفور.

اتسعَت ابتسامتها حتى كدتُ أهوي على ركبتي من فرط ما ألمّ بقلبي من سحر، لكنني تمالكتُ نفسي مستفيقًا، وقبل خروجي التقطتُ جعبتي ونظرتُ إليها مبتسمًا وقلتُ: - الورود النضرة دومًا تستيقظ على قطرات الندى.

خرجتُ وهي ترمقني بإعجاب، وقد فهمت مقصدي. لم أتأخر كثيرًا، وفور عودتي توقفتُ أستنشق رائحة العطر التي تفوح من ملابسها الجديدة وشعرها المبتل من أثر الاستحمام. أفرغتُ ما بجعبتي من خبز وعسل وتفاح، ووضعتُ قارورة حليب على الطاولة الخشبية المتآكلة. تعجّبَت من عودتي ومعاملتي الحسنة لها، قضمَت من تفاحة وقالت وهي تنطق الراء غينًا: - أنا «ماري»، وأنتَ؟

- «سليمان».

ابتسمَت وهي تواصل المضغ قائلة: - قسماتكَ الجميلة ليست فرنكية، وكذلك اسمكَ، ماذا تفعل هنا؟

حكيتُ لها ما حدث منذ غادرتُ الآستانة مع «بربروس» والسفير الفرنسي، حتى فتح مارسيليا، وبقاءنا إلى يومنا هذا، حتى يأمرنا الپاشا بالرحيل عائدين إلى العاصمة مرة أخرى. رغم إنها لم تهتم بالتفاصيل التي أحكيها لكنها ظلّت تستمع إليَّ مجاملة، وبدت نظرات إعجابها بي تلوح في الأفق، وأنا أقصّ عليها أشياء كثيرة مررتُ بها، وهي باسمة تارة وضاحكة تارة أخرى، حتى جنّ الليل علينا، ونسيتُ نفسي ومهمتي ورفيقي، وما بين تناول الخبز وتبادل البسمات وبملء إرادتها رضخَت لأمري ولم تعاقر الرُم واستبدلته بقدح من الحليب، استجابَت لطلبي وتجرعَته حتى آخر قطرة كطفلة، بدت ذات شارب أبيض، وبلطفٍ مسحتُه عن فمها.

ضحكَت، فضحكتُ.. دست إصبعها في العسل، وأشارت به نحوي، فمددتُ عنقي إليها، وببطء مسحت على شفتي، فالتهمتُ إصبعها المعسول، فسحبته برفق من فمي وابتسامتها تتسع.. تركتني أبتلع رضابي بصعوبة، ووجهي يتأجّج من جديد. حدقتُ في الأرضية محاولًا لملمة بقايا عقلي المأخوذ، متسمِّرًا عند سؤالها: - كم تطلب لقاء موافقتكَ على مضاجعتي إياك؟

لم أقدر على جوابها وظللتُ واجمًا، قالت: - سأعطيكَ ما تريد، أيًّا كان.

قلتُ بخجلٍ:

- لا أريد منكِ شيئًا إلّا قلبكِ.

وللمرة الأولى لم تضحك، ولم تبتسم، وظلّت صامتة واجمة، لحظات وقالت: - قلبي!

أومأتُ أن نعم، فقالت:

- لم يطمع أحد من قبل في قلبي، كل الطامعين يريدون جسدي وحسب، لم يذهب رجل من قبل لإحضار الطعام من أجلي، من أين أتيتَ؟

ابتسمتُ قائلًا:

- من البحر.

عانقتني بحرارة، واتكأت برأسها على كتفي. ترددتُ في ضمّها، لكن ما لبثت أن قرّبتُها إليَّ أكثر، وأخذتُ أمسح على شعرها بتحنان، فيما هرولَ دمعي ليطفئ نيران وجنتي، وهي مغمضة العينين، تشهق وتزفر، قلبها ينبض بسرعة.

- سليمان..

- ماري!

- دعني هكذا قليلًا.

- بل أدعكِ كثيرًا.

- إلى متى؟

- قدر ما تشائين، وتشبعين.

رفعَت رأسها إليَّ وحدّقت في عيني، وذبتُ في اللون الأخضر بعينيها حين قالت بإصرار: - أريدكَ الآن.

مأخوذًا قلتُ:

- أنا بين يديكِ

- أنا التي بين يديكَ.

أبعدتني عنها برفق، وشرعَت تنزع ثيابها، تعرّت أمامي كما ولدتها أمها، وقذفتني بنظرة أودعَت بها كل ما تملكه من فتنة، واقتربت هامسةً: - لا عليكَ، سأساعدكَ على نزع ثيابكَ، لكم يسعدني أن أكون الأولى التي تفعل ذلك معكَ.

خجلت من التعرّي أمامها، فوضعتُ يدي أداري عورتَي، لكن عيني التصقت بنهديها البارزين، وأدهشني سؤالها: - أأنتَ يتيم الأم؟

ابتلعتُ رضابي قائلًا:

- لماذا تقولين ذلك؟

صمتت قليلًا وقالت:

- معظم الذين نظروا إلى نهديّ طويلًا قالوا إنهم يَتَامى، أكم من أدمع سالت على هذين النهدين اللذين يعجبانك.

اقتربَت مني جدًا، وضمّتني إليها بقوّة، واضعَة رأسي على صدرها. قالت: - لا مانع عندي في أن تغرقهما بدمعكَ، فأنتَ أولى من جميعهم، ابكِ، لا تخجل من البكاء، اغسل روحكَ على صدري، انسَ نفسكَ بين يديّ.

بكيتُ بين يديها، لم أستحِ، ولم تتأفّف، راحت تمسح على رأسي، وتربت على ظهري، حتى فرغتُ من بكائي بعد حين، فداعب وجهي نعومة جسدها ودفئه، وشعرتُ بحرارة تجتاحني، ذكورة نافرة تخالجني، كبركان يوشك على الانفجار، ولمساتها الخبيرة زادت رغبتي وطأةً، وكأن روح «جالاتيا» حضرت مهيمنة على الجسد الصخري، لتمنحه كل مقوّمات الحياة. وضعَت وجهي بين نهديها وهي تضمّني أكثر وأكثر، حتى أعتقدتُ أننا صرنا واحدًا، ورأيتُها نعيمًا ينادي الساجدين في ولهٍ، وأيّ نعيم!

قالت إنني محوتُ بوجودي مِن حياتها خُطى كل المارقين العابرين في عجل ووجل، بملءِ إرادتها تسلّمني نفسها دون مقابل.. ابتعدَت عني ببطء، وأنا أتعرّق محاولًا مقاومة الذكورة المتمدّدة المتصلّبة، فهرعتُ إليها، تلقّفتُها، رفعتُها بيدي، أحاطت عنقي بذراعيها، كبّلت خصري برجليها، أجبرتني على فرك وجهي بين نهديها، انهالت عليَّ بوابل من القُبلات لا قِبَل لي بها، ثم انتزعت نفسها من بين يدي، وقفزت إلى الأرض برشاقة، وأعطتني ظهرها البلوري الذي جذبتني لمعته، والكمثري من خصرها النحيل إلى عجيزتها المستديرة، فاكهةٌ شهية تعد بترطيب نفسٍ جفت من طول الحرمان. وقبل أن أمد يدي لملامستها، قفزَت برشاقة إلَى الفراش، ومدَّت ذراعيها إليَّ، فانطلقتُ إليها مأخوذًا، سألتُها لاهثًا: - أأنتِ جِنِّيّة؟

أجابت، وعلى وجهها تعلو بسمة من نجحَت في إخضاع غريمها: - بل عاهرة..

هَممتُ بها متعرّقًا، وهي تلفح جسدي بنيران لمساتها الخبيرة، لكن رنت كلماتها في رأسي «بل عاهرة»، فوخزتني كرأس سهمٍ أجاد صانعه شحذه، ليخترق ضميري ولينزف الألم نزفًا. بصعوبة امتنعت، مستعيذًا مستغفرًا، فتعجبّت مني وتساءلَت: - لا تريدني!

قلتُ بنبرة مبحوحة تقاوم:

- أريدكِ ولا أُريدكِ.

قطّبَت قائلة:

- أهذه أحجية؟

- أجل. ولو نجحتِ في حلّها سأكون لكِ.

أخذَت تتفكّر وتزداد تقطيبًا، ثم ضربتني على صدري في عصبية، ولملمت فخذيها، وقالت: - هيا انطق.

- أريدكِ، ولكن على ملّتي، نتزوج.

- وكيف تتزوّجون على ملّتكم؟

- نقول: اتقبلين الزواج بي، فتقولين زوجتكَ نفسي.

لم تتردّد وقالت فورًا:

- زوجتكَ نفسي، وماذا بعد؟

- تعيدين عليّ نفس السؤال.

- أتقبل بالزواج بي؟

- زوجتكِ نفسي.

ابتلعَت رضابها، وحرّكت لسانها ببطء على شفتها السُفلى قائلة: - أهكذا تزوّجنا؟

أومأتُ موافقًا وقلتُ:

- مؤقتًا، لحين إحضار شاهدين.

قالت وهي تعض على شفتها:

- فليذهب شاهدَاكَ إلى الجحيم الآن.

جذبَتني إليها من رأسي، دفعتني، فسقطتُ على ظهري، وانقضَّت عليَّ كلبؤة هائجة، أغاظها ركود همتي لكنها لم تستسلم، حتى خضت للمرة الأولى رحلة عجيبة، يقودها عضوٌ، ويتبعه في حماس جسدٌ بكامل عنفوانه، وتحلِّق معه النفس إلى حيث لم تذهب من قبل. صار النزال عاتيًا، تصرخ وأصرخ، ونلتحم في قوةٍ لم أُمتحن في معركتها من قبل، حتى تفزّزنا ووصلت قمة الانتشاء، ثم خارت قوانا وانطفأ هياجنا، فسكنت فوقها ألهث. ضمّتني بقوّة، حتى سمعت قرقعة، ثم نهضَت، وألقتني بنظرة رضا، فما ملكت إلا أن ابتسم لها، ثم أجذب ملاءة سريرها، أستر جسدي. صبّت قدحًا من الحليب وناولتني إياه، وكنت عطشانًا أتفصد عرقًا، فشربتُه حتى آخر قطرة. ضيّقت عينيها وقالت: - لا تكتم شيئًا، قل ما تود قوله ويمنعكَ التردّد.

لم أتردد وقلتُ:

- بقدر ما أنتِ مريبة مريحة.

أطلقَت ضحكتها المعهودة، وأخذتني إلى الطست، وصبّت عليَّ الماء، ثم ناولتني ثيابي وساعدتني على ارتدائها، واتفقت معي على العودة مرة أخرى مساء الغد. وعدتُها بأن آتيها بالمزيد من المؤن وكل ما تحتاج، كي لا تخرج، وأخذتُ منها عهدًا ألا تقرع الرُم حتى أعود. ودّعتني بعناق أحر ما يكون، تشبّثتُ بها كطفل، لم تملّ ضمّي تهدهدني، حتى ألفتُ الاحتواء الذي وهبتني إياه، كأنني عشته ألف عام في تلك الساعات القليلة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

استقبلني «جابر» مغاضبًا، وبّخني لأنه ظلّ يبحث عني طيلة يومين بليلة، وما بين وابل الأسئلة «أين كنتَ؟»، «ماذا كنتَ تفعل؟»، «مع من؟»، «أذهبتَ لبيت بغاء؟»، وغيرها الكثير، وقفتُ أمامه في حالة من الهيام وابتسامتي لا تفارق وجهي، وكأنّي لا أسمع شيئًا مما قال، فأخذ يضرب كفًا بكف، وهو يستغفر ويحوقل، ثم تركني على حالي وخرج.

بعد قليل، انتفضتُ فاتحًا جعبتي، وأخرجتُ منها ملفوفة وصندوقًا خشبيًا صغيرًا، أخذتُ منه المحبرة ودسستُ بها الريشة، وشرعتُ في التدوين؛ لكن دخل عليَّ «جابر» وباغتني بالسؤال: - أي شيء ستكتب يداك؟

لم أجبه، كان عليَّ إنهاء ما أفعله أولًا. عاود السؤال مرارًا وتكرارًا، فقصصتُ عليه ما حدث باختصار، فصار يضرب كفًا بكفٍ، ثم نزع مني الملفوفة وألقاها جانبًا وهو يقول: - لأجل جسد إفرنجي؟! تبتهل وتترنّم وتتغنّى بجمال جسدها الفانِي؛ ألا تخجل من نفسكَ؟! ليس هذا من شيَمنا يا صاحبي، أم أنّ بضعة أيام جعلتكَ تتأثّر بأخلاق الإفرنج؟!

استعدتُ ملفوفتي مبتسمًا رغم ثورة صديقي، الذي قال: - ألا تستفيق...

- أُحبها.

اقترب مني وربت على كتفي وقال: - الحب بتلك السرعة ضعفٌ يا صديقي، لا تحب غانية.

قلتُ بإصرار:

- أُحبها.

زفر «جابر» قائلًا:

- كيف أوقعتك في شِراكها بهذه السهولة؟ لقد جُننتَ!

- زُيّن للناس حب الشهوات من النساء..

- وإن تصبروا خير لكم.

- وكيف أصبر وبي ما بي من حبها؟

- هذا ليس حبًا، هذه شهوة، إثم، ومن يكسب إثمًا فإنّما يكسبه على نفسه.

- لك أن تعتبرها جاريتي يا «جابر»، ليس فيما ملكت اليمين إثم.

أكمل ثائرًا ينصحني، ويقنعني بأنّ فتاة على ملّتي خيرٌ من غانيتي الإفرنجية، وإن أعجبتني؛ حتى ملّ نصحي، فألقيتُ بظهري على الفراش، محدِّقًا في طيفها، وقد سددت أذني عما يلقي من حديث.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الليلة التالية

ذهبتُ إليها، عاودنا الكرّة مرارًا، حتى استلقينا منهكين، رأسها على صدري، تداعب شعراته بأصابعها على مهل، وديعة على غير طبيعتها، نعسنا على وضعنا هذا حتى طلع الصبح علينا، فاستقبلناه بتنهيداتنا الراضية، وشعاع ذهبي يتسلل من النافذة، وينعكس على وجهها وابتسامتها الرائقة، أجبرني على تقبيلها، فتعلّقت بعنقي، ورفعتها عن الفراش، فطفت بها في الغرفة، ثم أنزلتها على الكرسي المتهالك خلف مائدتها الصغيرة، فأجلستني على فخذها، وأخذت تطعمني بيدها وتضحك في صفاء، حتى شبعنا، وقمت من فوقها، وجلست على وسادة في الأرض، وأسندت ظهري للحائط، أستمع إلى حديثها عن نشأتها في منزل بغاء، أمها وكل أخواتها وقريباتها وجيرانها كُنَّ جميعًا يعملن به، وقد اعتدن أن يكنَّ بلا رجل أو سند، ثم سافرَت إلى «براغ» ببوهيميا، رشحها أحد الزبائن الذين أُعجبوا بها للعمل هناك، فعملَت بمنزل يقوم بتوفير المرافقة مع فتيات سيئات السمعة. ظلت تعمل بالمكان، فتستلقي داخل إحدى البكيات الخشبية المنتشرة بالباحة الكبيرة، نصفها السُفلي بالخارج، يغلق على خصرها ثقبٌ بالحائط، وتفتح رجليها عن آخرهما، فينجذب الزائر ويدفع مسبقًا، ثم يمر إلى الباحة ليختار من شاء من الفتيات المنفرجات، وينزل سرواله ويقوم بما يريد، حتى ينتهي ويذهب دون أن يرى وجهها، وتظل هكذا لساعات، الزائر تلو الزائر. يا لحقارة الأمر، كم هو مقزز ورخيص، أهذا أضحى حال المدينة التي اختارها «تشارلز الرابع» عاصمة للدولة الرومانية المقدسة ذات يوم؟! ولمَ العجب، فقد وقع التاج البوهيمي تحت سيطرة «آل هابسبورغ» قبل عقود.

لم أتوقع رؤية دموعها، قمت إليها، عانقتُها مطيبًا خاطرها، وما بين حيرتها أتتبسَّم أم تبكي، عانقتني وطبعَت على جبيني قبلة طويلة، ثم نهضَت، لترتدي ملابس الخروج. سألتُها: - إلى أين تذهبين؟

أجابتني متعجلة:

- سأعود إلى البيت، لا يعلم أحد شيئًا عن مسكني هذا، فقد اتخذتُه دون علمهم، عليّ أن أعطي أختي الكُبرى «أوستينا» أية نقود، حتى تعلم أنني لم أنقطع عن العمل.

أخرجتُ من جعبتي نقودًا، فردَّتها إليَّ مبتسمة وقالت: - سنلتقي هنا غدًا في نفس الموعد.

لم أغادر المكان حتى عادت، تعانقنا طويلًا ودموعها تملأ مقلتيها، وقررت الفرار معي إلى حيث أذهب، لتقضي معي ما تبقّى من عمرها، تستظلّ

بزوجها وتنجب لي عشرة أبناء ما بين ذكور وإناث، تهتمّ بهم، وتحسن تربيتهم على ملّتي، راجية الرب أن تشيخ وتموت على وسادتي. نسجتُ معها خيوط أحلامي، بأن أجعل منها سيدة بيتي وقلبي وزوجي المصون.

حلمنا، وانتوينا، وعقدنا العزم، وبعد أسبوعين، قرر «بربروس» التحرك بالأسطول لمغادرة مارسيليا، فبكت فرحةً. وقبل الليلة الموعودة بليلة، ذهبت لأجد الكدمات تشوّه وجهها وتحيط بعينها!

- أختي الكُبرى ضربتني، أرادت مني مضاجعة جندي، دفع بسخاء وطلبني منها، ولما رفضتُ، نلتُ جزائي.

ضممتُها إليَّ بقوة، وقلت حانقًا:

- خذيني إليها، فأهدم البيت فوق رؤوس من به.

انتفضَت قائلة:

- لا، ليس عليكَ فعل ذلك، سأعود الليلة لآخذ كل أغراضي وأودّع أختي الصغرى «إيزمي» ثم أنتظركَ هنا ونرحل.

- ليس عليكِ العودة إلى هناك مرة أخرى، سأبتاع لكِ كل جديد.

- أرجوكَ يا حبيبي، عليّ العودة وإلقاء نظرة على «إيزمي» وإعطاؤها بعض النقود.

- لكِ ما تريدين. لكن أرجوكِ، لا تجعليني أغرق في قلقي عليكِ ولا تتأخري.

جذبتُها وضممتُها إلى صدري بقوّة، وطبعتُ على جبينها قُبلة طويلة، فقبّلَت يدي، ثم خرجَت وخرجتُ خلفها، كلٌ منا في اتجاه، وتابعتها حتى منحنى الطريق حيث اختفت عن ناظري.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ليلة الإبحار

في ليلة الرابع والعشرين من ربيع الثاني الموافق الخامس من أغسطس، أخذتُ أقاوم تشاؤمي من صراخ طيرٍ ملأ الليل الحالك من فوقي، وأنا أنتظرها خارج البيت. اعتدنا أنها تعرف موعدي، فتفتح الباب وتشير إليَّ بالدخول، بعد أن تتأكد ألّا أحدًا يراقبها، ولكنها لم تظهر. استبد بي القلق، ففتحت الباب ودخلت أتلفّت هنا وهناك.. ومن هول ما رأيتُ، صرت ألطم خدي وأنوح، وأنا أنظر إلى الفراش الدامي، وهي مكبَّلةٌ من قدميها ورجليها، ورمحٌ يخترق قُبُلها ويخرج رأسه المدبب من فِيها الفاغر!. ما قام بهذا الفعل إلا فاجرٌ شيطان.

عدتُ إلى صديقي مرتجفًا، سقطتُ على ركبتي، فهرع إليَّ «جابر» يصيح متسائلًا عمَّا بي، فلم أستطِع الإجابة. لم أعتبرها يومًا عاهرة إفرنجية تروي شبقي، لقد شاركتني أسرارها كما شاركتني الفِراش، بنيتُ معها ولأجلها أحلامًا كالأطواد، وتهدَّم كل ذلك. لن أعرف الفاعل حتى أقتص لقلبي الممزق منه، وترتاح روح حبيبتي في عالمها الجديد، ولن أصل إليه أبدًا، فإمّا أن أغادر مع الأسطول، أو أبقى للبحث عن إبرة في جبل من القَشّ، فأنا لا أعرف مكان أهلها الفجرة، وقد فاتني أن أتبعها يوم تركتني إليهم.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

غادرت السفن العثمانية ميناء مارسيليا، وأنا على سطح إحداها، أنظر صوب الأرض دامعًا. وضع صديقي يده على كتفي وقال: - أَحبَّ حضرة «يعقوب» عليه السلام ابنه «يوسف» كثيرًا، فأبعده الله عنه لحكمة لا يعلمها إلّا هو.. وأبعدها الله عنكَ، لحكمة ستعلمها عاجلًا أو آجلًا.

تركت دمعي يسيل، مودعًا تلك الأرض وذكرى عشقي البكر، وقد علمت الآن أنّ الورود لا تستيقظ دومًا على قطرات الندى، لكنها تتفتّح توطئة لذبولٍ خريفيّ، وأنّ صراخ الطير ما كان إلّا رسالةً تحمل نبأ الرحيل. لكن نواميس الكون كتبت علينا أن نستمر - مهما جرى - على الدرب المرسوم.

كان الأسطولان العُثمانيّ والفرنسيّ يبحران جنبًا إلى جنب من الميناء في الطريق إلى «نيس»، ولم يكن تحالف الجهة المقابلة هيّنًا، فقد عزم «شارلكان» وحليفه «هنري» ملك إنجلترا على تدمير التحالف الفرنسي العثمانيّ، وأتوا إلى «نيس» بالمدد لحليفهم «تشارلز» دوق ساڤوي، وهذه المرة أبحر «كونت انجيان» إلى جوار «بَرْبَروس» من ميناء مارسيليا، والعزم منعقد على أخذ «نيس» بأي شكل، لمحو عار فشله الأول في

الاستيلاء عليها منفردًا، يحفِّزه غضب «فرانسوا» ملك فرنسا بسبب زواج «تشارلز» من ابنة ملك البرتغال، لأنّه بذلك صارَ حليفًا لأعدائه.

نزلَت القوات العثمانية في «ڤيلفرانش»، بعيدًا عن «نيس» بستة كيلومتر شرقًا، واستحوَذَت عليها تمامًا، وفي اليوم التالي انطلقت خمسون سفينة فرنسية إلى جوار مئة وعشر سفينة عثمانية نحو «نيس»، فواجهوا مقاومة شديدة حتى الخامس من جمادى الأولى، الخامس عشر من أغسطس، الذي بدأت فيه عزيمة قوات المدينة تتداعى، حتى استسلمَت نهائيًا في اليوم الثاني عشر منه، الثاني والعشرين من أغسطس، وعلى الفور توجهَت السفن صوب القلعة شارعةً في قصفها.

رأيت «بربروس» يأمر أحد مساعديه بطلب المزيد من البارود الموجود على متن السفن الفرنسية، فيرُدُّ بأن لا وجود للبارود لديهم. تعجب «بربروس»، وذهب بنفسه إلى إحدى سفنهم، وأنا و«جابر» خلفه، فتح أحد البراميل الخشبية فوجد نبيذًا بدلًا من البارود، فتفحَّصنا البرميل تلو الآخر، فلم نجد إلّا النبيذ، فاستشاط القبودان غيظًا، وعاد إلى سفينته تشاركه الطبيعة غضبه، إذ اندلَعَت عاصفة شديدة، دمّرَت أربع سفن قوادس عثمانية، ولكن لم يمنعنا ذلك من مواصلة حصار القلعة، وإن لم نستطِع ضرب القلعة الحصينة، ولا دخول «قصر سيمييه».

وفي الليلة الأخيرة؛ دمّرت القذائف أسوار المدينة، وأحرقَت الكثير من نواحيها، ثم وصلَتنا أخبار وصول جيش الإغاثة الهابسبورغي إلى «ڤيلفرانش»، بعدما نقلته سفن «أندريا دوريا»، ونجحوا في الوصول إلى القلعة لدعم الدوق، الذي جمع جيشًا في «بيدمونت» لتحرير المدينة، فأمَرَ «بربروس» بوقف الهجوم ورفع الحصار، والعودة إلى القسطنطينية بآلاف الأسرى بحوزته، بعدما قضى الأسطول ستة أشهر في السواحل الجنوبية من فرنسا.

أثناء حصارنا «نيس»، لم تغب «ماري» عن بالي، لم تُنسيَني إياها الدانات المنطلقة، ولا روائح البارود التي عبّأت الجو، ولا الصرخات التي دوَّت ليل نهار، لقد استوطنَت روحي وشتَّتت فكري، فصرت أرى مأساتها في كل زاوية، وكرهت الحرب أكثر، وأشفقت على الأسرى، وخاصة السبايا، اللاتي تخيلت مصائرهن تشبه حال «ماري»، جوارٍ تتعرين بالأمر، وتضاجعن بالأمر، وليس لهن من أمر أجسادهن شيئًا. كان «جابر» يستمع إلى أفكاري في اندهاش، ولكنه يكبح غضبه رأفةً بحالي، ويخبرني دائما قوله: لا تبالغ في الحُب حتى لا تيأس، ولا في الحزن حتى لا تنكسر، ولا تنظر للأمور بعاطفتك، فتفقد الحكمة التي لن نملك زمام الحياة بدونها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ترقرقت الدموع في عينيه، وقد تجددت الذكرى فملأت صدره حزنًا. عاود التدوين على الضوء الباهت المنبعث من القنديل..

«.. متأثرة بما حدث ومتضامنة مع أحزاني، وافقَت «ماريا» على تغيير اسم ابنتها من «ماري» إلى ما اقترحتُ: «مَرْيَم»، ولما سألتني عن معناه، أجبتُها أنه هو نفس المعنى، ولكن بلغتنا. بعد ذلك أصَرَّت أن أعلّمها العربية والتركية، وكانت جيّدة في ذلك».

لم يستطع أن يكمِل، فوضع القلم في المحبرة، وراجع سريعًا ما دوَّنه، ثم أطفأ القنديل، وخرج من غرفته، وذهب لاجئا لدفء من صارت له السلوى والعوض الجميل.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

عاد إلى بيته عصر اليوم التالي، فوجد مريمته قد أعدت له صحنًا مغمورًا باللون الأحمر، استنشق مُمعنًا، فأحب الرائحة التي تفوح منه. افترشا الأرض، وألقمته بين أسنانه كرةً من اللحم، مضغها فذابت بسرعة في فمه، فهز رأسه مستحسنًا..

- ما هذا الطعام الليِّن اللذيذ؟

- كفتة داوود باشا، هكذا دعتها «تقهيده خانم»، أعجبني مذاقها، فطلبتُ منها أن تعلّمني طريقة طهيها.

- داوود باشا!

- أجل، قالت إنّه كان واليًا على مصر، ولأنّه كان يحبها انتشرت بين الناس.

مسح عن فمه أثر الحساء، وقال متأثِّرًا: - رحمه الله، كان عادلًا صالحًا.

رمقها بابتسامة حانية وقال وهو يضمها إلى صدره: - سلمت يداكِ حبيبتي.

- أعجبتكَ؟

- شهية للغاية.

ابتسمت وهي تداعب شعرها بيدها، قالت:

- أفكّر أن أطهو لكَ غداء الغد شركسية..

رفع حاجبيه قائلًا:

- شركسيَّة!

أومأت وهي تبتسم، فضحك بصوت مرتفع على غير عادته، وقال: - زوجتي صارت مصرية تمامًا، رضي الله عنكِ وعن «تفهيده خانم».

نظرت إليه بطرف عينها متسائلة:

- هل الشركسيَّة مصرية أم شركسيَّة؟!.. أيًّا كانت، ألديكَ مانع؟

هزّ رأسه نافيًا وصار يضحك وهو يجيبها: - لا مانع عندي، أحب كل ما تصنعه حبيبتي.

تركها ليعود لدكانه، يشق طريقه خارجًا من الحارة وهو يبتسم، وقد غلَّفه شعور -على الرغم من غرابته- استحسنه كمذاق كفتة داوود، التي تذوقها للمرة الأولى من يدي رفيقة روحه الماهرة. مر أولًا على بيت أبيه، وبعد سلام وحديث قصير مع «تفهيده خانم»، دخل إلى أخيه، الذي ما إن رآه حتى ابتسم ونهض عن الأرض واحتضنه، وهو يناديه: - سو.. لاي.. مان..

ضمَّه فرِحًا، إنها أول مرة يرى ابتسامته منذ وصوله؛ حدَّثه: - سليمان، سيصطحبكَ إلى الخارج..

وأشار بذراعه، فاتسعت ابتسامة «عليّ» وهو يكرر: - سو.. لاي.. مان..

أومأ «كمانگير» مبتسمًا، وساعده على ارتداء ثيابه، وخرجا معًا، «عليّ» يمتطي البغل، وينظر إليه مبتسمًا، وهو يسحبه في الطرقات. مضى «عليّ» يتأمل المنازل والطرقات، ويقهقه فرحًا برؤية الناس يأخذون الطريق ذهابًا وإيابًا، ويحرك رجليه بعشوائية، كطفل يلعب، حتى وصلا إلى ضفة النيل القريبة، فمد «كمانگير» يده إليه، فأمسك أخوه بها ونزل عن الدابة، وجلسا متجاورين، ينظران إلى صفحة الماء الرقراقة، ويستنشقان عبير الزروع الذي يشفي روح العليل، حتى غابت الشمس، وآن أوان العودة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

-٢٠-

مجرستان، ٩٥٠ ه

«الصبر شجرةٌ مُرّة الجذور شهيةُ الثِّمار».

عبرنا إلى الضفة الأخرى صبيحة اليوم التالي، نبحث عن رسالة ما، فاستقبلنا نباح الراعي الذي داوم على البقاء قرب الوكر، فما انفكّ يتمسّح في أرجلنا. كنا نعرف مهارته في الصيد، ورغم ذلك نداوم على الدخول عليه بهدية من بعض الطعام، كذلك يفعل الهداهد إذا كانوا موجودين بالقرب. كالمعتاد، خطوتُ، حفرتُ.. لم أعد بيدي خاوية، إذ أخرجتُ رسالة عرفتُ بخبرتي أنها جاءت صبيحة اليوم، فحواها: «يؤسفنا إخباركم بانتقال شاهزاده «محمد» ابن حضرة «سُليمانَ خان»، بتقدير العليّ القدير، من دار الفناء إلى دار البقاء، في الجمعة التاسع عشر من شعبان سنة خمسين وتسعمئة هجرية».

غمرني حزن فوق ما بي، أخبرتُ «جابر» بفحوى الرسالة، فغمره أيضًا ما غمرني، لكن ما باليد حيلة، ظللنا على حالنا نقتفي الآثار ونتتبع الأخبار، وننقلها بنفس الطريقة طيلة ثلاث سنوات، دون كلل أو تقصير، وليس يهوِّن عليَّ إلا الصغيرة تكبُر أمام عينيّ يومًا بعد يوم، ويشتد تعلُّق قلبي بها، كلّما رأيتُها تبتسم أجدني أبتسم على غير إرادة منِّي، كيف لمن يرى هذه القسمات الملائكية ألّا يبتسم، وكيف لا أبشُّ لمن دخلَت إلى خيمتي عابسة ذات ليلة، فسألتُها عن حالها فكانت لا تستطيع النوم، وأمها نامت ولم تقصّ عليها حكاية الليلة حتّى تساعدها على النوم، فوضعتني في قلبها في مكانة ليست إلا لأمها، فوضَعَت رأسها على رِجلي وقالت آمرة: - قصّ عليّ قصّة وداعب شعري حتّى أنام.

اتسعت ابتسامتي أمام قرارها الحازم، وأخذني الصمتُ محاولًا تذكّر إحدى الحكايات، حتى استحضرت حكاية من التراث، كانت قد قصّتها عليّ «تقهيده آنا» زوجة أبي في صغري، فمسحتُ على شعرها برفق وبدأتُ الحكاية..

- كان ما كان في قديم الزمان، فتىً اسمه «حسن»...

قاطعتني قائلة:

- لا يعجبني اسمه.

- ماذا تسمينه إذًا؟

- «سولي».

- حسنًا، كان «سولي» يسعى كل صباح باحثًا عن عمل يكسب به قوته ويطعم أمه...

قاطعتني ثانية:

- وما اسم أمه؟

صمتُ قليلًا قبل قولي:

- «أُمُّ سولي».

- ممم.. أكمل.

- لكن الحظ لم يكن حليفه، فلم يوفق في أي عمل منها، وضاق به الحال في قريته، حتى قرر تركها، علّ الحظ يحالفه في أرضٍ جديدة، ويجد عملًا يعيله. ولما علم بخبر قافلة تنطلق في الغد، استأذن أمه في السفر، فسألته إلى أين، فقال لها إن بلاد الله واسعة. قالت له: «وأنا لمن تتركني؟»

قال: «أتركِكِ في حفظ الله ورعايته، حتى أصل سالما، وأجد لي عملًا يناسبني ونكسب منه قوتنا، ثم أعود وآخذكِ معي إلى هناك».

قالت: «وهل ستسافر وحدكَ؟ إنني خائفة عليكَ».

«كلا يا أمي، هناك قافلة مسافرة في الغد، سأرافقها».

سألته: «لماذا لا تظلّ هنا وتعمل في أي عمل يناسبكَ، وسوف يرزقكَ الله؟»

فأجابها حزينًا: «جربتُ كل الأعمال يا أمي، فدعيني أسافر واطلبي من الله أن يساعدني ويوفقني، فدعاء الوالدين مستجاب بإذن الله».

قالت: «أنا خائفة عليكَ، ولا أُريدكَ أن تعيش وحدكَ!» ثم تنهدت مستسلمة وربتت على كتفه قائلة: «أمرى لله، أدعو الله أن يحفظكَ، ويجمعني بكَ عن قريب، إنه سميع مجيب».

سألتني «مريم» وهي تقاوم النعاس: - وماذا فعل؟

- أَعَدَّ عُدته، وعند شقشقة الطيور، وَضَعَ بعض الزاد في جيب الخرج، وفي الجيب الآخر وضع قربة ماء، وجعبة سهامه معلقة على ظهره، وقوسه بين كتفيه. ركب البغل، وخرج ليلحق بالقافلة. لكنه لما وصل إلى المكان المتفق عليه؛ وجد القافلة سافرَت، فخشي إن رجع أن تمنعه أمه من المحاولة ثانيةً، فأسرع ببغلته، لعلّه يلحق بالقافلة. ظلّ يسير في طريقه، وبعد يومين، التقى برجل يتوكأ على عصاته يعرج..

سألتني وهي ترفع رأسها نحوي:

- أهو شرير؟

- سنعرف بعد قليل يا صغيرتي.. لا ترفعي رأسك، فلن تنامي هكذا!

ضحكت مشاغبة، فأكملت مبتسمًا: نزل من على ظهر مطيّته، وسأل الرجل: «أعطشان؟» ردَّ عليه: «يقتلني العطش». سقاه حتى ارتوى، وسأله «مال ساقكَ؟» فقال: «مكسورة». ففكّ «سولي» عمامته، وربط بها ساق الرجل، وحمله على ظهر بغله وسار يسحبه، وهو يحمد الله في نفسه أن التقى برفيقٍ للطريق. ولما تعب من المسير، توقف عند شجرة للراحة، قعدا وأكلا وشربا، وأخذهما الحديث. سأل «سولي» الرجل: «كيف أصبت؟» قال: «كُنّا في غارة وانهزمنا، وأُصِبتُ في ساقي، وتركني رفاقي». سأله «سولي»: «وإلى أين تذهب؟» قال: «أرض الله واسعة، لكنني عازم على الذهاب إلى مدينة التعاسة». تعجب «سولي» وسأله: «وأين هي؟» أجابه: «ليست ببعيدة، مسيرة يومين أو ثلاثة».

سألتني بلهفة:

- وما حكايتها؟

ابتسمتُ قائلًا:

- هذا نفس سؤال «سولي».

- وبمَ أجاب الأعرج؟

- قال الأعرج: في الماضي كانت تسمى مدينة السعادة، ثم مرض سُلطانها وابنته. حزن الأهالي أشدّ الحُزن، فسُمّيَت بمدينة التعاسة. ثم سأله الأعرج عن أحواله، فأخبره بما كان من أمره، ثم أكملا المسير. نفد الماء، ولكنه ظلّ يسير ساحبًا البغل والأعرج فوقه، حتى وصلا إلى بئر، قال الأعرج: «دعني أنزل وأجلب الماء». قال «سولي»: «لا يا عم، أنتَ مكسور الساق، أنا من سينزل، فقط اربط الحبل في عنق البغل، وأنزلني في البئر لأملأ القربة فترتوي أنتَ أولًا، وفي الثانية نسقي الدابة، والثالثة لي». نزل «سولي» إلى قاع البئر، ملأ الدلو، ونادى عليه، سحبه وشرب وملأ القربة، رمى الحبل لسولي مرة أخرى، وسحبه بعد أن ملأ الدلو، سقى البغل ورمى الحبل، ملأ «سولي» الدلو ونادى عليه ليسحب الحبل، فضحك الأعرج كالمجنون، ونظر إليه من أعلى وقال: «لا، سأدعكَ في قاع البئر، وآخذ بغلكَ وحِملكَ، وأذهب». قال «سولي»: «خذ كل شيء، ولكن أخرجني من البئر». قال الأعرج: «لتقتلني؟!» قال «سولي»: «أقسم ألّا أفعل، أعدكَ بذلك». لكن رفض الأعرج، وأخذ البغل وذهب، وتركه في القعر.

قطّبت وقلبَت شفتها وقالت بنغمة حزينة: - شرير، قلتُ لك ذلك من البداية، أكمل..

- حلَّ الظلام، وهو في ظلمة البئر يندب حظه، حتى استسلم للنعاس. ولما انتصف الليل، سمع هُنَادَ بوم يقترب، وحطّت الطيور على حافة البئر، فانتبه مفزوعًا، وقد خُيّل إليه أن الثلاث بومات يتضاحكن كالنسوة، ويتحدثن إلى بعضهن! ثم تبدّلت صورتهن فعلًا إلى صورة بشرية، ثلاث نساء عاريات، يجلسن وظهورهن إلى الحافة، وانسدل شعرهن الحالك حتى اقترب من قعر البئر، فاقشعر بدنه..

قالت بجديّة:

- لابُدَّ أنهنّ ساحرات.

- بالضبط يا صغيرتي.

- وماذا فعل؟

- انضوى على نفسه يختبئ في ظلام البئر، حتّى لا يلحظن وجوده، وسمع إحداهن تقول: «أتدرين يا أختي أنّ سُلطان مدينة السعادة مرض بسببي؟» فقالت الثانية: «كيف؟» قالت: «أنا التي أدخلتُ المرض في جسمه، لأنني في يوم من الأيام تصوَّرت في صورة قطة، ودخلتُ القصر، فأمر بقتلي، وهذا عقاب له، فيكون دواؤه بسيط، فهو عبارة عن عصير برسيم، وعصير شعير، يشربه سبعة أيام صباحًا ومساءً، وبعدها يُشفى، لكن لأنه من علف البهائم لن يجربه الأطباء له، ولن يخطر على بالهم». قالت الثانية: «أمّا أنا، فقد أصبتُ ابنة السُّلطان بالشلل، وأعميتُ عينيها». سألتها الأولى: «كيف ولماذا؟» قالت: «في يوم من الأيام، تصوَّرتُ لها بصورة عصفور، ووقفتُ على شرفتها، وما إن رأتني حتى قامت ترجمني بالحصى، فدخلتُ في جسمها وأصبتها بالشلل، ثم العمى، ودواؤها بسيط جدًا». قالت الأولى: «وما دواؤها؟» قالت: «الشلل دواؤه طين أحمر يصفَّى جيدًا ويدهن به كل جسمها، لمدة سبعة أيام، والعمى يؤخذ له ورق السدر، ينشف ويطحن، وتكحل به لمدة سبعة أيام، ولكن الإنس أغبياء، وليسوا بذكاء الجِنّ». قالت الثالثة: «أمّا أنا فخبأتُ كنز جد السُّلطان داخل مغارة ببطن الجبل، لو ذبحوا ثورًا أسود عند الصخرة التي تغلقها؛ لفُتحَت ووجدوا الكنز، ولكن الإنس أغبياء كما قلتِ يا عزيزتي». رحن يتضاحكن وصدى ضحكاتهن يتردد، فلما انصرفن مثلما أتين، ظلّ «سولي» يفكر في كلامهن ويردده في نفسه.

قالت وهي تتثاءب:

- وماذا حدث له؟

- في الصباح، مرّت قافلة بالبئر، أدلوا دلاءهم، فأمسك «سولي» بالحبل وقطعه، فأنزلوا حبلًا آخر، قطعه، قال كبيرهم: «إنّ البئر فيها بلاءٌ غريب، من ينزل ليأتينا بالخبر اليقين؟» تشجّع أحدهم ونزل، فلما وصل القاع رأى «سولي» فأوجس منه خيفة، فسأله: «أإنسيٌ أم جِنّيٌّ؟» قال «سولي»: «يا أخي أنا إنسيّ». وقصّ عليه قصّته، فسأل: «فلماذا قطعتَ الحبل ولم تصعد به؟» قال «سولي»: «لو تعلقتُ به ورأيتموني أخرج بدل الماء، لخفتم مني وتركتم الحبل للهرب فأسقط وأموت، دعني أسقي لكم الماء وساعدوني على الخروج من هنا». وهذا ما كان، خرج وقصّ عليهم قصّته، فقال كبيرهم: «والآن إلى أين تذهب؟» فقال «سولي»: «إلى مدينة التعاسة». ولحسن طالعه، كانت في طريقهم وأخذوه معهم.

عند هذا الحد، نامت الصغيرة، فغطّيتها بالفرو، وظلّت في سكونها إلى أن أصبح الصباح. دخلت أمّها واجفةً تسألني عنها، فرأتها نائمة، فتنهدت وابتسمَت وحمَلَتها برفق وذهبَت. كانت أول مرة أقوم بهذا الدور، وألقي حكاياتي على قلبٍ رائقٍ مُنصِت، فأحسست حين أخذتها أمها أنها أخذَت قلبي معها، تلك الأميرة النائمة، التي كُلّما كبرَت تمدّدَ قلبي حتى يستطيع تحمُّل كل تلك البراءة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

عدنا وقد سجى الليل، بعد أن قضينا أنا و«جابر» اليوم عند الوكر، نبحث عن أوشام جديدة، ولم نجد شيئًا، ولا وجدنا أحدًا من الهداهد، فلعلهم يستقون الأخبار من شتّى الأنحاء. وعلى أي حال فقد أمضى الراعي معنا كل الوقت، وأكلنا وشربنا ولاطفناه وجرينا معه، ثم عدنا إلى الخيام، فترجَّلنا نسحب الدابتين، واستقبلتني الصغيرة تجري نحوي، فحملتُها بيميني، فعانقتني بقوّة، وقالت: - لن أتركَكَ حتى تكمل لي بقيّة القصة.

ضحكت وقلتُ لها وهي تضغط على أنفي بسبّابتها: - تحت أمركِ يا أميرتي.

رأتنا أمها، وأشارت لنا من مكانها أمام خيمتها ودخلَت، وذهب «جابر» بالجوادين. دخلتُ أنا والصغيرة خيمتنا، فتمددت متعبًا على الأرض، وقعدَت هي أمامي تتكئ بخديها على قبضتيها، وتحدِّق بي، منتبهة، وقالت بإصرار: - «سولي».. أكمل..

- عندما وصل «سولي» إلى مدينة التعاسة، شعر بالحزن على حال الأهالي، فالناس في الطرقات مطرقين، لا يبتسمون. دخل إلى الخان الذي التقاه، فسأله صاحب الخان: «هل أنتَ غريب عن بلدتنا؟» قال له: «نعم أنا غريب، وأتيتُ إلى هنا للعمل». فتعجَّب صاحب الخان: «وأي عمل ترتجيه في مدينة التعاسة؟! كانت هذه مدينة السعادة، خيرها يعمُّ على كل المدن المجاورة،

ولكن بعدما مرض السُّلطان وابنته؛ صرف كل أمواله وأموال السَّلطنة على الأطباء والحكماء الذين توافدوا من كل مكان لعلاجه وعلاج ابنته، ولكن دون فائدة، فالسُّلطان وابنته لا يزالان مريضان، والمدينة أصبحَت ملجأً للمحتالين ومن يدَّعي الطب والسحر والمعرفة». قال له «سولي»: «ولكنني لستُ منهم». فقال صاحب الخان: «أرجو ذلك». بعد ذلك ذهب «سولي» إلى قصر السُّلطان، وقال للحراس: «أنا طبيب». قالوا له: «لقد أتيتَ متأخرًا، فالسُّلطان لا يريد أطباء». فقال لهم: «أنا طبيبٌ متبرع، لا أريد مالًا، فقط سأعرض خدماتي، وإن شاء الله ستعود بالنفع على مولانا السُّلطان». قالوا له: «سوف نسأل السُّلطان ونرجع لكَ بالجواب». قال: «بل أريد مقابلة السُّلطان في أسرع وقت». قالوا له: «لكن السُّلطان لا يقابل أحدًا، فهو لا يخرج من غرفته». قال: «أخبروه أنّ علاجه وعلاج الأميرة عندي».

قالت مستنكرة:

- لابد أنه رفض..

- لا، لقد أدخلوه عليه، فقدَّمَ له عصير برسيم، وعصير شعير في قدح، وداوم على شربه لسبعة أيام صباحًا ومساءً، بعدها شُفيَ تمامًا، لم يصدق السُّلطان نفسه، وفرح فرحًا عظيمًا.

صاحت فرحة قائلة:

- رائع.. رائع.. أكمل..

- قال «سولي»: «الآن جاء دور الأميرة يا مولاي»..

أحضر الطين الأحمر، وصفَّاه جيدًا، ودخل إلى غرفتها، مسح على جسمها، وبعد ثلاثة أيام بدأت تتماثل للشفاء، وبعد أسبوع شُفيَت تمامًا، وقامت من سريرها تمشي على قدميها. فرحَت، وفرح السُّلطان، ثم أكمل «سولي» عمله، أحضر ورق السدر وطحنه، وأخذ يُكحّل عين الأميرة، وبعد أسبوع، شُفيَت الأميرة وعادت ترى كل شيء..

اتسعَت ابتسامتها وقامت وقبّلَت خدي وقالت: - أحسنتَ يا «سولي»..

ثم قعدَت وقالت:

- أكمل..

صمتُ قليلًا وأنا ابتسم، وأكملتُ: - قال له السُّلطان: «لا أعرف كيف أُكافئُكَ أيها الطبيب، لقد أعدتَ السعادة إلينا»

قال «سولي»: «ليس الآن يا مولانا». قال السُّلطان: «وهل هناك شيء آخر؟» قال «سولي»: «نعم يا مولاي، فنحن والشعب نريد أن نفرح بهذا الإنجاز العظيم». قال السُّلطان: «سنقيم الأفراح في كل أرجاء المدينة والمدن المجاورة». قال «سولي»: «ليس في المدينة، ولكن عند الجبل الذي خلف المدينة». تعجّب السُّلطان وسأل: «لماذا عند الجبل؟» قال: «ستعرف كل شيء في حينه يا مولاي». قال السُّلطان: «لكَ ما تريد». قال «سولي»: «أريد إحضار ثور أسود خاص بي أنا». تعجب السُّلطان من طلبه وقال: «ثور أسود! لماذا؟» قال «سولي»: «لا أستطيع أن أخبركَ شيئًا الآن يا مولاي، المهم أن يتمّ تجهيز كل احتياجات الاحتفال، واتركوا مسألة الثور لي أنا». فأمر السُّلطان بإعداد كل شيء، وذهبوا إلى الجبل ونصبوا الخيام وعلّقوا الزينة، ولما تم ذلك، ذهب موكب السُّلطان يتبعه أهل المدينة إلى ناحية الجبل. وبينما الناس ترقص وتغني فرحانة ومستبشرة، ذهب «سولي» والسُّلطان، وأخذا معهما الثور، وذبحاه في المكان المطلوب، فتحرّكَت الصخرة، وظهر من ورائها الكنز، فقال «سولي» للسُّلطان: «هذا الكنز لكَ يا مولاي». فشهق السُّلطان: «لي أنا!» قال: «أجل يا مولاي هو كنز جدِّكَ في الأصل». قال السُّلطان: «تَمنَّ عليَّ». قال له: «أُريد الأميرة زوجة لي». فوافق السُّلطان وزوَّجه الأميرة، ووهبه نصف ماله ومنحه السلطنة، وقال: «من اليوم أنتَ السُّلطان وأنا من رعيّتكَ».

صفّقَت بيديها فرحة وقالت:

- تزوّج «سولي» الأميرة.. وماذا حدث بعد؟

- أصبح سُلطانًا لمدينة السعادة، بعد أن عادت السعادة للمدينة وشعبها، وأرسل في طلب أمه، ففرحَت كثيرًا. شاع الخبر في كل أرجاء المعمورة بأنّ «سولي» تزوّج ببنت السُّلطان وأصبح سُلطانًا، فسمع الأعرج بالخبر، فشعر بالغيرة والحقد على «سولي»، وقال في نفسه «لابُدَّ أنّ هناك سرًّا في البئر التي تركتُه فيها، وعليَّ الذهاب إلى هناك»، وذهب ونزل إلى البئر، وفي المساء أتت الساحرات، ولما وجدنه اعتقدن أنّه السبب في إبطال سحرهنّ وكشف أمرهن، فتحوَّلن إلى صورة ضباع وأكلنه، ولم يتبقَ منه شيء، كأنه لم يكن.

انتهت الحكاية، فابتسمَت «مريم» وهي تغلق عينيها، وتطلب مني أن أحملها إلى أمها، فذهبت بها إليها، ثم أخذتني قدماي إلى ضفة الدانوب، فوقفت أستمع إلى هديره، وألمس صفحته الجارية بأناملي، حتّى بدأت التثاؤب. وإذ فجأة، سمعتُ نباح الراعي غاضبًا، يأتي من الضفة الأخرى! ركضتُ بأقصى سرعة حتى مربط الفرس، فامتطيتُه وعبرتُ إلى الوكر، فوجدتُ الكلبَ مصابًا، لكنه يستطيع السير، وقادني إلى شجرة، حيث الأرض منبوشة،

والحفرة فارغة! اعتراني الغضب، فأسرعت لجوادي، والراعي أمامي، بحثنا كثيرًا، ونظرت فوق الأشجار، لكننا عدنا خاليي الوفاض.. هناك من كشف أمرنا، وسرق الرسالة الجديدة وهرب، وظلام الليل أعانه على الاختفاء!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في العام التالي، وصَلَتنا أنباء بتوقيع معاهدة سلام بين فرنسا وآل هابسبورغ، في اليوم الثامن عشر من سبتمبر، وبعدها بعام، وُقّعَت معاهدة بين الدولة العثمانية والهابسبورغيين في اليوم العاشر من نوفمبر، لكن أيًّا من الطرفين يؤتمن جانبه؟

كنتُ قد اشتقتُ لزيارة مقام حضرة «أبي أيوب الأنصاري»، وتمنّيتُ لو أذهب وأقرأ عنده الفاتحة وأتبرَّك بالذكرى العطرة. عبرتُ إلى الضفة الأخرى - وكنَّا قد قررنا الاستمرار في نفس الوكر، فلن يتوقع سارق الرسالة أبدًا أن نستخدمه بعد أن افتضح مكانه - ونبشت المكان باحثًا عن خبر تسعد به نفسي، لعلّي أجد معه الصبر على ما ألمّ بي وبرفيقي من الحزن والبعد. خطوتُ، حفرتُ، وأخرجتُ الرسالة التي علمتُ أنها هنا منذ يومين، وصدمني أنها حمَلَت نفس الديباجة الحزينة: «يؤسفنا إخباركم بانتقال أسد البحار وباش قبودان البحر العثماني، حضرة «خضر بن يعقوب»، والمعروف في أرجاء الدولة العليّة باسم «بَرْبَرُوس خير الدين پاشا»، بايلرباي الجزائر، بتقدير العليّ القدير، من دار الفناء إلى دار البقاء، في يوم الخميس الخامس والعشرين من ربيع الآخر السنة الثالثة والخمسين وتسعمئة هجرية، إثر مرضٍ ألمّ به. وتمّ دفنه بجوار المدرسة التي بناها في «بشكيطاش».

تفرّغ الپاشا في آخر عمره لمصنع السفن، أبدًا لن أنسى ما حييتُ الأعمال التي أنجزها، سأظل أحفظها عن ظهر قلب، وعلى وجه الخصوص آخر حملاته الكبيرة على «نيس»، وما ألمّ بقلبي من ألم وقتئذ. لففتُ الرسالة ووضعتُها في جيبي، ورفعتُ رأسي إلى السماء مناجيًا ربي، ثم عقدتُ العزم على العودة إلى العاصمة. عدت إلى الخيام، وأخبرتُ «جابر»، الذي جهّز كل شيء، وودّعتُ أصحابي من الغجر والهنغار والهداهد، وقبل امتطائي الجواد نادتني الصغيرة، وأعطتني زهرة واحتضنتني وبكت، فأخذتها أمها في حضنها، فأشحت عنهما متجنبًا أن ترى الطفلة دموعي، وانطلقتُ مع «جابر» قاطعين طريقنا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

إسلام بول، ٩٥٣ ه

صَلّيتُ في جامع «أيوب سُلطان»، ثم وقفتُ أمام مقامه رافعًا يدي مطرقًا رأسي، قرأتُ الفاتحة على الصحابيّ الذي عندما اشتدّ به المرض أثناء حصار جيش «يزيد بن معاوية» للقسطنطينية قبل قرون؛ أوصى أصحابه قائلًا «ادفنوني تحت أقدامكم»، وعملًا بوصيته صلُّوا عليه ودفنوه في أصل حصنها، وظلّت المدينة عصيَّة على المسلمين، حتى فتحوها بقيادة السُّلطان «محمد بن مراد» (الفاتح) قبل عقود، وبنوا على قبره هذا المقام.

صار بين حنيني واشتياقي لأبي وباقي أسرتي مسافات لا تُدرَك، يقولون إنّ القلوب رغم البُعد تتصل، وأخشى ألّا أجد سبيل الوصل. ذهبتُ إلى الجهة الغربية من «جامع الفاتح»، حيث التكية النقشبندية، أتلمّس ريح أبي، متمنيًا له الصحة والعافية والهيبة. راقبتُ حلقة الذكر المترابطة، الرؤوس تهيم يمنة ويسرة، الأعين مغمضة، دوامة لا نهائية من الأبيض والأخضر تدور وتدور، تابعتُهم حتى توقفوا يقولون: «اللهم، يا مفتح الأبواب، يا مسبب الأسباب، يا مقلّب القلوب والأبصار، يا دليل المتحيّرين، يا غيّاث المستغيثين أغثنا»، ثم أكملوا الذكر على طريقتهم، مهلّلين «الله» ثلاث مرات، كما يقول القلب. أخذوا أنفاسهم ثم رددوا: «إلهي أنتَ مقصودي، ورضاكَ مطلوبي». واصلوا ما يفعلون، وواصلتُ طريقي خارجًا، و«جابر» يزفر حامدًا الله أن ابتعدنا عنهم أخيرًا، فهو لا يحب هذه الطُرق، ويقول فيها ما يقول، لا أعلم إن كان محقًّا أم لا، ولكن ما من جواب يريح نفسي حول ما إذا كان المريد حرًا في وصله وذِكره، أو أنّ ما وصل إلينا قد تبدَّل وتغيَّر منه الكثير، الله أعلم، صدق القائل «إن لم نجد الله في قلوبنا فلن نجده في المساجد أو التكايا»، فاللهم إنّ روح هذا العبد الحقير، كثير التقصير، متأرجحة بين إثمٍ وطاعة، ليسَت عاصية، ولا مستقيمة، لكنّها تحبُّكَ يا ربي، ألهمني الحقيقة يا حَقّ.

وسرعان ما جاءت الأخبار بأنّ أحد شيوخ القبائل اليمنية استولى على «عدن»، القاعدة العثمانية الوحيدة على بحر العرب، فتولّى «پيري رئيس» بأمرٍ سُلطاني قيادة أسطول الهند، وعيَّنَه بايلرباي اليمن، وأمره باستردادها مرةً أخرى، لكن لم نكن معهم، بل استقرّينا في العاصمة قرابة عام، حتى السنة الرابعة والخمسين وتسعمئة هجرية، زُرْتُ كل أصدقائي المقربين وذهبتُ لبيت مُعلّمي «ترچمان ريزا أفندي» الذي علّمني المجريّة والكرواتية والألمانية والسُلاقية، ففوجئ برؤيتي وفرِحتُ لأنه حيّ يرزق، قال وهو يعانقني بحرارة:

- آه يا «كمانگير سُليمان أفندي» آه، عودًا حميدًا يا ولد، تغيّرتَ كثيرًا، واشتدّ عودكَ، ولحيتكَ تليق بكَ وتزيدكَ جمالًا ووقارًا.

ثم نظر إلى «جابر» قائلًا:

- أمّا أنتَ فلم تتغير.

ضحكنا معًا، فلكم كان يحبنا، وكان أكثر من عرفنا من الأتراك محبةً في قلب «جابر». لم يتغيَّر أستاذي، لا يزال مُجِدًّا في عمله، محبًّا لتلاميذه ومخلصًا لدولته، أكرم وفادتنا وأنعم علينا من الخير الموجود، وطلب منّا البقاء، لكنني اعتذرتُ منه متمنيًا البقاء أكثر، لكن عليّ إنهاء بعض الأمور في العاصمة قبل العودة، فتقبّل العذر وودّعني وداعًا يليق بتلميذه النجيب.

انتقلنا إلى مسكننا، وظللنا حتى الخميس، الحادي والعشرين من ربيع الثاني، تاسع عشر يونيو، وبعد وفاة «فرانسوا» ملك فرنسا، جاءت الأخبار من «أدرنه» محمّلة بإتمام الصلح مع الهابسبورغيين، واعتراف «شارلكان» بالفتوحات العثمانية الجديدة، وموافقته مرغمًا على شروط السُّلطان، فتعهَّدَ بدفع خمسة وثلاثين ألف ذهبية سنويًا، ليصبح السُّلطان دون غيره هو الوحيد الذي له الحق في حمل لقب إمبراطور، فاستقر بنا الأمر لعام آخر، تابعتُ الأمور مراسلةً مع الكتيبة المرابطة بمجرستان والحدود مع «نمچه» (النمسا)، تتقصّى الأخبار ولا تقصّر في عملها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في السنة الخامسة والخمسين وتسعمئة هجرية، الثامنة والأربعين وخمسمئة وألف ميلادية، قبل رحيلنا إلى مَجَرِستان، سار السُّلطان «سُليمان خان» بجيوشه قاصدًا «تَبْريز»، في ثاني حملاته على الصفويين، ومعه السفير الفرنكي «غابرييل دو لويتز دارامون»، الذي قدّم له المشورة العسكرية المناسبة أثناء حصار «وان»، والتي ساعدت في فرض سيطرته عليها، وبعدها «أريوان»، ليضم الجزء التابع للعَجَم من بلاد الكُرد، وبذلك أمَّن السُّلطان وجودًا دائمًا في شرق الأناطول، ولم تَسْلَم بعض حصونهم في «چورچيا» و«أرمينيا»، واحتلّ العسكر معظمها، وفي حادي عشر جُمادَى الأولى، السابع والعشرين من يونيو، سيطر على «تبريز» تمامًا، واستعادها للمرة الرابعة، وقضى بها عدّة أيام ينظِّم شئونها قبل عودته إلى العاصمة في أواخر شوال، ديسمبر.

في العام نفسه، وصلتنا رسالة من الهداهد تخبرنا أنّ الأرشيدوق «فرديناند» راسل الأُسقُف «مارتينوزي» لإيجاد طريقة لتوحيد المجر وإيقاف توسّع العثمانيين على حسابهم، وظلّت مراسلاتهم دون جدوى طيلة عام كامل.

لم تنقطع عنّا أخبار «پيري ريّس» الذي وصَل مشارف «عدن» يوم الأربعاء، عاشر ذي الحجة في السنة الخامسة والخمسين وتسعمئة هجرية، تاسع عشر يناير سنة تسع وأربعين وخمسمئة وألف ميلادية، وفي أعقاب معارك

شديدة لمدة أسبوعين نجح في استرداد القلعة، ووَصَلَت هذه الأخبار إلى مصر، ومنها إلى العاصمة، وسُرَّ الجنود والبحّارة المشاركون في تلك المعارك بالمكافآت المتنوّعة على وفق رُتبهم. كذلك نالَ الهداهد نصيبًا من تلك المنح السُّلطانية السخية، لذا أحببنا جلالته، وأقسمنا على طاعته، حتّى على حساب أنفسنا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كان عِقدًا زاخرًا بالأحداث والإنجازات، أنهكه تدوينه. تسابقَت دقّات قلبه مع الريشة فوق الأوراق، مهرولة مع أحداثه المزدحمة، وأخيرًا تنهّدَ وأغمض عينيه للحظات، مع تهادي أذان الفجر إلى أسماعه. نظر إلى شعلة القنديل المتراقصة للحظة يحاول فيها أن يستفيق، ثم ابتسم ونفخها حتى انطفأت، وقام يستعد للصلاة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أخذ أخاه وذهبا إلى الحمام الكبير بشارع المعز، فاستقبلهما أحد العاملين بابتسامة عريضة، واصطحبهما إلى الداخل، حيث خلع «كمانگير» ثيابه واستبدلها بمنشفة، ثم ساعد أخاه على خلع ملابسه، وأحاط خصره بمنشفة أخرى، ودخلا إلى غرفة معبأة بالبخار. خاف «عليّ» من البخار الذي منعه من رؤية ما حوله، فالتصق بأخيه، فربَّت عليه وأمسك بيده حتى هدأ، وجلسا على إحدى المصاطب الحجرية، وهما يتصببان عرقًا، قبل أن ينتقلا إلى المغطس، فأخذ «عليّ» يضرب الماء بيده فرحًا، وعندما رأى أخاه يبتسم رشَّه بالماء، فرشَّه هو الآخر برفق، لا يكترثان بالموجودين، وترددت ضحكاتهما تملأ المكان. ثم هدأ «عليّ»، واسترخى إلى جوار أخيه وأغمض عينيه، فسمع «كمانگير» نقاشًا بين رجلين بالقرب، يتحدثان حول تجارتهما والحرير والأقمشة القادمة من بلاد الهند، وتضررهما من أنّ الوالي يفرض على التجار ما لا يطيقون، والتجارة على وشك الكساد، فوافقهما الرأي آسفًا على ما آل إليه الحال، فانطلقا يتحدثان بأريحية، ينتقدان الأوضاع الحالية ويدعوان على الوالي.

خرج «كمانگير» يفكر فيما سمع، أغدق على العامل بالبخشيش، فدعا له بطول العمر والرزق الوفير، في زمن شحَّ فيه الرزق، فابتسم له بينما عقله يشتعل بالأفكار. أوصل أخاه حتى سريره، فما إن وضع رأسه على وسادته حتى راح في سُبات عميق. رمقه بنظرة حانية وابتسامة، ثم دخل إلى زوجة أبيه فسامرها قليلًا، وأخذ طريق عودته إلى بيته، يسائل نفسه ماذا عليه أن يفعل تجاه ما سمع!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

-٢١-

إسلام بول، ٩٥٦ ه

«قد يأتيكَ الخير من أشد الناس عداوة».

في السنة السادسة والخمسين وتسعمئة هجرية، التاسعة والأربعين وخمسمئة وألف ميلادية، قرر السُّلطان «سُليمان خان» بناء جامع، يكون فريدًا بين الجوامع التي بناها أجداده في العاصمة «إسلام بول»، ويملأ صيتُه العالم، فخمًا ورائعًا وكبيرًا، وفي أجمل موقع بالقسطنطينية. استدعى آنذاك «سِنان پاشا» المعماريّ، وأرسل رجاله - وأنا بينهم - نبحث عن أنسب مكان، حتى استقر «سِنان پاشا» على أنسبهم وأوسعهم وأجملهم، مرتفعًا على حافّة التلّ المطلّ على سواحل الخليج، ومنه يُرى «طوپ قپو سراي»، والبوسفور، وجزءًا من بحر مرمرة. لا مراء في عبقرية الرجل، يستحق عن جدارة كل الألقاب التي حصل عليها، لعقليّته المعمارية الاستثنائية. وفور أن عرَضَ اختياره على السُّلطان، صدر الأمر بالبدء فورًا، لكن كانت هناك عقبة صغيرة، ففي وسط المكان المختار كوخ صغير ليهوديّ، يجب إزالته للشروع في البناء. طرقنا باب الكوخ، فخرج الكهل إلينا مقطّبًا: - خيرًا.. ما الأمر؟

قال الچاويش:

- نحن رجال السُّلطان..

هزّ كتفيه وزمّ شفتيه قائلًا:

- أهلًا بكم. وماذا بعد؟

- نبحث عن مكان مناسب لبناء جامع حسب أوامر جلالته.

قال مرتابًا:

- وما دخلي أنا؟ أنا لستُ بنَّاءً.. يوجد معماريّ حاذق يُدعى «سِنان» اذهبوا إليه.

- الأمر وما فيه أن هذا هو المكان الذي اختاره «سِنان» نفسه الذي ذكرته لبناء الجامع، وكوخكَ في وسطه؛ لذا فلابُدَّ من إزالته، وسوف....

قاطعنا الرجل صارخًا:

- هل ستهدمون كوخي؟

هزّ الچاويش رأسه نافيًا وقال:

- بل نشتريه منكَ.. فكم تطلب ثمنًا له؟

أشاحَ برأسه نافيًا بإصرار:

- كلا.. كلا.. أنا لا أنوي بيعه.

- نعطيكَ مبلغًا تستطيع به أن تشتري به بيتًا أفضل من هذا الكوخ الصغير.

أصرّ على رفضه معاندًا وقال:

- قلتُ كلا.. إنني راضٍ عن كوخي..

ثم راح ينظر صوب الماء، وقال بنبرة حالمة: - صحيح أنه كوخ صغير، ولكنّه يُشرف على أجمل منظر كما ترون.. ماء الخليج الذي يرُدُّ خريره الروح التائهة ويطمئنها.

- سنعطيكَ أضعاف سعره.

- كلا.. أنا لا أنوي بيعه.. ثم إنه قريب من عملي..

لم نفلح في إقناع الكهل، لو كنتُ مكانه لامتنعتُ مثله، يستمع كل صباح إلى صيحات النوارس والقطارس التي تملأ السماء، وتستقبله زرقة البحر وصفحة السماء اللا نهائية أمامه، فأي مكان هنالك يمكن أن يمنحه هذا الجمال؟!

عدنا إلى السُّلطان ومثلنا بين يديه، وأخبره الچاويش أن هناك كوخًا لكهلٍ يهودي في وسط العرصة لم يقبل بيعه بأضعاف ثمنه، مطالبًا صدور الأوامر الهُمايونيّة بطرد ذلك اليهودي المعاند، وهدم كوخه. لم يعطِ السُّلطان ردًّا، بل أرسل لاستفتاء الشيخ «أبو السعود أفندي»، بصفته شيخ الإسلام، فأجابه بأن حُكم الإسلام واضح، لا نستطيع فرض أي جزاء أو عقاب على اليهودي، لأنّ الكوخ ملكه، ولا يجوز أخذه قهرًا، وإذا مات فإنّ أبناءه يستطيعون أيضًا الامتناع عن بيعه؛ ولا يوجد سبيل لأخذ الكوخ سوى رضاه.

فكّر السُّلطان مليًّا في الأمر، وفي اليوم التالي، ذهب بنفسه إلى الكوخ المقصود، وترجّل عن جواده، ثم طرق الچاويش الباب، فخرج الكهل، ليفاجأ بصوت الچاويش يدوّي معلنًا: - دستور.. حضرة السُّلطان «سُليمان خان» المعظّم.

لم يصدّق الرجل نفسه، وهو ينظر إلى صاحب القفطان الأحمر والعمامة البيضاء الملفوفة المزخرفة القابعة على رأسه، تمالك نفسه مسبلًا، قائلًا «تفضّل»، فنظر السُّلطان إليَّ وإلى الچاويش وأومأ برأسه أن نصحبه، ثم دخل وخلفه الرجل ونحن في أثرهما. لم يجلس، إلّا بعدما طلب منه اليهودي

ذلك، ثم قال وهو يتطلع حوله: - قبل عقود، علم والدنا السُّلطان «سليم خان» أن الأقليات التي تنعم بالعطف السُّلطاني والمكوث في عاصمته، المحميّة بقدرة الله تعالى، «إسلام بول»، من الأرمن والروم واليهود، قد تسبّبوا في بعض القلاقل للدولة العليّة، فغضب غضبًا شديدًا، وأصدر أوامره بأنّ عليهم اعتناق الدين الإسلامي، ومَن يرفض ذلك يُضْرب عنقه. بلغ هذا الخبر شيخ الإسلام حينئذ «زمبيلي علي جمالي أفندي»، فساءه إكراه غير المسلمين على اعتناق الإسلام مخالفةً للشريعة، ولا يجوز أن يخالف أحد شرع الله، وإن كان السُّلطان نفسه.

نظر في عين اليهودي، وسأله:

- من تظنه يستطيع أن يقف أمام «سليم خان»، الذي يرتجف أمامه الجميع، فيبلغه بأنّ ما يفعله لا يوافق الدين الإسلامي، ويُعَد حرامًا في شرعه؟ مَن؟

هزّ السُّلطان رأسه واستطرد:

- ليس أحد سوى هذا الذي يشغل منصب شيخ الإسلام في الدولة العليّة، وعليه تقع مهمة منع ما يخالف الشرع، وقد توجه إلى القصر، فقال لحضرة «سليم خان»: «سمعتُ أنّ السُّلطان يريد إكراه جميع الأقليّات غير المُسلمة على اعتناق الدين الإسلامي». رد «سليم خان» محتدًا: «أجل.. ما سمعتَه صحيح.. وماذا في ذلك؟»

ثم ابتسم السُّلطان وهو ينظر إليه وقال: - لم يكن شيخ الإسلام من الذين يتردّدون عن قول الحق فقال: «في ذلك مخالفة الشرع الحنيف، لا إكراه في الدين. جدكم «محمد الفاتح» فتح القسطنطينية، فلم يُكره أحدًا، بل أعطى للجميع حرية العقيدة، وأوصى ابنه والدكم السُّلطان «بايزيد خان» أن «حذارِ حَذارِ! لا يغرّنّكَ المال ولا الجُند، وإيّاك أن تُبعِد أهل الشريعة عن بابكَ، وإيّاكَ أن تميل إلى أي عمل يخالف أحكام الشريعة؛ لأنّ الدين غايتنا، والهداية منهجنا، وبها انتصرنا». والآن، عليكَ اتباع الشرع الحنيف، والاقتداء بجدكم «الفاتح».

سكت السُّلطان هنيهة وأكمل:

- اتهم «سليم خان» شيخ الإسلام «علي أفندي» بالتدخّل في أمور الدولة، فرد عليه أنما هذه وظيفته، الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وما الأجل إلا بيد الله، فليس لدى أحد من كان ما يخيفه، ووصل به الأمر أن يقول للسلطان إن واجبه أن يرعى آخرة الحاكم ويجنّبه كل ما يفسدها، وإن اضطر إصدار فتوى بخلعه إن أصر على ذلك الأمر.

كان الكهل يُنصت إلى «سُليمان خان» باهتمام، حتى قال: - ولما اقترح رجالي طردكَ وهدم الكوخ، تذكّرتُ هذا الموقف، ورفضتُ، حتّى لا تضيع جهود جدّي حضرة «بايزيد خان» في إنقاذ أهل الأندلس مسلمين ويهود سُدىً. قلتُ لآتيّنّكَ بنفسي وأقصّ عليكَ الأمر، وأرجو منكَ بيع الكوخ مرة أخرى، عامِلًا بقوله تَعَالَىٰ: «ولا تُجادِلُوا أهلَ الكِتابِ إلّا بالّتي هي أحسنُ إلّا الّذين ظلموا منهم».

ابتسم الكهل قائلًا:

- أثناء قصّكَ، والإمعان فيكَ وفي العظمة التي تجلّت في حضرتكَ، تذكرتُ حضرة «سُليمان الملك»، في حكمته وعدله، واختيار الرب له اسمًا آخر غير «شلومُه» وهو «يديديا»، محبوب الرب. أنتَ اسم على مسمّى، وحديثكَ إليّ بهذا القدر من اللين والحِكمة أخجلني.

ابتسم السُّلطان قائلًا:

- يقول مولانا حضرة «جلال الدين الروميّ»، الذي كان يدعو جميع الناس على مختلف مللهم إلى تكيّته: «إذا كنتَ موسويًّا أو نصرانيًّا أو بوذيًّا أو مجوسيًّا؛ فهَلُمَّ إلينا». هذا ليس خلطًا، إنّه التسامح.

قال الكهل وهو لم ينزل عينيه عن السُّلطان: - ألهذه الدرجة كوخي الصغير مهمّ؟ سُلطان العالم والربع المسكون، يأتيني بنفسه ويرجو مني بيعه؟!

تنهّد السُّلطان قبل قوله:

- لن يتمّ الأمر إلّا بعد موافقتكَ.

ظل الكهل يحدّق في السُّلطان قائلًا: - يقولون عنكَ: «لم يرَ «سُليمان» نفسه مجرد سُلطان، ولأنه يمتلك المدن المقدسة والذخائر المقدسة، وضع نفسه بمنزلة القيصر، والخان، وسيّد الأفق، وإمبراطور البحرين، وأضاف لنفسه لقب الخليفة، خليفة «محمد» على الأرض». في هذه الحضرة السُّليمانية المتجلّية أيقنتُ أنكَ تستحق كل هذا، وأزيَد؛ العادل. أشكركَ على تشريفي أيّها السُّلطان.

لم يحمل شكر اليهودي معنى الموافقة، لكن السلطان قام لينصرف، ولم يصر على إنطاقه بها. وهنا لم يستطِع الكهل الرفض، فأعطاه السُّلطان أضعاف المبلغ الذي عرضناه عليه سابقًا، ووقّعتُ أنا والچاويش على عقد بيع الكوخ كشاهدين، وانتهى الأمر على خير ورضا، وشرَع «سِنان پاشا» في بناء جامع السُّلطان، متحيّنًا يوم جمعة، فوافق الثاني عشر من جُمادَى الأولى سنة ست وخمسين وتسعمئة هجرية، سابع عشر يونيو، فذُبحَت الذبائح، ووُزّعَ لحمها مع فيضٍ من الصدقات بين الفقراء والمحتاجين والصالحين،

وحضَرَ الحفل رجالُ وَأركان الدولة، وعلى رأسهم السُّلطان بنفسه، وجمعٌ غفير من الناس، ووَضَعَ الشيخ «أبو السعود أفندي» حجر الأساس يومئذ.

ولكن في نفس تلك الأثناء، لم تنتهِ أعمال البرتغاليّين في بحر العرب والسواحل العربية المطلّة عليه، وتوغَّلوا حتى وصلوا إلى جُزُر «البَحْرَين» الخاضعة للنفوذ العثمانيّ، واستولوا على قلعة «القطيف» الساحلية، وسعوا بين الناس بالتحريض ضد الدولة العثمانية..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

-٢٢-

لم يستمر صديقاه طويلًا في قبول اعتذاراته عن عدم الذهاب إلى المقهى بعد إغلاق دكاكينهم في الخان، وقرر «سَمعان» اصطحابه معهما بالإجبار. ولما اتخذوا مكانهم المعهود بالمقهى، سأله مباشرةً عن الأسباب التي تمنعه عن لقائهما، فأخبرهما أنّه يُدوّن رحلته من جديد على الترتيب، وحكى لهما باختصار كيف فقد مخطوطته الضخمة على يد المفسدين من قطّاع الطرق. قصّ عليهما شذرات من رحلته، حتى وصل إلى ما حدث مع الأُسقف «مارتينوزي»، فأمعن «سَمعان» الإصغاء باهتمام أكبر، وقدَّر أهمية تدوين «كمانگير» بنظرة جديدة جادة.

عاد لبيته يدوّن كل شيء بأريحية، وقد أثار فضول صديقيه ذاكرته، فعادت كل الأحداث تجري كنهرٍ متصل، يتهادى أمامه بكل تفاصيله.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ترانسلڤانيا، ٩٥٦ ه

«في غياب العُقاب يُحلِّقُ الغراب».

توالى وصول رسائل الهداهد، تؤكد لي صحة ما أخبرتني «صوفيا» عن الأُسقف «مارتينوزي»، فبعدما مكَّن السُّلطان الملكة «إيزابيلّا» وابنها من الاستقلال بحكم «أردل» (ترانسلڤانيا)، قرّبَته منها، فصار هو الحاكم الفعليّ، وتمّ اختياره كڤويڤود من قِبَل البرلمان، باعتباره الوصي على ولي العهد، وفي سنة ست وخمسين وتسعمئة هجرية، وافقها سنة تسع وأربعين وخمسمئة وألف ميلادية، عقد «فرديناند» اتفاقية سرية مع رجال «إيزابيلّا»، وتواصل مع الأُسقف ليسعى لديها بسُلطته الدينية ودهائه، ويقنعها بالتنازل عن حُكم الإقليم للأرشيدوق «فرديناند»، مخالفة لشروط الهدنة، وضغط عليها بإرسال جيش لاحتلال الإقليم. وفي الوقت نفسه، كان «مارتينوزي» يكاتب السُّلطان، مدّعيًا الإخلاص وصدق الولاء، لذلك لم تكن وظيفة الهداهد هيّنة أبدًا، وكان عليهم الانتشار في كل الربوع المجريّة، وحتّى داخل العاصمة الهابسبورغية نفسها، واقتناص أيّة معلومات تفيد، وقد نجحت «صوفيا» وباقي الهداهد في أعمالهم لصالح الدولة، وأتتني «صوفيا» بخبر نقلته عن أحد النبلاء المقربين من الأُسقف، بعد أن شرب حتى الثمالة بين أحضانها، أن الأُسقُف «مارتينوزي» بعد اختلافه مع الملكة وانقطاعه عن التواصل مع العثمانيين، قد توصّل لاتفاق مع الأرشيدوق في «نيرباتور» أوّل أغسطس منه، بموجبه تتخلّى «إيزابيلّا» عن «ترانسلڤانيا» في مقابل «أوپول» و«راسيبورز» في «سيليزيا»، وعلى الأرشيدوق أن يعيل ابنها «چون» الذي سيتزوج لاحقًا إحدى بناته، مع وعد للأُسقُف بتعيينه رئيس أساقفة «غران» والحصول على قبّعة الكاردينال، وأُجبرت الملكة على الموافقة، وبعثَت برسالة إلى السُّلطان، كانت الشرارة التي اندلعَت بسببها حرب أهلية بين القوّات الموالية لها، وقوّات «مارتينوزي» الموالية للهابسبورغ.

بحلول ربيع السنة الحادية والخمسين وخمسمئة وألف ميلادية، الثامنة والخمسين وتسعمئة هجرية، لم تكن الحرب الأهلية في«ترانسلڤانيا» قد انتهت بعد، ونجح «مارتينوزي» في تشكيل ائتلاف من الهوسپودار في «مولداڤيا» و«ڤلاشيا»، وحاصرت قوّاته المقر الملكي بمدينة «غولافاهيرڤار» (ألبا يوليا)، وأجلى حلفاءه من حاكميّته، وأوقف العثمانيين عند «ديڤا»، بينما زحف جيش هابسبورغ بقيادة الچنرال «جيامباتيستا كاستالدو» إلى هناك بتفويض من الأرشيدوق، وسيطر على منطقة «تيسا» أيضًا. لقد حملت «إيزابيلّا» السلاح مع قوّاتها للدفاع عن مدينتها، لكنها لم

تتلقَ دعمًا من شقيقها «سيغسموند الثاني أوغسطس» الذي تحالف مع الأرشيدوق لإعانته على قمع معارضة النبلاء البولنديين، بسبب زواجه من «باربرا رادزويك» النمساوية، واضطرّت إلى الموافقة على الهدنة المقترحة. ولما كان دعم النبلاء في «آيود» غير كافٍ، وقد هُزمَت قوّاتها بالقرب من «چناد» وحوصرَت في «بودا»، ما عاد أمام الملكة إلا أن استسلمَت في يوليو، ووقعت معاهدة «ڤايسنبورغ»، متخلِّيةً عن «ترانسلڤانيا» مقابل «أوپول» و«راسيبورز» ومناطق مجاورة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

مجرستان، ٩٥٨ ه

«الحرب نارٌ لا تُبقي ولا تذر، لا تفرّق بين أخضر ويابس ولا تترك حجرًا على حجر، تسلب روح المغلوب وتؤرّق المنتصِر».

تطايرت الأخبار باقتراب جيش هابسبورغي من «بيست»، لكن لم يُمكن تخمين أوان وصوله، تأكّدتُ من صحة النبأ، فانطلقتُ إلى الضفة اليُمنى، ووضعتُ رسالتي حيث اعتدتُ، ثم عدتُ إلى المدينة التي انعدمَت بها الراحة مرة أخرى، لاستكمال حياتي وصديقي كغجريّيَن أصيلين.

«مريم» الصغيرة صارت في طليعة عقدها الثاني، أشهد منها ما لم أكن لأتخيله قبل سنوات، أصبحَت لا تخطئ سهمًا قط، على يدي تعلّمت النشابة كما يجب، وها هي تسدد الأسهم العشرة دون إهدار، وفرحتي بها جعلتني أصيح وأضمها وأدور بها، وهي تضحك عاليًا، حتى أصابها الدوار وصاحت بي أن كفى، فأنزلتها وأخذت أضحك وألهث، وأراقبها تركض نحو الخيام فرحة، تصيح منادية أمها، لتخبرها عن إنجازها الكبير. استقبلَتها أمها بالعناق، وألقتني بنظرة إعجاب ولوّحت إليّ، فلوّحتُ والقوس بيدي، ثم تداركتُ ذلك وعاودتُ ردّها بيدي الأخرى مبتسمًا.

نقض آل هابسبورغ المعاهدة القائمة، وهجموا على ترانسلڤانيا، فشعرتُ بصدمة شديدة لما أتاني الخبر، لكنّني اطمأننت إلى أنّ رسالتي ستصل في الوقت المناسب لرجال السُّلطان، وسيرسل المدد، فيتغير الحال. لكن لماذا لم يدخل الجيش القريب المدينة، ويعلن سيطرته المؤقتة عليها؟ أيظلّ بالقرب يجسّ نبض السُّلطان، منتظرًا ردة فعله إذا ما وافاه الخبر؟!

عبرتُ ورفيقي إلى الضفة الأخرى، فوجدنا شعارًا جديدًا محفورًا على إحدى الأشجار، فخطوتُ خطوتين وحفرتُ، حتى أخرجتُ رسالة فحواها أنّ الأمور تحت السيطرة العثمانية الآن، وجيشًا مؤلفًا من ثمانين ألف عثمانيّ يهزّون الأرض تحت أقدامهم، فاتحين القلاع والحصون التي تقابلهم دون عناء، وفي الطريق إلينا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الانتظار قاسٍ، تمرّ اللحظة به أطول من ليلة شتويّة، وليل هنغاريا ليس كأي ليل، طويل، حالك، كئيب، والصقيع يأتي في غير أوانه قارسًا، فلئن يهجم الجيش أهون علينا من انتظار وتوقُّع. جلستُ ورفيقي أمام النار، نتلمَّس الدفء الخجول خلف إحدى العربات. تنهيدة طويلة من «جابر» كانت كفيلة بجذبي من شتاتي..

«فإذا متُ يا خليلي، احزن ولا تُسرف، وهب لي من لدنكَ أدعية كثر».

نظرتُ إليه وهو يقبض على هراوته، ووجهه يحملق في اللاشيء، فاعتراني الحُزن وضاق صدري، لماذا يقول لي هذا، ولماذا الآن؟ كيف لي أن أُكمل رحلتي بدونه، أنا أفتديه بروحي إن اضطررتُ لذلك، لقد فعل لأجلي ما لم يكن ليفعله أحدٌ من أهلي، كان سندًا ومددًا ونبراسًا، طُوبَىٰ لمن كان لديه صديق مثله، ووقر في نفسي أنّ عبورنا لن يمر بسلام، متذكِّرًا قوله: «أريد أن أموت شهيدًا؛ كي أطلب لكَ الشفاعة».

وعلى حين غرّة، ظهروا من العدم بلباسهم الشبيه بأزياء المهرجين!.. الأوغاد، عشرات الجنود الذين يعملون لصالح آل هابسبورغ، لقد وقعنا في شرك نمساوي جديد، حال بيننا وبين الجسر ليمنعنا من المرور إلى الضفة اليُمنى من «الدانوب»، ولم يكن هناك بد إلّا العبور من خلالهم. ترجّل مَن معنا مِن الجنود، غجر وهنغار موالين وعثمانيين، فمنعني صديقي من الترجّل قائلًا:

- أمامكَ فرصة وحيدة باقية كي تنتصر، انسحب.. وإلّا خسرتَ.

وضرب بكفّه على ردف جوادي، فانطلق بأقصى سرعته مخترقًا صفًا من الأعداء، بينما أخذ حلفاؤنا يصولون ويجولون في قلب الكمين، باذلين أقصى ما لديهم.

اخترق صديقي صفوفهم، قابضًا بقوة على هراوته، مطيحًا بهم في كل مكان، عاملًا بمقولته الأثيرة «لا ترحل في صمت، اصنع جلبة»، بينما توقفتُ في منتصف الجسر مترجّلًا عن جوادي ممسكًا بقوسي، التفتَ إليّ وصاح بي آمرًا:

- اركض..

لم استطِع الركض، وأخذَت ذراعي اليسرى ترتجف، ممسكة بقوسي على استحياء، لقرب المسافة بيننا وبين الأعداء.. صرخ بأعلى صوته ثانية:

- اركض..

انهمر الدمع من عيني، خطفتُ «مريم» فوق الفرس بيميني، وانطلقنا بأقصى سرعتنا، وأنا لا أزيح عيني عن رفيق دربي، وهو يتوغل كالسبع في قلب دائرة الأعداء المحيطة به. لم أبتعد كثيرًا، وكبحت جماح جوادي، لا يطاوعني قلبي على ترك «جابر» يُضحي بنفسه لأجلنا، ساعدتُ الصغيرة على تسلق فرع إحدى الأشجار، وأمرتها في شدة ألّا تتحرك، فأومأت برأسها في فزع، وصعدتُ فوق فرع شجرة أخرى، وأطلقتُ سهامي، تسقطهم واحدًا واحدًا، حتى فرغَت جعبتي، لكنهم لم ينتهوا. وفي قلب الدائرة، انهمك

«جابر» يخوض معركة غير متكافئة، وكأن عشرات الجنود لم يروا غيره في الميدان، حتى ضربه سيف غادر من خلفه، حاول صده بهراوته، فأطاح بالسيف وصاحبه بعيدًا، لكن بعد أن نالته إصابة بالغة أبطأت حركته، ومهدت لطعنة رمح فاجرة أن تخترق ظهره، تبعها نصلٌ آخر يشج وجهه، أراه من مكاني وأكتم صراخي، وقد سالت دماؤه الطاهرة على عينيه، يمسحها بساعده ويترنح، فتجهز عليه طعنة أخرى من الخلف، فيسقط على ركبتيه مشوِّحًا بهراوته لكن أحاطه زحامٌ منهم، كلٌ يسابق الآخر في طعنه، حتى شد أحدهم رأسه لأعلى، ونحره فاصلًا رأسه عن جسده.

تشوّشَت الرؤية تمامًا، وسللت سيفي من غمده وقفزتُ إلى الأرض، أريد الثأر من الحقراء، وليكن ما يكون؛ لكن صرخت الصغيرة باسمي:

- سليمان..

وقفت حائرًا غاضبًا، أعرف أن المعركة خاسرة؛ والصغيرة أمانة استودعَتها أمها إيّاي، فماذا أفعل؟ ألقي في روعي أن قتل النفس أشد عند الله من هدم الكعبة، فأخذت ألهث وأقاوم شياطيني، ثم صرخت «يا الله!» وانهرت أبكي، والطفلة تبكي معي وقد اشتد فزعها لبكائي، فما اعتادت أبدًا أن تراني إلا قويًّا حاميًا لها من أي خوف. استغفرت ربي، واحتسبت عنده رفيقي الشهيد، وأعدتُ سيفي إلى غمده، مستسلمًا لما أراد من قضاء. رفعتُ ذراعي، وأشرت ل «مريم» فقفزَت الفتاة بينهما، فضممتُها إلى صدري، وقفزت بها فوق دابتي، عاملًا بنصيحة «جابر»، الذي جابه الصعاب عمرًا، وقاوم الضغائن في نواحي الأرض، ثم لقي ربه على الحال التي تمنَّى دومًا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

عبرنا إلى مسافة آمنة عند الجهة الأخرى من الدانوب، استقبلتنا طليعة الهداهد، فقال أحدهم طالبًا كلمة المرور:

- ما ليَ لا أرى الهُدهد؟

أخذتُ أحدق في الجهة الأخرى والدمع يمنعني من الرؤية، وجاوبتُه بشفتين مرتعشتين وقلب يتضخم من الألم يكاد يفتك بصدري:

- أكله.. الذئب..

قطب وقال:

- لتأتينّي بسُلطانٍ مبين..

فقلتُ وأنا أهوي رغمًا عني على ركبتي:

- أحطتُ بما لم تُحط به.

- أنّى لكَ هذا؟

- إنّه مِن سُليمان وإنّه بسم الله الرحمن الرحيم.

قال بلهجة آمرة:

- اعتنوا بكمانگير أفندي ومن معه.

أخذ اثنان أشداء يساعداني كَيلا أسقط، وأنا لا أقاوم انسياب روحي خارج جسدي، لولا صوت «مريم» تردد ما لقَّنتها يومًا: «كل الأشياء تؤول إلى نهاية، ومن كل نهاية تنبعث حياة جديدة». سقطتُ بين أيديهم، رُحتُ في إغماءتي بعد اطمئناني مؤقتًا أنّ الصغيرة بمأمن.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

عدتُ إلى وعيي فاتحًا عيني بصعوبة، لأجد «مريم» جاثمة على صدري مخبئة وجهها باكية، معتقدة أنّني فارقتُ الحياة. ضممتُها إليّ بكل ما تبقى لي من قوة، فاحتضنتني وهي تشهق باكيةً. حاولتُ النهوض جاهدًا، فأعانتني على الوقوف والخروج من الخيمة، فإذ بالعسكر ينتشرون في المكان، وأخبار فرار الهابسبورغيين تتردد في الأرجاء.

علمتُ أنّ العسكر دفنوا جثامين شهدائنا عند الضفة اليمنى حيث «بودا». بحثتُ بين الشواهد عن اسم صديقي، جثوتُ ورفعتُ يديّ متضرعًا بالدعاء، وقرأتُ الفاتحة لروحه الطاهرة، حفرتُ اسمه على هراوته، كتبتُ «جابر آلپ»، وتحته: «العملاق» وتاريخ الوفاة، ووضعتُها كشاهد لقبره، وفوقها غطاء رأسه.

ثم انتبهتُ إلي الصغيرة التي قلّدتني لكنها لم تقل شيئًا، فوجدتُني أضمّها باكيًا فربتت عليّ وقالت:

- لا تحزن أرجوك، هو الآن في مكان أفضل.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

-٢٣-

عند الظهيرة، جلس «كمانگير» أمام دكانه حزينًا شاردًا، حتى وصل «بلال» ومعه فنجانان من القهوة.

- ماذا بكَ؟

ارتشف من الفنجان، ونظر إليه قائلًا:

- لا شيء، كل ما في الأمر أنني بعد العمل أعود إلى البيت منهكًا، ولا أدوّن الكمَّ الذي أرجو، خاصة وأحداث ذلك العام مزدحمة، وفي أكثر من مكان.

- أي عام تقصد؟

- الثامن وخمسين وتسعمئة هجرية.

اتخذ «بلال» كرسيًا لنفسه وجلس إلى جواره، ابتسم وقال: - سأساعدكَ.. أنتَ ستحكي لي، وبذلك تكون قد استرجعتَ الكثير، وعند عودتكَ إلى بيتكَ، يكون كل شيء في رأسكَ. ويسهل تدوينه على الترتيب المفروض.

ارتشف من فنجانه، وأكمل:

- هيا، احكِ لي ماذا حدث بعد ذلك..

ضحكا معًا، ولكن الاقتراح أغراه بتنفيذه، فتنهّد مطولًا، ثم قال: - حاول الأرشيدوق بشتّى السُبل إقناع الملكة بالتوقيع على معاهدة، ليكون ملكًا على الأردل والمجر، وأعدّ عدته لذلك في أوّل يوليو (جُمادَى الآخرة) ، وأسرَت قوّاته الكثيرين خلال التوغّل في أراضي ترانسلڤانيا، وبذلك نقض معاهدة «إسلام بول».

- وهل علم السُّلطان بالأمر؟

- أجل، لكنه أراد المحافظة على شروط الهدنة، مع إجبار الأرشيدوق على عدم التدخل في شئون الإقليم، وسحب جنوده إلى حدودهم.

- وبعد؟

- انطلق «صوقولّو» بايلرباي روم إيلي يقود ثمانين ألفًا من العسكر صوب الأردل، فوصل «بلغراد» الثلاثاء عاشر يوليو، السادس والعشرين من جُمادَى الآخرة، وعبر من نهر «ساوه» إلى ساحل «سرم»، ليصل المدد من الآستانة بألفي إنكشاري، مع مئة وخمسين مدفع «ضربزن».

- علّه سيقصف الجنود والقلاع؟

هنا جاء الصبيّ الذي يعمل في دكان «بلال»، وخلفه رجل حسن الهندام، خمريّ البشرة، منحوت الوجه، مطلقًا لحيته، تقريبًا في مثل عمرهما، قام «بلال» يرحّب به بحرارة، ثم عرّفه على صديقه: - هذا «سليمان» صديقي عمري، عاد قبل أيام من الآستانة ويعمل في مهنة أجداده الكِرام.

صافح «كمانگير» الرجل، الذي ابتسم في وجهه وقال: - أعطاك الله العافية، ووسَّع رزقكَ.

قال «بلال»:

- هذا صديقي «عامر» وصل لتوّه من «طربولوس غرب»، سيمكث هنا لأيام، فمنذ سنوات يأخذ مني الجديد من الأقمشة التي أحضرها من الشرق.

رحّب به «كمانگير» بشدّة وقد لمس بداخله ذكرى تلك الديار، ونادى صبيّه ليأتي بكرسي للضيف، وبعد السؤال عن أحوال البلاد وما شابه، قال «بلال»: - «سُليمان» ظلّ يجوب الدولة طيلة ثلاثين عامًا، يا «عامر»، وزار أرضكم ضمن ما مر به من بلدان.

تعجّب «عامر» وغلبه الفضول سائلًا:

- يا الله! وماذا كنتَ تفعل يا أخي؟

نظر «كمانگير» لصديقه منبِّهًا، فلم يحكِ التفاصيل، واختصر حديثه، لكن الرجل استفاض في حديثه عن «طربولوس غرب»..

- في ذلك العام كان الضيق قد وصل بنا إلى أقصى حد، من جرائم فرسان مالطه، يفرضون علينا المغارم الكثيرة، ويجبّون أموالنا، ويأخذون منا الكثير من الرهائن.

صرخ «بلال»:

- رهائن! لماذا؟!

ردَّ «كمانگير»:

- لتأمين أنفسهم بالطبع، خوفًا من الانقضاض عليهم يومًا.

أومأ «عامر» موافقًا، وأكمل:

- لقد استغثنا بخليفة المسلمين السُّلطان «سُليمان خان».

قال «كمانگير»:

- كان السلطان قد ضاق بأعمالهم ذرعًا، من قرصنة وسلب ونهب لسفننا المارة في بحر الروم، فمنذ إقامة نظامهم قبل عقود وهُمْ يكنّون العداء لملّتنا، بأمر من سيّدهم الأكبر، الذي ينفّذ تعليمات البابا في روما.

قال «عامر»:

- من القرصنة تكوّنَت ثرواتهم الطائلة، ولم يكفّوا عن المناوشات طمعًا في المزيد.

- خنازير!

قال «بلال»، فأكمل «كمانگير»:

- لقد طردهم السُّلطان في بداية عهده من جزيرة «رودس»، قبل ذلك الوقت بأكثر من أربعين سنة، فاستقرّوا في جزيرة «مالطه»، ملتجئين إلى «شارلكان»، الذي أوكل إليهم مهمة إدارة «طربولوس غرب»، وبمرور السنين، تمكّنوا من تحصين الجزيرة، وصارت وطنهم الثالث، ومنها استمدّوا اسمهم الجديد.

أكمل «عامر»:

- فرسان مالطه.

قال «كمانگير»:

- لقد اتّخذوها قاعدة حصينة لمواصلة حربهم ضد المسلمين برًّا وبحرًا بحماسة لم تفتر، وراحوا يقومون بأعمالهم السابقة كما كانوا يفعلون في «رودس»، يغيرون على سُفن التجارة العثمانية كلّما سنحت لهم الفرصة، ويشاركون في كل المعارك والتحالفات ضدّ العثمانيين، لقد دخلوا التحالف المقدس بكل قوتهم أثناء معركتي «پروزه» و«جربه» البحريتين.

قال «عامر»:

- وحين تضيق السُبُل بالقراصنة النصارى؛ يلجؤون للاحتماء بموانئهم.

- فماذا فعل السلطان؟

سأل «بلال»، فأجابه «كمانگير»:

- اختار السُّلطان أقدر قباطينه للقيام بهذه المهمة غير اليسيرة، والذي شارك من قبل في الغزوات التي شنّها القبودان الأسبق «بربروس» على سواحل إسپانيا لإنقاذ الأندلسيين المضطهدين، سواءً كانوا على ملّتنا أو غيرها، ونقلهم إلى موانئ «الجزائر» و«تونس».

ابتسم «عامر» معجبًا، وأكمل:

- «طورغودچه بك». أراك متابعًا مميزا للتاريخ يا «سُليمان».

تدخل «بلال»:

- تذكرتُ الآن التجهيزات لتلك الحملة هنا، كان «سِميز علي پاشا» والي مصر يعمل جاهدًا على ذلك، وانطلق «سِنان پاشا» يقود العسكر الذين تمّ جمعهم.

قال «عامر»:

- بالضبط. هو من قاد الهجوم البرّي من ناحية الشرق..

قال «بلال» بحماسة:

- أكمل، وماذا حدث؟

- فرَضَا عليها حصارًا شديدًا، واستمر القصف لمدة ستة أيام، ونحن ندعو الله أن ينصر عسكر الإسلام على أعداء ملّتنا.

- استمر..

- لم تستطِع الحامية الإسبتاريّة الصمود أمام العثمانيين في البرّ أو في البحر، فاضطروا إلى التسليم، في يوم لن أنساه ما حييت، الأربعاء ثالث شعبان الخير، خامس عشر أغسطس.

- يا الله! وبعد؟

- بفضل الله، ثم السُّلطان وعسكره، تخلّصنا من نفوذهم واستغلالهم، وأقسَمنا على الولاء للسُّلطان طواعيَة، وعلى الإخلاص لدولته ووالیه.

ابتسم «كمانگير» وقال:

- بعد هذا الإنجاز المشهود، عُيّن «طورغودچه بك» واليًا على الإيالة الجديدة، وراح «پاشا طربولوس» يعمل ساهرًا على إدارة وتنظيم شؤونها، وإعادة الاطمئنان والأمان إلى نفوس أهاليها.

قال «عامر»:

- أشهد.. ورغم إدارته الحكيمة؛ لم يهمل الغزو في البحر، وراح يقوم بالمطلوب دون كلل.

قال «كمانگير»:

- وصارت بلادكم من أجمل وأقوى البلاد على الساحلِ.

- رغم بُعد إيالتنا عن القسطنطينيَّة، لم نشعر بذلك أبدًا، لم يُقصِّر البايلرباي ناحيتنا مثقال ذرة، أحببناه بحق.

أومأ «كمانگير» موافقًا، ثم أغمض عينيه في راحة، منتشيًا بسيل الذكريات الذي أهداه إليه الرفقاء، وأكمل: - ثمّ أَمَرَ السُّلطان بتعزيز موانئهم بالسفن الحربية، وكذلك «الجزائر»، لصدّ طموح الإمپراطور من جهة سواحل إسپانيا، وناپولي جنوبي مملكته.

أنهى أذان العصر حديثهم، فنهض ثلاثتهم للصلاة، ثم دعاهم «بلال» للغداء في بيته، حيث أعدّ مسبقًا المسكن الذي سيقيم به صديقه في مصر.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

استقبلته «مريم» بحماسة، عانقته، سألته:

- أأعدد لكَ القهوة الآن؟ أم تريد العشاء أولًا؟

- لا هذا ولا ذاك؟

- لماذا؟

- قام «بلال» بالواجب وزيادة.

حكى لها عن زيارة الصديق، وما حدث، ابتسمَت وهي تداعب لحيته، قطّب وضيّق حدقتيه، وقال: - ها، ماذا تريد حبيبتي؟

ظلّت صامتة أمامه ترمش، فابتسم قائلًا:

- قولي ماذا تريدين، قبل أن أخر جاثيًا أمام تلك الرموش.

قالت:

- لقد قرأتُ ما كتبت ...ألن تكمل لي حكاية الملكة؟

تنهّد مطوّلًا وزالت ابتسامته شيئًا فشيئا، افترشا الأرض وقعدا متقابلين، قال: - أقنعها الأسقف «مارتينوزي» بأنّ التحالف مع الهابسبورغ مربح جدًا لعائلتها ولترانسلڤانيا، وتمّ تأكيد هذا الاتفاق في أغسطس بالسنة نفسها في «كولوسڤار» (كلوچ ناپوكا).

قالت بنغمة حزينة:

- تخلّت الملكة عن تاج المجر المقدس!

هزّ رأسه أن نعم، قالت:

- أكمل.

- تمّ قطع الصليب الموجود أعلى التاج.

- لماذا؟

- ليحتفظ به ابنها «چون»، الذي كان يأمل يومًا ما في إعادة دمجه، واعتُبر مخطوبًا لسليلة آل هابسبورغ «چوانا»، ابنة الأرشيدوق ذات الأربع سنوات.

شهقَت متعجبة:

- أربع سنوات!

- للسياسة أحكام.

قطّبَت قائلة:

- أكمل.

- وبذلك؛ احتفظ «مارتينوزي» بمنصب ڤويڤود «ترانسلڤانيا» حاكمًا للإقليم، وأصبح رئيس أساقفة «إسترغوم»، وهكذا تمّ لمّ الشمل مرة أخرى، لكن لم يستطِع الأرشيدوق الوفاء بوعده وإيقاف التقدّم العثماني.

- وماذا فعلَت الملكة؟

- غادرت الملكة «ترانسلڤانيا» في سبتمبر.

بدا عليها الحُزن وقلبَت شفتها السفلى وقالت: - إلى أين؟

- إلى «أوپول»، وعندما توقفَت للاستراحة عند أبواب بلدة «ميسزيس» الحدودية، خبأت شعارها المحفور على خاتم ذهبي في لحاء شجرة بلّوط عتيقة..

شهقت قائلة:

- كما حدث للملكة في أسطورة «إرادة المصير». آملة في العودة مرة أخرى.

- بالضبط.

- أكمل.

- دخلَت إلى «أوپول»، وجدَتها مدمرة تمامًا، كانت المباني التي ستعيش فيها غير صالحة للسكن، وكان الدخل نصف ما نصّت عليه المعاهدة، ولم يُسرع الأرشيدوق في دفع المبالغ النقدية المتفق عليها.

- وماذا فعلَت؟

- بعد شهر واحد فقط؛ تركَت «أوپول» مغادرَة باتجاه «پولندا».

- «پولسكا» تقصد؟

هزّ رأسه أن نعم. وأكمل:

- واستقرَّت عند عائلتها هناك، منحها شقيقها «كريپيتسي» و«سانوك»، ومنحتها والدتها «ڤييلو»، لتزويدها بالدخل المناسب.

- كيف عرفتَ كل هذا؟

ابتسم وحدّق فيها مطوّلًا وهو يقول:

- لم تكن وظيفة الهداهد هيّنة أبدًا يا حبيبتي.

ابتسمَت ثم تثاءبَت وقالت:

- أكمل.

أشاح برأسه آبيًا، وابتسم قائلًا:

- يكفينا هذا القدر الليلة، فأنا متعبٌ جدًا، سأخلد إلى النوم.

قطّبت مرة أخرى، وقالت:

- في الغد ستكمل كل شيء.

- إن شاء الله.

نهضا، رفعَت ذراعه وانطوت تحته، وذهبا إلى غرفتهما، فبدّل ملابسه، وخلدا إلى النوم.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

اجتمع ثلاثتهم بعد صلاة الظهر، أمام دكان «بلال»، أحضر الصبي فناجين القهوة، بعد الرشفة الأولى قال «بلال»: - ماذا حدث بعد وصول المدد من الآستانة؟

ارتشف «كمانگير»، قال وهو يتأمّل الفنجان:

- عبر العسكر من نهر «طونه» يوم الجمعة، السادس والعشرين من شعبان، ومروا من صحراء «سكدين»، وكان قد أُعدَّ جسرًا قوي البنيان على نهر «تيسه» فعبروا عليه، حاصروا قلعة «بچي» المتينة، بعشرة من المدافع المخصصة لضرب القلاع، وشرعوا في قصفها ليل نهار، وخلال عدة أيام فتحت الثغرات بالقدر الكافي، وهجم العسكر هجومًا شاملًا، ودخلوها، متعقبين الجنود الفارّين في شوارع القلعة شارعًا شارعًا. تمكّنوا من العثور

على الذين اختفوا منهم، وبعد ذلك، وضع «صوقولّو»، أفرادًا وأغوات بالقدر الكافي بداخلها.. ثم توجّهوا إلى قلعة «بچرك» وحاصروها، وأقيمت المتاريس والمدافع، وطلب مَن بداخلها الأمان قبل الشروع في الضرب، فنجوا بأنفسهم، وتمّ تنظيم هذا المكان أيضًا. وانتقلوا إلى قلعة «وارات»، فسلّم الأهالي مفاتيحها لإنقاذ أرواحهم.

بدا الاهتمام أيضًا على وجه «عامر»، فابتسم «كمانگير» وهو يتابع نظراتهما: - عند الوصول إلى قلعة «قنلاق»، سلّم الرعايا قلعتهم بالأمان، وسُمح لهم بالذهاب إلى أوطانهم، وتوجه العسكر والأعلام إلى قلعة «چناد». وعند رؤية الحامية، تم سحب المدافع المخصصة لضرب القلاع بالجاموس، ونقلها إلى المواضع اللازمة، فلم تبقَ لديهم قدرة ولا قوّة على المواجهة، حيث غلب عليهم الخوف والفزع، فطلبوا الأمان، وضُمَّت قلعتهم إلى ممالك الدولة، واكتملَت مستلزماتها كما ينبغي.

وضع «بلال» فنجانه بعد أن انتهى منه، وسأل بلهفته المعتادة: - وبعد ذلك؟

ابتسم «كمانگير» وهو يقول:

- بالطبع لن أقصّ عليكم تفاصيل فتح أكثر من اثنتي عشرة قلعة.

قال «بلال» متعجبًا:

- وما المانع؟

- حتّى أستطيع التدوين يا صديقي.

ثم ارتشف وقال:

- المهم، استمرّ الوضع هكذا، والانتقال من قلعة لقلعة حتى منتصف رمضان المبارك، نقاوم تقلّبات سبتمبر الذي لا يهدأ، ولا هدأ العسكر، والحاميات تخلي القلاع بمجرد اقترابهم. وبعد الوصول إلى «تيميشڤار»، دخل العسكر في المتاريس.

هز رأسه شاردًا، ثم استطرد:

- في الحقيقة، لقد بذلوا أقصى جهدهم للسيطرة على قلعتها، لكن تقلّب الجو، وحلول موسم البرد، وكثرة الأمطار والاضطراب، حالوا دون ذلك. لقد نفدت قدرتهم على الصبر، عندما امتلأت متاريسهم وقنواتهم التي تحت الأرض بالماء، وصرفوا النظر عن فتحها، وقد أصبح واضحًا أنّ فتحها مرهون بالوقت المناسب. عرض واقع الأمر على الركاب الهُمايوني؛ فأذن للعسكر بالانسحاب، وصدر الأمر بقضاء «صوقولّو» الشتاء في «بلغراد»، وإتمام

مستلزمات الحرب ومهماتها، آملًا العودة من جديد، بحملة أكبر في الموسم التالي.

قال «بلال» باللهفة نفسها:

- أكمل ماذا حدث في العام التالي.

- أما يكفيك عامٌ بكامله في جلستين يا صديقي؟! عليّ أن أكمل عملي، وإلّا فلماذا تركنا بيوتنا؟

ابتسموا جميعًا، وقال «بلال»:

- آه منكَ يا «سُليمان» آه، طيلة عمركَ لا تكفّ عن تشويقنا.

تركهما، وذهب إلى دكّانه ليكمل عمله، فاستقبله الصبي بابتسامة عريضة، وبشَّره بإتمام بيع بعض الأقواس والأسهم والجعب بثمن أسعده. أغدق عليه بالبخشيش، فكاد يطير من الفرحة وهمَّ بتقبيل يده؛ فسحبها بسرعة وأخذ يستغفر، وأمره ألّا يفعل ذلك مرة أخرى، فابتسم الولد مذعنًا، وأخذ يتابعه بنظرة الإعجاب التي اعتادها.

بعد صلاة العشاء، التقى ثلاثتهم ب «سَمعان»، وذهبوا جميعًا إلى المقهى، فلعب «بلال» معه الشطرنج، وهُزم كعادته، اكتفى «سَمعان» بنصره الليلة، جلس مكانه «عامر» يلاعب صديقه، بينما جاور «سَمعان» «كمانگير»، وقال: - ألن تخبرني ماذا فعل الأُسقف؟

حدّق فيه مطوّلًا وهزّ رأسه وقال:

- كان على «مارتينوزي» والچنرالين الإمپراطوريين «جيامباتيستا كاستالدو» و«سفورزا پالاڤيتشيني» الاتحاد ضدّ عدوّهم المشترك.

- العثمانيين؟

هزّ «كمانگير» رأسه مؤكدًا:

- بالطبع.

- وهذا ما حدث؟

- أجل.

- بعد سيطرة العثمانيين على «چناد»، ارتأى «مارتينوزي» أنّه الوقت المناسب للسلامة العامة. خطط إظهار الطاعة والولاء للسُّلطان، والميل لمساعدته في إخضاع الإقليم مرة أخرى، على أن يُبقيه ڤويڤودًا على

«ترانسلڤانيا»، متعهدًا بإرسال الجزيّة لتهدئته، وحاول التوسط بين العثمانيين والهنغار، عندئذ اتّهمه «كاستالدو» بالخيانة، وبعث إليه بذلك.

سأل «سَمعان» مشدوهًا:

- وماذا فعل الأرشيدوق؟

- كان عليه التأكّد من صحّة ما أُخبر به أولًا.

- وضع جاسوسًا في القلعة يراقب كل تحركات الأُسقف؟

أومأ «كمانگير» موافقًا وقال:

- «ماركو أوريليو فيراري».

- من هذا؟

- مساعده الخاص.

- الوغد! ووافق؟

- أغدقوا عليه بالذهب الكثير، مع بذل الوعود العظيمة له. قام البابا «يوليوس الثالث» بتسمية «مارتينوزي» كاردينالًا في الثاني عشر من أكتوبر، راح يدير الأمور بحزم ودراية وحنكة، وأصبح القادة والساسة يحسبون له ألف حساب، ورؤيتهم لمواقفه السياسية تزداد ضبابية.

لوَّح «سَمعان» بيديه قائلًا:

- وكيف لا وهو ينهل بنهم على كل الموائد.. ماذا حدث له؟

صاح «بلال» فرحًا:

- مات الشاه.

انتبها إليه، بينما «عامر» يبتسم غير مكترث بهزيمته، قال «بلال»: - أتود اللعب مرة أخرى؟

ابتسم قائلًا:

- لا مانع.

لعبا من جديد، بينما ابتسم «سَمعان»، نظر إلى صديقه قائلًا: - ها، أكمل يا صديقي.

- يقولون إنّ أمطار ليلة السابع عشر من ديسمبر لم تتوقف.. وبينما كان الكاردينال «مارتينوزي» بقلعة «ألڤينك»، وصلته رسالة لا أحد يعرف

مرسلها، أثناء إطلاعه عليها، جاء مساعده «فيراري» على حين غِرة، وطعنه من الخلف. قاتل الكاردينال مدافعًا عن نفسه، لكن وصولَ الفرقة المخوّلة بتصفيته بقيادة «پالاڤيتشيني» غيَّرت مجرى الأحداث، لم يتركوا له فرصة للمقاومة، قتلوه، وتوقفَت سِني عمره عند الثمانية والستين.

قال «سمعان» مغتاظًا:

- الخنازير. لن يمر مقتله مرور الكرام، ماذا كانت ردود الأفعال؟

- أعلن «فرديناند» المسؤولية الكاملة عن تلك الواقعة.

- الوغد! وماذا فعل البابا في روما؟

- عندما وصله الخبر، أعلنها صريحة ودون تردد؛ حرمان الأرشيدوق الهابسبورغي وچنرالاته من التواصل والدعم الپاپاويّ حتّى إشعار آخر.

- يستحقون.

استمرّا يتحدثان، حتّى شعر «كمانگير» بالنعاس، فاستأذن وتركهم ذاهبًا إلى بيته.

كعادتها استقبلته «مريم» لدى الباب، احتضنته، ضمّها إليه، اعتذر منها عن عدم مقدرته على الحكي الليلة، لم تضجر وابتسمَت، دخل غرفته، جلس إلى مكتبه مترددًا في إمساك الريشة، أيُعيد التدوين؟ أم يكتفي بما قصّه على السائلين؟ اتخذ قراره، نهض إلى فراشه، وفي نيّته تدوين ما حكاه ولكن في الليلة التالية.

صحا عند الفجر، ولما عاد من صلاته، أعدّ القهوة بنفسه، لتمدّه بقوّة التركيز. راح الضوء يتراقص منبعثًا من قنديله، غمس الريشة في المحبرة، ودوَّن..

«.. لم يكن الهجوم على «ترانسلڤانيا» وتنازل الملكة وابنها مجبرين عن العرش مغادرين إلى «پولندا»، ليمرّ مرور الكرام. ضرَبَ الهابسبورغيّون بالمعاهدة عرض الحائط، ازداد غضب السُّلطان لتأخير فتح قلعة «تيميشڤار»، ولاستيلاء النمساويون على قلعة «لبوه»، ولذلك عيّن الوزير الثاني «كارا أحمد پاشا» قائدًا للجيش».

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

-٢٤-

فوجئت «مريم» عندما دخلَت الغرفة أن وجدته لم ينزل للدكان. أخبرها أنه متعب، وأن عليه تدوين أحداث السنة التاسعة والخمسين وتسعمئة هجرية. ذهبت، وعادت بعد قليل ومعها قهوته، وضعَتها أمامه، ووقفت تقرأ ما يكتب باهتمام. أخذ رشفة ساخنة، وهز رأسه مستحسنًا قهوتها، ثم غطّ الريشة في المحبرة، وعاود الكتابة، وجلسَت هي في هدوء على الكرسي قبالة مكتبه، حتى تنهد ووضع الريشة، ونظر إليها مبتسمًا. قالت: - ماذا فعلتَ أيها الهدهد الكبير، بعدما اكتشفتَ سرقة الرسائل؟

ابتسم قبل أن يجيبها:

- كتبتُ رسالة أخرى، سلّمتُها لهدهد بعينه، قويّ ومقدام للدرجة التي لن يحتاج فيها لرفاق طريق، فمهمّته غاية في الخطورة والسرِّية. أرّقني أن يكون هناك خائن بين الهداهد، فهي المرة الأولى منذ تشكيل كتيبتي، التي اخترتُ رجالها سمتهم الإخلاص والأمانة، وعلى استعداد لتقديم أرواحهم فداءً للمهام المكلّفين بها. عاد الساعي بأخبار جديدة، أجَّلت لأجلها مهمّة الإيقاع بالخائن، وفرحتُ مؤقتًا بخبر تحرّك العسكر.

- إلى أين تحركوا؟

- في البداية، خرجوا من «أدرنه» في اليوم السابع والعشرين من ربيع الآخر من سنة تسع وخمسين وتسعمئة، أي بعدما غادرت الملكة بعام. انقسم الجيش إلى فرقتين، إحداهما بقيادة «خادم علي پاشا»، الذي بدأ حملته ضد غرب ووسط البلاد، والثانية، بقيادة «كارا أحمد پاشا»، وفي معيّته «صوقولّو محمد پاشا»، الذي هاجم الأجزاء الشمالية. لم تستطع القلاع والحصون الموجودة عرقلة طريقه إليهم، وسيطر العسكر عليها بسهولة، لترجّح كفّة العثمانيين نصرًا بعد نصر، حتى جاء دور «تيميشڤار»، فجمع الوزير الثالث «صوقولّو» حوله العسكر في بلغراد، وأمر ببناء جسر قويّ على نهر «طونه»، وعبروا، وبمجرد وصولهم، حاصروا قلعة «تيميشڤار» في الأربعاء الخامس من شهر رمضان، ثالث سبتمبر، نصبوا المدافع في أماكنها المطلوبة وشرعوا في القصف.

قطّبَت قائلة:

- لماذا لم تستسلم القلعة؟

- أظهر قومندانها شجاعة منقطعة النظير، رغم قلّة أعداد الحامية، لم يستسلموا، لم يقصّروا في الزود عن قلعتهم، وأظهروا شجاعة لا تضاهى.

كذلك فعل العسكر، كانوا يتسابقون في الهجمات متقدمين على بعضهم بعضًا لا يخشون الموت، ثم قيل إنّ جواد «صوقولّو» ضُرب ببندقية على غِرة وسقط.

شهقت قائلة:

- مات؟

- مات الجواد، ونهض الرجل مسرعًا، فأسقط جنديًا منهم وأخذ جواده، وسيطر عليه في الحال، ولم يتأخّر عن الهجوم..

.. واستمر القتال لخمسة وثلاثين يومًا، لا تتوقف المدفعيّة عن صبّ قذائفها على جدران القلعة، حتى يوم الجمعة، الخامس والعشرين من جُمادَى الآخرة سنة تسع وخمسين وتسعمئة هجرية، السابع والعشرين من يونيو، انهار الجدار، ودخل العسكر المدينة بعد عشرة أيام، واستسلمَت الحامية وطلبوا الأمان، لكن قائدهم «استيڤان لوسوتزي» لم يحتمل كبرياؤه صعوبة الموقف، فضرب أحد العسكر بالسيف، فاعتُبر ذلك نقضًا لعهد الاستسلام، وضرب العسكر كل من حاول الفرار عبر بوابة أزاپيلور، فصاروا ما بين أسير وقتيل.

قطّبت بحزن قائلة:

- وماذا حدث ل «استيڤان لوسوتزي»؟

- كان مجروحًا في موضعين من جسده، أحضره العسكر أمام «أحمد پاشا» ولعدم تحسن جرحه أمر بقطع رأسه وإرسالها إلى السُّلطان..

اقشعرت «مريم»، فهز رأسه مقدِّرًا رهافة القوارير، وأراد الاكتفاء، لكنها أشارت له أن يكمل..

- صارَت «تيميشڤار» إيالة عثمانية، قُسّمَت إلى عدة سناچق، ونُظمت كما يجب، ثم رحل العسكر عنها، ينتقلون من مكان إلى مكان، ويسيطرون على القلاع التي يقابلونها، حتى فتحوا أكثر من ستة عشر قلعة، وانطلقوا نحو قلعة «صونلق»، فأصابت الرهبة قلوب أهاليها، وتركوا ديارهم ومنازلهم، وتواروا في الجبال والغابات والمستنقعات، ثم أرسلوا وفدًا منهم بوساطة أمراء الحدود، يعلنون الطاعة والانقياد، وبهذا نال ما يقرب من ثلاثين ألف منهم منزل الأمان.

ابتسمَت قائلة:

- رائع. أكمل.

- نزلوا في اليوم السابع أمام «صونلق»، إلّا أنّ «خادم علي پاشا» بايلرباي «بودا» تقدم إلى القلعة وحاصرها، وكان على وشك إقامة المتاريس عليها، عندما أصيب جند الحامية المحاصرين بحمى النجاة برءوسهم، وفرّ قائدهم وفرسانهم تحت جنح الليل إلى إحدى النواحي، والمشاة إلى ناحية أخرى. تعقبهم العسكر في الحال ولحقوا بهم وفتكوا بمعظمهم، وزفُّوا قائدهم بطبل ومزمار إلى السردار، ونال كل شخص المكافأة التي يتمناها من ذهب وفضة وسيوف مرصعة وخلع فاخرة وجياد وغيرها الكثير، وارتفعت المعنويات، فاستمروا حتى وصلوا إلى قلعة «أگري» (إيرلو) الحصينة، وحاصروها على مدى خمسة وأربعين يومًا باذلين أقصى جهدهم، حتى مات عدد ضخم منهم، أمام صمود قائدها «إستيفان دوبو» ومع تبدّل الهواء، وحلول الصقيع الذي غطّى الخيام، والمشقة في جبهات القتال طوال السنة، اضطروا في السابع عشر من شوال إلى رفع الحصار عنها، وعادوا إلى أوطانهم.

سألته في فضول وهي تشير إليه: - وأين الهدهد الكبير من كل هذا؟

- كان في «بودا» يقوم بمهامه، وبعد هذه الأحداث استدعاه الوزير الثالث «صوقولّو» في «بلغراد» فأثنى عليه، وبدأ في استمالته إليه، وكلّفه ببعض المهام، وأوصاه بمراسلته في حال احتاج إلى عون، وبإطلاعه على مجريات الأمور في تلك الديار، فإيالة الروم إيلي ليست ببعيدة.

قامت وعانقَت رأسه، تضمه إلى صدرها بقوّة، وقبّلَته بين عينيه مشفقة عليه، شعرَت كيف أنّ التدوين شاق إلى حد بعيد. ابتسم مغمضًا، يشهق ويزفر بأريحية وبأنفاس منتظمة على غير عادته، لا يكون هكذا إلّا بين يديها، هي الراحة ولا راحة من دونها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ظلّ شاردًا في قلب دكّانه، جالسًا على كرسيه ممسكًا بقوس لم يكمل شد وتره، والصبي يتابعه متعجبًا دون التفوّه.. ارتجف القوس في يده المرتعشة وهو يتعرّق متذكرًا ما حدث تلك الأيام.. وعندما عاد إلى بيته، دوّنها..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

مجرستان، ٩٥٩ ه

«سَيْفان في غمد واحد لا يجتمعان».

لم يكفّ النمساويّون عن مناوشاتهم، وكان عليّ الذهاب إلى قلب النار لتقصّي الأخبار، فانطلقتُ مع بعض الهداهد وتفرّقنا في إحدى الحانات الواقعة شمال «بيست»، حيث كان لجواسيس الهابسبورغ اليد الطولى هناك. انتشر الجنود النمساويون، يشربون ويثملون ويلهون، حتّى تأتيهم الأوامر بفعل شيء، وعلى حين غرّة من السكارى، ضرب أحد الضباط النمساويين باب الحانة بقدمه، دخل وهو يجرّ في يده أحد الرجال، صرخ فيه: - ألن تتكلم؟!

دخل خلفه جنوده يضربون جسد الرجل بمؤخرات بنادقهم بقسوة وغيظ، طرحه أرضًا في وسط المكان، وانهال عليه ورجاله بالضرب، خلع عنه غطاء رأسه، وضرب رأسه بقسوة، فسال منها الدم، والرجل في صبر وجلَد زادهم غيظًا، لم يصرخ أو يتأوّه، أو يتفوّه. قال الضابط وقد أعماه الغضب وهو يقبض بيده على رأس أسيرهم، ولم يجد شَعرًا لجذبه: - أين الخصلة التي سيعرفكَ منها «محمد»؟ ها، أين؟

ضحك الجنود، بينما أكمل معبَّأً بالغيظ: - سأجعلكَ تلحق به إلى الجحيم فورًا.

أمسك ببندقيّته الملقّمة مسبقًا، وفجَّر رأسه أمام الجميع. ثم نظر إلى كل من في الحانة وقال: - إلى كل جواسيس العثمانيين الذي يملؤون المكان، هذه الرسالة موجّهة إليكم، سأوقع بكم الواحد تلو الآخر، ولن يطول اختباؤكم.

ترك الحانة وانصرف برجاله، فترك «سونگر» الطاولة مسرعًا إلى الخارج، فنهَضتُ ولحقتُ به، وأمسكتُ بذراعه قائلًا: - إلى أين تذهب؟

- سألحق بالديُّوث وأقتص منه.

- ليس الآن.

- قتل صديقي أمام أعيننا، لن أنتظر.

كبحتُ جماح نفسي، وكزّزتُ على أسناني مؤكّدًا: - لن تذهب إلى مكان، لقد عرفناه، وسنوقع به ونأخذ منه المعلومات، ثمّ نعاقبه على فعلته.

جذب «سونگر» يده بغيظ، وظلّ يزفر بحنق، وقد أعماه غضبه إلى حدٍ بعيد.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في اليوم التالي، دخل «سونگر» إلى وكر الهداهد، يجرّ خلفة الضابط المقصود، وقد غطّى وجهه بجراب، نزعه عنه، فبدا عليه الذعر جليًّا وهو يبكي ويولول كالنساء، يستعطفه حتى لا يؤذيه. فوجئتُ بهذا الفعل، لكنّني ظللتُ صامتًا أراقب ما يحدث، لعلّ النمساويّ يدلي بأخبارٍ تصلح لإرسالها، أو خطوة استباقية تطلعنا على نوايا الهابسبورغيين، كان هَمّ «سونگر» الأوّل الانتقام لصديقه، ظل يسبّ ويلعن الضابط،، ثم أخرج خنجره وقرّب نصله من رقبته وقال: - ستذهب أنتَ إلى الجحيم الآن.

وبسرعة نحر عنقه دون إرماش.

دفعتُ «سونگر» الذي أعماه الحقد، تفحصتُ الرجل فوجدتُه قد فارق الحياة والدم يسيل من عنقه، صرختُ فيه: - ماذا فعلتَ أيّها الأحمق؟! كانت في أيدينا فرصةً نادرة أن نأخذ منه أيّة معلوماتٍ تنفع الدولة، نحن في حرب، ووجوده كأسير أنفع بكثير من جثته. غبي، نَظِّف فوضاكَ، واستعد لعقوبتكَ.

خرجتُ من الوكر منفعلًا، لم أتوقع أنّ الأمور ستسوء إلى هذه الدرجة، الأوضاع الحالية لا تتحمّل مثل تلك الأفعال، وعلى من يعملون معي ألّا يفعلوا شيئًا إلّا بإذني، فمن أعطاني تلك الصلاحيات السُّلطان نفسه، وبكلمة مني يمكن نفي «سونگر» تمامًا، لكنّني لا أسعى لإيذاء أحد، والدولة في أمسّ الحاجة لكل جنديّ في هذا التوقيت. ضاق صدري، وأخذتُ أبحث عن أنفاسي، في محاولة عقيمة لإبعاد الغضب والأفكار السيئة عن رأسي، لكنّ السؤال الوحيد الذي ظل يؤرقني، واجتاح رأسي من جديد: «من يؤخِّر الرسائل؟».

وفي اليوم التالي، جاء أحد الهداهد يحمل رسالة: «.. بعدما نجح «پيري رئيس» في السيطرة على «مسقط»، يوم الخميس، عاشر ذي القعدة، سادس نوڤمبر، أبحر نحو مضيق «هرمز»، ونجح في السيطرة عليه وعلى مجموعة الجزر الصغيرة المحيطة به، لكن القلق ساوره من مقاومة حامية قلعة جزيرة «هرمز»، وانتابته المخاوف من حدوث هجمات مفاجئة من قبل أحد الأساطيل البرتغالية، فرفع الحصار وانسحب إلى خليج البصرة، في خطوة اعتبرها صائبة. وفي الوقت الذي وصل فيه الأسطول العثمانيّ إلى البصرة، جاءت الأخبار أنه قد وصل بالفعل إلى مشارف المضيق أسطولٌ برتغاليّ قوي..».

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

-٢٥-

الحملة، ٩٦٠ ه

«للسيف حدان، وللِّسان مئة حد».

بلغنا أن الأرشيدوق سحب قوّات «كاستالدو» من «ترانسلڤانيا». ووُقِّعَت معاهدة جديدة بين السُّلطان ونظيره «هنري دو ڤالو» ملك الفرنك، الذي حرص كل الحرص على الألفة والاتحاد، للاستعانة بعمارتها البحرية عند الحاجة. وبسبب حملته الكبيرة على الصفويين، لم يستطِع السُّلطان إرسال دعم بحري كبير أثناء الحملة على «كورسيكا»، فسارت مراكب الدولتين، بعد شنّ الغارة على بلاد «كلابريا» وجزيرة «صقلية»، ونجحوا في السيطرة على جزيرة «كورسيكا»، لكن لوقوع النفرة بين القبودانين لم تدُم سيطرتهم طويلًا، وافترقَت العمارتان، ورجع القبودان العثماني إلى الآستانة، لتكون بذلك آخر حملة حارب فيها العثمانيون والفرنك كتفًا لكتفٍ، قبل أن تتغيّر الأحوال وتتبدّل الظروف.

لم أكن أعلم مغزى الحملة على «نخجوان»، وحين تمّ العبور من «آق أبوك»، بالقرب من «أرگلي»، أقام شاهزاده «مصطفى» خيمته وبلاطه والأوتاق الخاصة به وسرادقه، وأقبل عليه أركان الدولة، قبَّلوا يديه وخُلعت عليهم جميعًا الخلع الفاخرة..

استُغل انطلاق الحملة الثالثة لحرب الصفويين، وكُتب إلى السُّلطان أنّ ابنه شاهزاده «مصطفى» تحالف مع الأعداء، وذلك عبر تزوير ختمه واستخدامه في رسائل تعاون وصداقة باسمه إلى شاههم «طهماسپ»، الذي استجاب لهذه الرسائل، وبادله الجواب عليها، واستُخدِمَت هذه الرسائل لإثبات تهمة الخيانة عليه، وأُشيع أنّ الأمير يحرّض الإنكشارية على عزل والده، لتنصيبه بدلًا منه، كما فعل السُّلطان «سليم» مع أبيه السُّلطان «بايزيد». وصل الخبر إلى السُّلطان، فأوجع صدره بالغضب والأسى في آنٍ معًا، وأرسل في طلب ابنه، الذي نصحته والدته ومساعدوه بعدم الذهاب، لكنّه انحصر بين أمرين أحلاهما مُرّ، فلو رفض الذهاب فسيكون عاصيًا لأبيه، ولو ذهب لخاطَر بحياته بسبب ما أُشيع عنه.

استجمع الأمير شجاعته، وذهب حيث خيمة أبيه، وتقدم أمام الوزراء وسَلَّم على الذين أمام الخيمة الهمايونية، وكان والده يجلس على تخت السَّلطنة، فانحنى له جاثيًا تقديرًا واحترامًا، إلّا أنّ بعض الحُجّاب من فرقة الجلّادين، صُمٌ بُكْمٌ، لا تأخذهم بضحاياهم شفقة ولا رحمة، لم يمهلوه الوقت للخلاص،

وكما حدث في السابق للصدر الأعظم «إبراهيم پاشا البرگلي»، انقضّوا عليه وخنقوه بحبالهم الحريرية، ليكتبه التاريخ ضحيَّةً جديدة للغضب السُّلطانيّ.

انتشر خبر إعدام الأمير بين العسكر، فاندلعَت حالة عارمة من الحزن والغضب، لأنّه كان محبوبًا لدى العلماء والشعراء، لاشتغاله بالأدب وميله إلى الشعر، ولدى الإنكشارية لشجاعته. ثاروا موجِّهين اتهاماتهم إلى الوزير الأوّل «رستم پاشا»، وطالبوا برأسه، فعزله السُّلطان لتهدئتهم.

لا أعرف إن كان السلطان قد وجد ما يثبت خيانة الأمير وتواصله مع الصفويين، أو أنه فكّر في الخروج على أبيه أو طلب العرش بعد أبيه.. أم أُعدم الأمير لمجرّد وشاية لم يتمّ التأكّد من صحّتها! للعروش أحكامٌ لا يشترط أن تكون عادلة، حتى مع أقرب الناس.

اجتاحتني حالة من الأسف والحيرة والتساؤلات التي لا تحصى كثرة، فما حدث آنئذٍ لم ينتهِ بتلك الفاجعة..

صُدم أصغر أبناء السُّلطان شاهزاده «جهانگير» صدمةً شديدة لإعدام أخيه، فذهب إلى بلاط أبيه وهو في حالة لم يعهده بها من قبل، وهو المعروف بصفاء الضمير تجاه الأمور الدنيوية، والذي تعلّق به قلب أبيه لدرجة كبيرة، فكان مؤنسًا مخفّفًا لأحزانه في الحرب والسلم، وصديقه ونديمه ومشاركًا لأحزانه ليل نهار، راح يبكّته، ويلومه على فعلته الشنيعة، ويذكّره بمحاسن أخيه وإخلاصه الأبديّ، وأنه لم يعصِ له أمرًا، أو خرج عن طاعته، ونفّذ كل أوامره دون تردّد. لم يَرُد أبوه بشيء وظلّ صامتًا، وخرج الأمير الصغير والحزن يغمره، فاعتزل في خيمته قرابة شهرين، ممتنعًا عن الطعام والشراب، أنهكه الأسى وأعياه حتّى أصابه المرض، ولم يفد فيه علاج الحكماء الحاذقين، وفي النهاية لم ينجُ ابن الحادية والعشرين، ليستحق لقب «شهيد المحبَّة الأخوية».

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ذهب «كمانگير» وزوجه إلى بيت أبيه، وعندما دخلا الحرملك، فوجئ بوجود «وردشان»، أخته من الرضاعة.. تجمّدت مكانها غير مصدقة رؤيته، تطلعَت إليه مغرورقة، وتصلّب كالتمثال لا يحرك ساكنًا. انهارت باكية، وضربَته في صدره بقبضتها، فعانقها وقبَّل رأسها دامعًا. نظرت إلى «مريم» وسألته: زوجتك؟!.. ردَّ مبتسمًا: «مريم»، تركته وضمَّتها طويلًا، ثم عرّفَتهما على أبنائها كلٌ باسمه. توقفت عيناه عند «سُليمان» الصغير، جثا إليه، وضمّه بقوّة، وسأله: - هل تعرفني؟

هز الصغير رأسه نافيًا في خجل، فضحك «سُليمان»..

- أنا «سُليمان»، وأنت «سُليمان» مثلي.

ضحك الصغير وأخفى وجهه في جلباب أمه، ثم قالت له «تقهيده آنا» إن أخاه متعبٌ منذ أيام، ومن المستحسن أن يأتيه بطبيب، ثم جذبت «مريم» من ذراعها وأجلستها بجوارها، واندمجن معًا في أحاديثٍ نسائية، فتركهن وذهب إلى «عَلِيّ».

لم يجده كما اعتاده مفترشًا الأرض، كان راقدًا في فراشه، ينتفض جسده وهو يسعل، ووجهه مُزرق، والزبد يقطر من فمه. هرع إليه ملهوفًا، مسح على رأسه برفق، وسأله مُقَبِّلًا جبينه: - ما لكَ يا حبيبي؟

لم يجبه إلا بأن ظلَّ ينادي باسمه متقطعًا..

- سو.. لاي.. مان... سو.. لاي.. مان.. أُحِبُّكَ..

انهمر الدمع من عينيه وهو يقول:

- وأنا أيضًا أحبكَ يا عَلِيّ.. يا غالٍ يا ابن الغالي ابن الغالي

ضمّ رأسه إلى صدره، فخرجَت منه آهة طويلة، لم ينطق بعدها. أبعده وهزّه، لكنه لم يستجب، سكن جسده بفراقٍ بلا رجعة!

- آه يا «علي» آاااااااه..

الآهة الأخيرة، التي خرَجَت من أعماقه، أفزعت كل أهل الدار، فهرعوا إلى الغرفة، وتزلزلت الجدران بالشهقات والنداءات ودموع الوداع.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لم تنتهِ أحزانه بانتهاء أيام العزاء، يسانده وجود صديقيه إلى جواره ومواساتهما المستمرة، لكنها لا تكفي للنسيان. انقطع عن العمل، والتدوين، والخروج، والابتسام، والكلام، ولولا «مريم» لامتنع عن الطعام والشراب، ولأودى به الحزن. كانوا جميعًا واثقين أنه سيرجع إلى سابق عهده دون تأثير من أحد، ولكن عليهم جميعًا الصبر والانتظار. وبعد حدادٍ طيلة أربعين يوم، قرر النزول إلى دكانه، ومر في طريقه ب «بلال»، الذي هرع إليه يحتضنه، ورافقه حتى دكّانه، حيث وجد الصبي الأمين يدير الأمور على ما يرام، وكأنه لم يتغيّب عنه ولا ساعة، فأثنى عليه وعانقه كابنٍ ليس من صلبه. شرع في العمل، يستجدي التركيز، ويأبى أن يؤثر أي شيءٍ ما كان على جودة صنيعته، ويجتهد في تعليم صبيَّه مزيدًا من الإتقان، لتمتد صنعته إرثًا من بعده.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

-٢٦-

حلب، ٩٦١ ه

«القبر الحقيقي ليس في الأرض، بل في القلوب».

طمعتُ في نيل قسط من الراحة لجسدي المنهك، راودتُ النوم لساعات طويلة، أتقلّب على فراشي حتى غلبني النعاس، فرأيتُ نفسي أقف في غرفة «ماري» والدماء تغطّي كل شيء!.. ظللتُ أنظر دامعًا إلى فراشها وهي صريعة فوقه، وفجأة نهضَت وحدَّقت بي، فأرجفني الذعر. مدت إليَّ ذراعيها، ثم رفعَت رأسها وأخذت تصرخ صرخاتٍ انخلع لها قلبي، فتراجعت إلى الوراء خطوة واحدة، ثم اثّاقلَت قدماي، وإذ بجسمها ينفجر ويلطم جسدي بنثرات الدماء.

انتفضتُ في فراشي، أتعرّق غير قادر على التقاط أنفاسي المتقطّعة. خرجت من الخيمة، فوجدت الليل لا يزال مهيمنًا، واتخذتُ قراري فورًا بشد رحالي إلى «مارسيليا». لملمتُ خيمتي، ووضعت أشيائي في جعبتي، وانطلقتُ بأحد الجياد من «حلب» إلى ساحل اللاذقية في ستة أيام، لم أتوقّف للراحة إلّا رحمةً بالدابة التي لا تملك أمرها. ومن هناك، استقلّيتُ متن أولى السفن المتجهة إلى جنوبي فرنسا، شهرين من الإبحار قضيتُ أيامها ولياليها بين القيء والأحلام ومقاومة الدوار المعتاد. وقبل رسو السفينة على البر، استقبلتني رائحة عطنة تملأ الهواء.

مارسيليا، ٩٦١ ه / ١٥٥٤ م

تعرضت «پروڤانس» لأسوأ وأعنف الفيضانات، وتضاعفَت شراسة الطاعون واستوطن في الجنوب الفرنسي، ووجدتُ الميناء يعج بالجنود الفرنسيين، مكمّمين وجوههم بالأقمشة، يجمعون الجثث التي قتلها الموت الأسود، وينقلونها إلى سفنٍ سيحرقونها في عرض البحر. تقدمتُ بخطوات سريعة محاولًا تحاشيهم، وعند المنحنى المؤدي لأحد الأزقة اصطدمتُ بأحد الأشخاص المكممين، يركع على ركبتيه يطبّب مريضًا ملقى على الأرض، فاعتدلتُ واعتذرت لصاحب العينين الخضراوين السابلتين، ذي اللحية التي تخللها المشيب التي طالت أسفل كمامته. هزّ رأسه قائلًا: - لا عليكَ.

تابعتُ طريقي في الزقاق، فاستوقفني مناديًا: - إلى أين تذهب؟ هذه منطقة محظورة، فتك الموت الأسود بكل من فيها، وهم يجمعون الجثث التي امتلأت بها الشوارع، عليكَ الذهاب من طريق آخر.

رجعتُ إليه، وتوقفتُ أمامه لا أجد ما أقول، ثم أخذتُ أسعل مكمّمًا وجهي بيدي لمنع الروائح الفظيعة من اختراق أنفي، قال: - لماذا لا تتكمّم؟! عليكَ بوضع قطعة سميكة من القماش على وجهك حتى لا يصيبكَ الداء.

على الفور، أخرجتُ من جرابي سروالًا، مزّقتُه وأخذتُ منه قطعة تكفي لتكميم وجهي. ضاقت عيني الرجل فعلمتُ أنه يبتسم، وشرع في إكمال ما يعمل عليه، سألتُه: - أي طريق عليّ خوضه؟

اعتدل الرجل مرة أخرى قائلًا:

- إلى أين تريد الذهاب؟

ترددتُ قبل قولي:

- لا أدري.

قال بثقة:

- ستجد ضالتكَ قريبًا، أوشكتُ على الانتهاء، انتظر قليلًا، سأصطحبكَ معي أيها الغريب التائه.

أشار لي، فابتعدت قليلًا، ووقفت أراقب ما يفعله، حتى انتهى. ذهب المصاب، وسرنا معًا في طريق آخر، قال: - اسمي «ميشيل دو نوسترادام»، وأنتَ؟

- «سُليمان».

- قسماتكَ تخبرني أنكَ لست فرنسيًّا، أنتَ عربيّ؟

تشبه إلى حد بعيد نفس الملاحظة التي قالتها «ماري» في البداية، أجبتُ: - نعم عربيّ.

هزّ رأسه قائلًا:

- توقيت غير مناسب للمجيء إلى هنا، هرب جميع الأطباء للنجاة بأرواحهم، وأعمل منذ أشهر دون توقف على تطبيب المصابين، لكن أعداد القتلى لا حصر لها، هذا مرض لعين، يأخذ الكل في طريقه.

تنهد في حزن وأكمل:

- أبذل ما في وسعي آملًا في إشفائهم، اتخذتُ مكانًا قريبًا عزلتُ به المرضى، أتودُّ أن تأتي معي إلى أن تحدد مسارك؟ من حقكَ أن تتجنب ذلك بالطبع.

أومأتُ موافقًا، فما من سبيل آخر، حتى أعيد ترتيب أموري مرة أخرى، وقد قطعتُ مسافات وبحارًا، ولن أعود خالي الوفاض.

وصلنا إلى المكان المقصود، ففتح «ميشيل» الباب الكبير، الذي علقت عليه لافتة خشبية كتب عليها بالفرنسية «مخصص لمرضى الطاعون.. ممنوع الدخول»، دلف وأنا خلفه، فاقشعر جسدي حين رأيت الأرض مفترَشة بأجسام المرضى المكممين بأقمشة مبقعة بالدم، السعال يملأ الجو برائحة نتنة، أحد المرضى يتقيأ متألما ثم يعود إلى مكانه بصعوبة، نظرتُ إلى ساقيه النحيلتين فأشفقتُ عليه، وأشحتُ بنظري بعيدًا، لأجد آخر أكثر نحافة يجلس مستندًا بظهره إلى الحائط يحاول التقاط أنفاسه دون جدوى، وقد تقيأ الكثير من الدم، وجحظت عيناه وفغر فاه ونفرت عروق عنقه وازرق وجهه، ثم اختار لحظة نظرتي إليه ليهوى رأسه على صدره مفارقًا الحياة! اتجه نحوه المتطوعون للمساعدة، لكنني تردّدتُ في التقدّم أكثر خاشيًا على نفسي. التفتَ إليَّ «ميشيل» وقد فهم ما دار في خَلَدي، قال: - لا تتقدم أكثر إن كنتَ تخشى على نفسكَ، انتظر قليلًا حتى أطمئن عليهم وأعود إليكَ.

أخذتُ أجول ببصري في المكان الكئيب، حتى جذبني سُعال شديد، وصوت نسائي مكمّم: - «أوستينا»، اهدئي يا عزيزتي، ستكونين بخير.

لكنها لم تهدأ وصرخت متألّمة، فارتفع صوت «ميشيل» من بعيد: - لحظات وآتيكِ بالمسكِّن.

جذبني اسمها للاقتراب منها، أخذتُ أتأمّلها، وقد تسارعت أنفاسي تحت الكمامة.. سمعتُ هذا الاسم في يوم لا ينسى: «عليّ أن أعطي أختي الكُبرى «أوستينا» أية نقود، حتى تعلم أنني لم أنقطع عن العمل». جثوتُ على ركبتي وقد نسيت الحذر من الوباء، متسائلًا أحقًّا وفَّرَ عليَّ «ميشيل» أشهر من البحث عن سراب؟! غامرت مدفوعًا بهاجس داخلي، ينبئني أن القدر يساندني في هذه اللحظة بمعجزة العدل.. ملتُ على أذنها هامسًا: - ما اسم النغل الذي قتل «ماري»؟

جحظت عيناها وتوقف سُعالها في حلقها، وتقطّعَت أنفاسها، فتأكدت أنها هي.. غلبتني دموعي وتحوَّلت نبرتي رغمًا عني إلى رجاء: - افعلي شيئًا طيِّبًا وحيدًا، تختمين به حياتكِ المرنخة بالذنوب، قبل أن تفوتك الفرصة.

سعلَت بشدّة ولم تجبني، فقبضتُ على ذراعها بقوّة وأنا أقول: - أقسم أنكِ لو لم تنطقي باسمه، لأقبضنّ بيديّ على عنقكِ النجس، ولن أتركه قبل أن تلفظي آخر أنفاسكِ الدنسة.

ابتسمت غير آبهة بتهديدي، وكيف لمن أصابه الطاعون أن يخشى موتًا يخلِّصه من عذابه. لكنها عرفَت أنني عرفتُها تمام المعرفة، فأجابت بصوت خفيض: - «مارتن»...

قاطعها السُعال، بينما أخذتُ أبحث في رأسي عن اسم أختها الصغرى، وسرعان ما وجدتُه، سألتُها: - أين أجد «إيزمي»؟

نظرت في عيني وأجابت دون تردد:

- ببيتنا، شرق برج الجرس، لكنيسة «سانت فيريول ليه أوغسطين» في الطرف الشرقي من الميناء، عند الزقاق الثالث.

وصل «ميشيل» وسأل متعجبًا:

- ماذا يحدث هنا؟

نهضتُ رامقًا «ميشيل» وقلتُ:

- هي الصدفة أو القدر.. لقد عرفت إلى أين أذهب. أشكركَ على اصطحابي معكَ، وربما نلتقي ثانيةً على خير.

هممتُ بالذهاب، فتعلَّق «ميشيل» بذراعي، وهو ينظر في عيني بجدٍّ: - الذئب يقطع مسافات طويلة لأجل صيده، ولا يتوانى عن الفتك بذئب آخر إن وجده جريحًا أو ضعيفًا، ويتحيّن اللحظة المناسبة للافتراس عند حلول الليل، أما الهدهد فلا يتواجد إلّا في الأماكن النظيفة، ويمشي مختالًا.

أربكني مدلول كلامه، وبخاصة اختياره للهدهد، فترددت لحظةً قبل أن أسحب ذراعي برفق وأنصرف، والطبيب ورائي يرمقني بالنظرة نفسها، حتى ناداني: «عُد»، مرةً واحدةً لم يكررها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

طرقتُ الباب، ففتحت لي فتاة، وقحةٌ إلى حد أنها لم تستر نهديها البارزين، وقالت بفجاجة: - لا عمل اليوم، ولا في الغد، حتى ينتهي الموت الأسود، أو يأخذكَ في طريقه.

همّت بإغلاق الباب، فصددتُه بيدي وقلتُ بلهجة حادة: - أريد رؤية «إيزمي» على الفور، إنه أمرٌ عاجل.

صرخت في وجهي:

- أأنتَ أصمّ؟! قلتُ لكَ لا عمل عندنا، اذهب من هنا.

أمسكتُ بذراعها وقبضتُ عليه وأنا أقول منفعلًا: - اذهبي على الفور أيتها العاهرة، وأخبريها أنني أريدها الآن؛ وإلّا انتزعتُ نهديكِ هذين من جسدكِ الدنس.

تراجعَت الفتاة مذعورة، وخرجت «إيزمي» إليَّ مقطّبة، تتفحّصني في ضجر، وهي تسأل: - من أنتَ، وماذا تريد؟

أذهلتني قسماتها.. نفس لون العينين، الأهداب نفسها، والأنف والشفتين، والشعر الأحمر المهوّش، هرول الدمع من عيني متدثرًا بالذكرى، قلتُ: - أريدكِ في أمر مهم، يهمكِ إلى حد بعيد.

أبدت اهتمامها احترامًا لدموعي، وأومأت برأسها: - قل ماذا تريد.

تنهّدتُ تنهيدة حارّة، فلانت ملامحها وهي تسألني: - أأنتَ بخير؟

نطقت بصعوبة، وقد اختنق صوتي بدموعي:

- «ماري».

فتحت عيناها عن آخرهما:

- أختي؟!

- نعم. إذا كان يهمّكِ الأخذ بثأرها؛ عليكِ الاستماع إليّ جيدًا.

قطّبَت قائلة:

- ثأر من؟! أختي أخذها الموت الأسود.

زفرتُ حانقًا وقلتُ:

- كنتِ صغيرة ولا تعلمين ما جرى، «أوستينا» قالت ذلك لتتستّر على جريمة زبونها.

علا صوتها من هول الصدمة:

- أجننتَ؟! ماذا تقول؟!

- أقول الحقيقة، لقد قطعتُ سفرًا بعيدًا للمجيء إلى هنا، لأنها أتتني في منامي، هي ليست مرتاحة في قبرها، عليكِ بالاستماع إليّ.

ترددَت وهزت رأسها رافضة:

- هنا غير مناسب، والشوارع غير مناسبة، مارسيليا كلها غير مناسبة، ليس الآن.

ـَ

همّت بإغلاق الباب، لكنني منعتها وقد تصاعد غضبي وقلتُ محاولًا كبح جماحي: - آخر مرة رأيتِها فيها كانت قبل أحد عشر عامًا، أتت إليكِ وأعطتكِ بعض النقود، ثم ذهبَت ولم ترجع مرة أخرى. «أوستينا» كانت تواعد ضابطًا يُدعى «مارتن»، يداوم على القدوم إلى هنا، أراد «ماري» أيضا، فرفضت، هو الذي قتلها، و«أوستينا» تكتَّمت الأمر لأجل المال. إن كنتِ لا تصدقينني، عليكِ بزيارة مشفى «ميشيل دو نوسترادام»، فهي مستلقية هناك تلفظ آخر أنفاسها.

ظلت جاحظة وقالت:

- نعم صحيح هي هناك. هل قابلتها؟ أهي من اتفقت معك على الثأر؟!

- ليس هذا ما يهمّ الآن.

أوسعت لي لأدخل، وأخذتني مباشرة إلى غرفتها، حيث قصصتُ عليها دامعًا كل ما كان بيننا، أخبرتُها بتفاصيل منامي، وكيف أن «ماري» لا تزال على نفس الوضع الذي قتلوها فيه، لم تسترح في موتها. كانت تبكي بشدة وهي تتخيل أختها في هذا المشهد؛ قلتُ: - سينال قاتلها جزاءه، كل ما أريده منكِ أن تنفّذي ما أقول، وأعدكِ أنني سأفتديكِ بروحي إن اضطررتُ لذلك.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أحكمتُ وضع خطتي، ونفّذَت «إيزمي» كل تعليماتي، استطاعت الوصول إلى «مارتن»، وواعدته في نفس المكان الذي قتل فيه «ماري». أخبرتني بقلقها، فقد رأت الريبة في عينيه عندما اختارت هذا المكان بالذات، لكنها كانت قد أثارت شهوته بشدة، فوافق.

ذهب إلى المنزل، فوجدها تنتظره متزيِّنة، فنسي ريبته، واتسعت عيناه بالشهوة الفاجرة، فتجرَّد من ملابسه، وسلاحه فيها. وعندما طرقتُ باب الغرفة، أخبرته «إيزمي» في إغواءٍ أنها البقالة أرسلت ما تستلزمه الليلة من خمرٍ وأجبان، فنهض عنها مستعجلًا، ليفتح الباب عاريًا بلا حياء، وإذا به يجد وجهَ ذئب يقابل وجهه، فتراجع إلى الوراء مفزوعًا، حتى سقط قرب السرير، فدخلتُ وأغلقتُ الباب خلفي، وللمرة الأولى في حياتي أواجه عدوِّي من هذه المسافة القريبة، دون أن أرتجف. ولكنني لم أشهر سيفًا، بل سددتُ سهمي بين فخذي «مارتن» المذعور، فأصبتُه حيث أردتُ، فشهق ذاهلًا، ففعلتُ به كل ما فعله بالغالية «ماري»، ثم تركتُه على الفراش بالوضع نفسه، بعد أن غرزتُ رمحي في دبره وأخرجتُه من فمه الفاغر ذعرًا. تركتُه هكذا، وجررت الفتاة المرتجفة معي، وذهبتُ. نال الوغد ما يستحق.

لن تنسى «إيزمي» ما جرى لقاتل أختها، ولن تراني مرة أخرى، ولن أراها، لكنها ستتعلم أن الأقدار عادلة. «ميشيل» أيضا، ذلك الطبيب المتفاني، الذي وصفني بفراسته العجيبة، لم أدرك كلامه وقتها، لكن بعد أن هدأتُ واسترجعتُ كل ما حدث، فهمتُ كل حرف نطق به هذا الفرنكي الغريب. وَدَّعتُ الميناء هذه المرة وداعًا أخيرًا، بعينين تترقرقان بدموع السكينة، مطمئنا إلى أن «ماري» سترقد راضيةً مرتاحة الآن.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

-٢٧-

إسلام بول، ٩٦٢ ه

«البعض يتلذذ بمذاق العسل، والآخر يتألم من لسعات النحل».

أخذتُ أُلهي نفسي بارتياد المقاهي، التي لم تكن موجودة على الإطلاق في «القسطنطينية» وبلاد البلقان (الروم إيلي)، إلّا قبل ذلك العام بقليل، حيث يتجمّع الأصدقاء المبتلون بداء الكيف، والذين يصفون أنفسهم بالأحباء الأصفياء. رأيتُ آخرين من ظرفاء طائفة القُرّاء والكُتّاب، صاروا يتجمّعون في المقهى، تجمّعات تتكوّن من عشرينات وثلاثينات، وأنا أتخذ لنفسي مكانًا في إحدى الزوايا، أتابع من يقرأ الكُتب والمقالات التي قد أستحسنها، وآخرين يلعبون الشطرنج أو الطاولة، وفي تلك الليلة حضر من ينظمون الغزليّات ويلقونها، ويتبارون في ذلك، وأنا أتابع مبتسمًا، حتى زالت ابتسامتي عندما سمعتُ أحدهم يهمس إلى صديقه ببيت من الشعر:

- يا دهرَ ويحك ما أبقيتَ لي جَلدا ... وأنتَ والدُ سوءٍ تأكل الولدا.

كان بيتًا في رثاء الأمير «مصطفى» بعد إعدامه، فعند ذلك الحد اكتفيتُ، وأعطيتُ القهوجي أقچاته وانصرفتُ، وفي مسكني، أخذتُ أدوِّن كل ما رأيتُ وسمعتُ في الآونة الأخيرة دون كلل.

وعندما ذهبتُ إلى المقهى ظهيرة اليوم التالي، انتبهتُ إلى مناقشات حول مختلف المعارف، انصتُّ إليهم متظاهرًا بالانشغال، حتى وقت العصر، فإذ بالبعض قد جاءوا لترتيب الضيافات لمدعويهم، ولأجل ذلك صرفوا الكثير من الأقچات، يصفون أنفسهم بالأحباب، ويقولون إن ثلّتهم تجتمع بروح الألفة والمحبة. ولما هممتُ بالانصراف، أخبرني القهوجي أنني شربتُ خمسة فناجين، أخذ مني ثمن الفنجان أقچة واحدة، فأعطيتُه خمسة وواحدة زيادة.

في الأيام التالية، داومتُ على الذهاب، وبدأ إدماني للمشروب الجديد، الذي قيل إنّه دخل إلى الآستانة قادمًا من اليمن، مأخوذًا من شجرة البُن، تُطحن بذورها حتى تصير مسحوقًا ناعمًا، ثم يتمّ غليه في أوانٍ تفنّنوا في صناعتها لذلك الغرض. ظللتُ أتقصّى الأمر، حتى عرفتُ أنّه في بداية السنة نفسها، جاء إلى الآستانة رجلٌ من «حلب» يعرف باسم «حكيم»، ورجلٌ آخر من الشام اسمه «شمس»، وفتح كل منهما دكّانًا كبيرًا تحت القلعة، يقدّمان فيه القهوة. كان القهوجي يقدم مع الفنجان طبقًا من الحلوى، حتّى يضيِّع طعمها المر، لكنني لم أكن أتناول معها شيئًا، اعتدتُ عليها مُرَّة، كأيامي التي أعيشها.

وفي الأيام التالية، امتلأت المقاهي بأولئك المعزولين عن وظائفهم، وغيرهم من المنتظرين معلومة للحصول على وظائف جديدة؛ من القضاة والمدرسين من طائفة البطالة التي كانت بلا عمل أو كسب. أمتلأ المقهى، فما عاد فيه مكان للجلوس أو حتّى الوقوف، فحتى الأعيان يجيئون لتناول القهوة وكامل طبق الحلوى، ويجزلون للقهوجي، حتى يكاد يقبِّل أيديهم، وقد ازدادت أعداد الأعيان وأصحاب المناصب الذين أدمنوا المشروب السحريّ والمكان المفعم بالألفة.

في تلك الأثناء، قال الأئمة والمؤذنون والصوفيّة إنّ الناس صاروا مُبتلين بالمقاهي، بينما لا يأتي أحدهم للصلاة في المساجد، وأنّها وكر مساوئ، حتى إن الذهاب إلى الخمّارة أهون من الذهاب إلى المقهى! أفتى المفتون بأنّ كل شيء يصل لمرتبة الفحم؛ أي يصبح أسود بالتسخين، هو حرامٌ صِرف، فلم أصدِّق في تلك الأقاويل، وداومتُ على ارتياد مقهاي المفضّل، مدمنًا لذلك الحساء الأسود الساحر، الذي يمّدني بطاقة عجيبة، لولاها ما قدرت على السهر والتدوين.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

عرفتُ في تلك الأثناء بوصول الأسطول العثماني إلى «البصرة»، بقيادة «پيري رئيس»، وبعد مشادة كلامية مع «قوباد پاشا» أمير البصرة، اختار ثلاث سفن وأبحر إلى السويس، وعند سواحل اليمن مزّقَت الرياح العكسية إحدى سفنه، ووصل إلى وجهته بسفينتين فقط، وبعد وصوله القاهرة لم يُحسن «داوود پاشا» والي مصر استقبالَه، وعاملَه على أنه قائد تخلّى عن أسطولِه، فتمّت إدانته وحبسه، وأرسل تقريرًا ضده إلى القسطنطينيَّة، وعُرض الأمر على السُّلطان، وصدر الفرمان الهمايوني بضرب عنقه في الديوان، وقد تجاوز الثمانين من عمره، فضحكت حزينًا، ممن يفتون بتحريم القهوة وتحليل أعناق الشيوخ!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لم تكن قضية اغتيال الكاردينال «مارتينوزي»، أواخر السنة الحادية والخمسين وخمسمئة وألف ميلادية وحتّى الخامسة والخمسين وخمسمئة وألف، قد أُغلقَت بعد. أخبرني الهداهد أنه قد وصل إلى الپاپا «يوليوس الثالث» اتهامًا مُكوّنًا من سبعة وثمانين مادة تثبت تهمة الخيانة»، حيث استمع الپاپا لشهادة مئة وستة عشر شاهدًا، وبذلك لم يجد بُدًا من تبرئة «فرديناند» ورفع الحظر عنه في العام نفسه. وفي الثاني من أبريل منه، توفي عن سبعة وستين عامًا، وخلَفَه الكاردينال «مارسيلوس الثاني» الذي مات بسكتة دماغية بعدها بأقل من شهر وهو في الثالثة والخمسين من

عمره، وخلَفَه المطران «پولوس الرابع»، معتنقًا الدوغما الكاثوليكية، رافعًا شعار «لا خلاص خارج الكنيسة».

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

اتُهِم «كارا أحمد پاشا» بتهمة التقصير في تنفيذ الخدمات المنتظرة منه بعد حملة «نخجوان»، ولأن بعض تصرفاته التي ارتكبها قبل ذلك أثارَت حفيظة السُّلطان، ضُرِبَ عنقه بعد الديوان أمام غرفة العرض، ليصبح منصب الصدارة العظمى مؤهّلًا مرة أخرى إلى «رستم پاشا» دون منازع. لقد كثرت أخبار الأعناق المستحَلَّة، حتى اعتادتها الآذان، ولم تعد سوى مجرد أخبار.

توجَّه العسكر إلى بلاد العجم بعد ذلك، غزوا بلاد «شيروان» بدون فائدة تذكر، وفقدت الدولة «أرضروم» ثم استعادتها مرة أخرى، وضاعت «تَبْريز»، لكن السُّلطان استطاع تأمين مكاسبه بتوقُّف الشاه وميله للصلح، الذي تم بينهما في اليوم الثامن والعشرين من جُمادَى الآخرة سنة اثنين وستين وتسعمئة هجرية، التاسع والعشرين من مايو سنة خمس وخمسين وخمسمئة وألف ميلادية، وبموجبه اعترف الشاه بالحدود العثمانية التي حددها السُّلطان، وتم تقسيم «أرمينيا» و«چورچيا» بالتساوي بينهما، وحصل السُّلطان على معظم العراق العربي، ونهري «دجلة» و«الفرات»، وما بينهما من بلاد، بما في ذلك «بغداد»، التي سمحت لهم بالوصول إلى بحر العرب، واحتفظ الشاه بعاصمته السابقة «تَبْريز»، وجميع أراضيه الشمالية في القوقاز، وضمن الصفويون الأمان والذهاب إلى مكة للحج، ومزاولة مذهبهم بدون تعرّض.

وفي السنة نفسها، انتشرت أقاويل بخصوص دَعِيّ قال إنّه «شاهزاده مصطفى» مستغلًا الشبه الكبير بينهما، وتمكّن من جمع الأعداد الغفيرة حوله، وقاد تمرّدًا كبيرًا مطالبًا بحقه في عرش السلطنة، فانطلق الوزير الثالث «صوقولّو» بثلاثة آلاف إنكشاري، نصبوا الخيام في صحراء «أدرنه»، وشنُّوا هجومًا خاطفًا، فقبضوا على قادتهم، وأرسلوهم إلى الآستانة، لينالوا جزاءهم.

كنت أدوّن كل ذلك، وحين أراجع ما كتبت، ينقبض صدري، وينبئني حدسي بما لا أحب.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

-٢٨-

إسلام بول، ٩٦٤ ه

«قرب الصديق الوفي كالقرب من النعيم».

لي زمان لم أزُر صديقي «سِنان»، الذي كان عاكفًا على إنهاء مسجد السُّلطان، ، بعد أن كنَّا نتحاور كثيرًا حول الأمور المهمة والأحوال، أثناء وضع اللمسات السِنانية الأخيرة للمسجد، وكم من قصص مما مررتُ به في الديار المجرية، حكيتها للمعماري العظيم. وفي ذلك اليوم بالذات، الذي وافق يوم جمعة، خامس عشر ذي الحجة سنة أربع وستين وتسعمئة هجرية، الثامن عشر من أكتوبر سنة سبع وخمسين وخمسمئة وألف ميلادية، قررت التوجه لزيارته، في المسجد الذي أوشك على الانتهاء منه. ولما دخلتُ إليه خالعًا نعلَيَّ، نسيتُ نفسي وأنا أتأمّل القِبَّة، التي شككتُ لوهلة أنّها قِبّة مسجد بُنِيَ على الأرض، بل تساءلتُ في نفسي «أهي قبّة السماء!».. تأملتُ الآية المنقوشة عليها: «إنّ الله يُمسِكُ السماوات والأرض أن تزولا»، المكتوبة بخطٍ لم أرَ أروع منه في حياتي، التفتُ إلى «سِنان» وسألتُه مبهورًا: - من ذا الذي نقش هذا الخط السماويّ؟

ابتسم قائلًا:

- ومن غير «حسن قره حصاري» كبير الخطاطين؟

أخذتُ أتأمّل أروقة البُنيان العظيم، الذي اكتمل أخيرًا بعد سبعة أعوام، النقوش الفريدة التي زيّنَت أبوابه، أنواع الخطوط التي احتسبتُها غاية الجمال والإحكام والفرادة، وقلتُ: - أأبواب للفردوس تلك!

اتسعَت ابتسامة «سِنان» وربت على كتفي، وقال: - اليوم يأتي السُّلطان، ليفتتح مسجده، هلا انتظرتَ تشريفه، ثم نخرج معًا بعد ذلك؟

نظرتُ إلى «سِنان» بإعجابٍ، تذكرتُ كل أعماله العظيمة، بدايةً بالجسر، ومرورًا بالمساجد العظيمة التي قام بتصميمها وبنائها داخل العاصمة وخارجها.. قبل تعيينه نقيبًا للمعماريين، قام بتشييد مجمع «خسرو پاشا» بحلب، وأوّل آثاره المعمارية، وبعد عام من تولّيه الوظيفة كلّفته السُّلطانة «خُرّم» بتشييد مجمع الخاصكي، وكان أوّل إنجازٍ له كنقيب للمعماريين، رسَّخ به جمال الطراز العثماني، وأضاف إليه لمسته المعمارية الخاصة، وكانت الأولى، ثم توالت أعماله، تشييد مجمّع باسم السُّلطانة «مِهرماه» سليلة السُّلطان، جامع شاهزاده «محمد»، وما زاد جمال هذا البناء هو

موقعه بين مسجدي «آيا صوفيا» و«الفاتح».. رأيتُه أعظم معماريٍ في العالم!

خرجنا، وأغلق «سِنان» الباب بالمفتاح، وجلسنا بالخارج ننتظر وصول الموكب السُّلطانيّ لافتتاحه. وعندما وصل السُّلطان، سلّمه «سِنان» المفاتيح، وأسبل يديه احترامًا، فالتفَت السُّلطان إلى «أوضه باشي» فورًا يسأله: - مَن الأولى والأحقّ بفتح باب الجامع؟

فأجاب مدير المراسم:

- مولاي السُّلطان، خادمكم «سِنان» شيخ جليل، وقد بذل في هذا الأمر أقصى الجُهد، كأنّه «لقمان الحكيم» في هِمَّته.

فقال السُّلطان مبتسما:

- أخي العزيز، أقبِل، فأنت الأحق أن تفتتح بيتَ الله بالإخلاص والدعاء والتضرّع إليه.

ووضع المفاتيح مرة أخرى في يد «سِنان»، وهو يدعو له ويُثني عليه.

ابتسم «سِنان» وقد اقشعر واحمرَّ وجهه إزاء هذا التكريم الكبير.. وضع المفتاح في الباب وهو يقول «يا فتّاح»، ثم فتحه ووسَّع للسُّلطان، فخطا إلى مسجده، ووقف ينظر في إجلال، وانتشى بما يرى من روعة وأبهة. تفقَّد المكان على اتساعه، ورأى أن «سِنان» قد صنَعَ منظرًا خلّابًا مشرقًا، وفسيحًا، مستغلًا الإضاءة الطبيعية بوفرةٍ في أروقة السُّليمانية، فأقام بذلك بناءً مفعمًا بالحياة، يقدّم لمن يدخله السعادة ونشوة الحياة الطَّيبة وجمالها. التفت إلى حاشيته، وأوصى برعاية وإحسان غير مسبوقَين إلى معماريِّه، وقال: - من اليوم «سِنان» ليس نقيب المعماريين الخواصّ أو نقيب معماريِّي ومهندسي العالم فحسب، بل ممدوح العالم، المعمار الفريد «سِنان آغا». والله، إنّه أكثر روعة من «آيا صوفيا»، بارك الله فيكَ يا أخي.

بعد إتمام المراسم، وانتهاء السُّلطان من التجوّل في كامل البناء، دعانا إلى القصر، ونلنا الخير الوفير والإنعام والإحسان، وتوصيةً لا يمكن وصفها. وفي المساء، استأذَّنا منه وخرجنا إلى المقهى الذي اعتدتُ ارتياده، فتحدّثنا كثيرًا، وتواعدنا على استمرار اللقاء في الأيام التالية. إلّا أنّني لم أستطِع الوفاء بالوعد، لعودتي مرة أخرى إلى مَجَرستان، لكنّي ودَّعتُه قبل السفر.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وفور وصولي إلى هناك، أخبرني الهداهد أن الخلافات الدينية اندلعَت بين الطوائف، في خضم الصراعات السياسية، منذ انتشار البروتستانتية في مجرستان، وأن الملكة «إيزابيلّا» بادرت بتوقيع مرسوم يمنح حرية الدين

للطوائف الأربعة «الكاثوليك، اللوثريون، والكالڤينيون، وًالموَحدون»، كانت خطوة رائدة نحو التسامح الديني، وبذلك ضمنَت أن يُشار إليها بالبنان، كأوّل حاكم أوروپي يصدر قوانين بشأن التسامح الديني.

وفي العام التالي، أحبط مؤيدها «ملكيور بالاسا» انقلاب عائلة «كندي» ضدّها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

-٢٩-

مجرستان، ٩٦٥ ه

«الموت ضيفنا».

لم أدرِ ماذا أفعل، ظللتُ أمسك بالرسالة لا أحرك ساكنًا، السُّلطانة «خُرِّم» انتقلَت من دار الفناء إلى دار البقاء، في يوم الثلاثاء، سابع عشر جُمادَى الآخرة سنة خمس وستين وتسعمئة هجرية، خامس عشر أبريل، سنة ثمان وخمسين وخمسمئة وألف ميلادية. أعلم أنّ السُّلطان الآن في أشدّ الحُزن على فراق زوجته ومحبوبته، مررتُ بهذا النوع من الحزن من قبل، عندما فقَدتُ «ماري»، ومنذ ذلك الوقت وأنا أحاول لملمة رفات قلبي، على الرغم من أنّ «مريم» قد عوّضَتني عن غياب كل ما فارقني من الأحباب، وداوَت بوجودها ما استطاعَت من آلامي. على أي حال، فالسلطانة عاشت طويلًا، وماتت في سلام، وهذا يجعل وجعه أهون كثيرًا، وسيتغلَّب عليه سريعًا، وينتبه لأحوال دولته، المتطلِّبة في تلك الفترة لكل ذرةٍ من انتباهه.

دخلتُ إلى الوَكر والتقيتُ بهداهده، واطمأننتُ مؤقتًا على سير الأمور، ثم أخَذَتني قدماي إلى قبر رفيق روحي «جابر»، فوقفتُ منكسر الروح أمام قبره، أتحسس شاهده بأناملي، متذكرًا بعضًا مما فَعَلَ لأجلي، وتحدّثتُ إليه باكيًا:

- لا أدري إن كنت تسمعني يا صديقي، اشتقتُ إليكَ كثيرًا، وتعبتُ يا «جابر». قلبي الضعيف يُعاندني، وأفرَطَ في عناده، وفي هواني عليه. نصحتَني من قبل أن أصبر كما صَبَرَ حضرة «أيّوب» عليه السلام، وصبرتُ، فأين حصاد حضرة «يوسُف» عليه السلام في أيامي؟ أكُلّ ما مررت به لا يستحق الحصاد؟! أم أنّه غضبٌ من المولى عليّ؟!

ظللتُ واقفًا، أنتظر الجواب من فقيدِي، لماذا أنتظر وأنا أعلم أنّه لن يجيبني، أفقَدتُ عقلي إلى هذا الحدّ؟ أم أنه لا يريد أن يقول لي إنه حذرني من علاقتي بـ «ماري»، وغضب الرب؟ مسحتُ أدمعي معاتبًا له على ما لم يقله، وذكّرته بأنه أراد الشهادة ليشفع لي.. ثم هممتُ ذاهبًا في طريقي.

عندما وَصَلتُ قرب الخيام، رأيتُ إحداها مشتعلة، وجُلّ الغجر تقريبًا خارج خيامهم ملتفّين حولها، ساكنين، منكّسي رؤوسهم، لا يحاول أحدهم شيئًا لإخماد النيران! هرَعتُ إليهم، متسائلًا:

- كيف تقفون هكذا، أطفئوا الحريق!

أجابني أحدهم:

- بل لقد أشعلناها بأنفسنا، هكذا نفعل عندما يموت أحدنا.

- من مات؟

- زوج «ماريا»، أعاده رفاقه ميّتًا هذه المرّة.

انطلقتُ أبحث عنها، لكنّ «مريم» ابنة السابعة عشر وقتئذ، لمحتني بطرف عينيها الدامعتين، فهرعت إليّ وألقَت بنفسها بين يديَّ. ضممتُها وربّتُ عليها أطيِّب خاطرها المكسور، ولمحت أمَّها «ماريا» واجمةً، تنعكس النيران على عينيها، أحزينةٌ على فقيدها، أم أنّ الأمر سِيّان، فقد كان يغيب عنها بالسنوات، وإن عاد لا تتعدّى أيام بقائه أصابع اليد الواحدة.

لم أكن أعلم حتّى ذلك الحين كل شيء عن عادات الغجر الهنغار، لكني يومها أضفتُ إلى معرفتي ودوّنتُ ذلك في مجلّدي.. لما يموت أحدهم، يلبسونه أحسن ثيابه، يضعونه في كفن واسع لاحتواء ممتلكاته، تحرق عربته بعد وفاته، وإن لم يكن ميسور الحال، يستعيضون عنها بخيمةٍ ويحرقونها، وقبل دفنه يصومون عن الطعام والشراب، ويحرس ثلاثة منهم مرقده من الأرواح الشريرة.

ضممتُ الفتاة إلى صدري متضامنًا معها، أشاطرها حُزنها على أبيها، وأتذكّر أبي.. لكم اشتقتُ إليكَ كثيرًا حضرة الپاشا، والمسافات طويلة بيننا، أرجو أن تغفر لي زلّتي وخروجي من بلادي دون إذنكَ أو علمكَ، أدعو الله أن يطيل في عُمرك، لآتي بين يديكَ وأقبّلهما، وأسمع منكَ «عفا الله عمّا سَلَف».

ذهبتُ والحزن يغمرني إلى ضفة النهر، غسلتُ وجهي بالماء، وعلى صفحته طفَت ذكرياتي سريعة، منذ وفدتُ إلى أرض المجر وما حدث بها، غادرتُ وعدتُ مرّات لا تحصى ولا تعَدّ. تجمّعَت كل تلك الذكريات لتشكّل وجه «مريم» أمامي، وانتفضتُ ناهضًا حين سمعتُ اسمي قادمًا من القاع، فاستعذتُ واستغفرتُ والرعشة تعتريني بقوّة، وهرَعتُ إلى خيمتي، فتلحّفتُ بفروي، وغطّيتُ رأسي، وصوت أنفاسي السريعة المتقطّعة يفحُّ في أذني وداخل رأسي، حتى أتاني النعاس رحمةً من حيث لا أحتسب.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

انتفض شاهقًا وهي توقظه، نام متوسدًا ذراعيه على سطح مكتبه، ولم يشعر بذلك من فرط تعبه، بين العمل صباحًا والتدوين حتى مطلع الفجر، حتى حوّطت عينيه دوائر داكنة، وأسبلَت جفونه دون إرادة منها. سألته بصوت رقيق:

- أأنتَ بخير يا حبيبي؟

هذا السؤال الذي سأله لنفسه طوال حياته، فقد بدا للجميع أنّه ليس بخير، وكثيرًا ما سأله «جابر» وجملة من يعرفونه. بدَت العلّة بقلبه على قسمات وجهه وجسده المنهك دومًا، صارت حركته بطيئة، وكأن روح شيخٍ طاعن استوطنته. نظر إليها وهو يهزّ رأسه المرتعش، وبذات الرعشات أمسك يدها وقبَّلها، وقال بصوت مبحوح:

- الحمد لله ، أنا بخير.

- أأنتَ واثق من ذلك؟ أخشى أنكَ لستَ بخير.

- بخير حبيبتي، كل ما في الأمر أني غفوتُ قليلًا.

ربَّتَت على رأسه وقبَّلَته بين عينيه، بعدما وضعَت ما بيديها على مكتبه، وخرجَت غير راضية. نظر إلى الورقة، وجدها تلفَت من أثر الحبر الساقط عليها، فقطب وجاء بأخرى، فردها، ونظر إلى العنوان في القديمة، ونقله كما هو بين قوسين في الجديدة، (الغجر)، وراح يعيد التدوين.. ولما انتهى، لم يطق صبرًا، وأمسك بورقة جديدة..

لم يغفل تدوين أخبار عهد البابا «پولُس الرابع» في روما، الذي شهد تنامي نفوذ محاكم التفتيش في بلاده، ولم تأخذه هوادة بأحد في سبيل إصلاح الكنيسة على النسق الذي يرضيه، لدرجة أنّه سجن بعض الكاردينالات الذين اختلفوا معه، لتزداد ضغائن من حوله. وفي أواخر أغسطس، مات بعد صراعٍ طويل الأمد مع الزحار وهو في الثالثة والثمانين، ودُفن في كاتدرائية القديس بطرس، وعقب دفنه لم يطق الأهالي صبرًا، وقام بعضهم بقطع رأس تمثاله القائم في «كاپيتولي»، وكتب بعضهم هجائيات فيه، وخلَفَه البابا «پيوس الرابع» ليرث كل هذا الغضب.

في العام نفسه، منتصف سبتمبر، أكملَت الملكة «إيزابيلّا» عقدها الرابع، ورحلَت متأثّرة بمرضٍ ألمَّ بها، في مدينة «غولافاهيرقار».. وانتهَت رحلة «شارلكان» في «ديرِ يوستي» بإسپانيا، الذي اعتكف فيه قبل عام تاركًا حكم إسپانيا لابنه، والنمسا لأخيه، وتوقفَت سني عمره عند الثامنة والخمسين.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

-٣٠-

إسلام بول، ٩٦٦ ه

«الشجاعة بلا حذر جوادٌ أعمى».

فور وصولي العاصمة، طلبني الوزير الثالث «صوقولّو» إلى جواره، وحضرتُ معه تجهيز حملته - بأمر السُّلطان- للخروج والقضاء على تمرد شاهزاده «بايزيد» معترضًا على تسمية شقيقه شاهزاده «سليم» كوليّ للعهد، فجمع جيشًا بلغ عدده عشرين ألف جنديّ، لقتال جيش أخيه. اتجهتُ مع «صوقولّو» وجيشه صوب «قونيه»، وفي الثالث عشر من شعبان سنة ست وستين وتسعمئة هجرية، الثلاثين من مايو في السنة التاسعة والخمسين وخمسمئة وألف ميلادية، دارت المعركة، وأظهر جيش «بايزيد» تفوّقًا ملحوظًا، ولكن مع استمرار القتال ونظرًا لأكثرية الجيش السُّلطاني في العدد، تلاشى تفوّقه، بعد جرح الأمير المتمرد، وفي اليوم التالي لاحت هزيمته في الأفق، وتراجع الأمير بجيشه حتى «آماسيه»، ومنها فرّ إلى حدود العجم، ولما دخلها، أُخبرنا أنّ الشاه «طهماسپ» علم بالأمر، ودعاه إليه واستقبله بحفاوة، وأظهر له الإخلاص والاستعداد لحمايته، وتمكّن بدهائه من تشتيت جيشه ووضعه قيد المراقبة. وفي الوقت نفسه، كاتَب السُّلطان وشاهزاده «سليم» سرًا، وفاوضهم على تسليم الأمير وأولاده لقاء الذهب!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ظلّ «بايزيد» في معيّة الشاه قرابة عامين، حتى سلَّمه نظير خمسمئة ألف ذهبية، والكثير من المجوهرات والتحف الثمينة. وفي يوم التسليم، ذهبتُ مع السفير «سِنان آغا»، سأله الشاه:

- هل تعرف شاهزاده «بايزيد» عندما تراه؟

رد السفير قائلًا:

- كنتُ قد رأيتُه أثناء شبابه، ودخلتُ في خدمته عدة مرات؛ وعلى كل حال، فالشارب واللحية اللذين في وجهه لن يمنعاني من معرفته الآن، وأظن أنني سأعرفه بدلالة العين والحاجب..

استمر الشاه في أعماله، وإمعانه في إهانته لآل عثمان، فأمَرَ بحلق شعر ولحية شاهزاده «بايزيد»، وألبسه رداء باليًا مصنوعًا من الصوف الأخضر الرخيص، وفوق رأسه عمامة خشنة، حتى سلّموه هو وأولاده لمبعوثي السُّلطان على ذلك الحال الرَّثّ، في مدينة «قزوين»، يوم الأربعاء، الخامس عشر من المحرّم سنة تسع وستين وتسعمئة هجرية، رابع أكتوبر، سنة

ستون وخمسمئة وألف ميلادية، لإنهاء أمرهم بأمر مُسبق من السُّلطان، كنتيجة – اعتياديّة- لتمرُّده وانشقاقه وعصيانه، فتم إعدامه هو وأولاده الأربعة في المكان نفسه بالأراضي الصفوية، ولم يتوقَّف أهل «قزوين» عن الصياح والأنين والنفور والطعن في السفراء، وصبّ اللعنات على شاهِهِم.

حمل «علي آغا» ورجاله جثامينهم، ونقلها إلى مدينة «سيڤاس»، ودفنوها هناك، ثم توجَّهوا إلى «بورصه» لقتل ابن «بايزيد» الرضيع، بينما شدَّدَ السُّلطان أوامره بعدم التعرُّض لبنات الأمير الأربعة، وإبقاء حياتهن دون مساس. (لم أفهم كيف يحكُم ذلك التَقيُّ بقتل رضيعٍ، وأين استفتائه لأهل الدين من ذلك، لكن أمانة التدوين تقتضي مني ذكر ما أكره، كما أذكر ما أستحسِن)

وَصَلَ السفير إلى شاهزاده «سليم»، وأخبره ما حدث بالتفصيل، فغُمر ومن معه في العطاء الوفير، غير التحف اللائقة من أجل الشاه، الذي ردَّ بأنواع التحف والهدايا والكتب والمصاحف المذهبة المرصعة، ووقَّع مرة أخرى على الإخلاص والصداقة بين الطرفين، وازدادت أواصر عهودهم قوةً.

وبتكليف من «صوقولّو»، عدتُ إلى مَجَرستان مرة أخرى، لأكمل المهام التي يجب استكمالها، وفي الوقت نفسه، أُلبّي نداء القلب الذي ما كفّ عن الأنين بسبب فراق المحبوب. وعند وصولي، دخلتُ إلى وكر الهداهد لأطمئن على سير الأمور، فلم أجد ما يسُرُّ من الأخبار، فقد عاث الوغد المجهول فسادًا كثيرًا، ولم يستطِع أحد الإيقاع به. وفي الصباح، ارتكنتُ إلى إحدى الأشجار، أسقط الخريف أوراقها، فرأيت فيما سقط منها سنين عمري، احتسبتُها لأجدها قد تخطّت الثلاثين، فخرجَت مني تنهيدة حارة، وقمتُ مثَّاقلًا، لأعبر الضفة، عساني أطيّب ما ألمّ بقلبي برؤية وجهها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

-٣١-

مجرستان، ٩٦٩ ه

«الشك أول الطريق إلى الحقيقة».

في السنة الثانية والستين وخمسمئة وألف ميلادية، وضعتُ خطة مع الهداهد، للإيقاع بسارق الرسائل. وصلتُ قبلهم عند الأشجار المعنية، فوجدتُ ملثمًا قد نبش المكان الذي اقترحتُه مُسبقًا للتمويه، يمسك برسالة فحواها «أيّها الوغد». كان مغتاظًا، وحين شعر بالسنابك تضرب الأرض وتقترب منه، ظلّ ثابتًا وظهره إليَّ. ترجّلتُ عن جوادي، وتجمّدتُ في مكاني والغضب يعتريني، عندما رأيتُ اثنين من الهداهد مقتولين، والراعي ممدًا على الأرض غارقًا في دمائه دون حراك. ظَللتُ أحدّق في ظهر الملثّم، كان متصلّبًا يقف في ثقةٍ مفرطة. التفتَ ببطء، ناظرًا نحوي دون إرماش، وببطء أنزل لثامه ورفع رأسه بنفس البطء، لتجحظ عيني قائلًا: - أنتَ! ولم العجب؛ بل كان عليَّ معرفة أن النغل الكرواتي «سونگر» هو من تأنس روحه العفنة للخيانة.

هزّ رأسه مبتسمًا رافعًا حاجبه محدّقًا فيّ بحقد.. سألتُه: - لماذا أخّرتَ وصول الرسالة وقتئذ؟

- أردت هلاكَكَ يا «كمانگير»

- لا عجب!

- كيف للغريب أن ينال كل هذا الفضل من جلالته، وأنا الذي استُجلبتُ صغيرًا إلى الدولة العليَّة، وأُخِذتُ من أهلي عنوة، ونشأتُ منخرطًا في صفوف الانكشارية، لم أنل من مولانا كل هذا العطف، وفي النهاية أُرسَل إلى هنا للخدمة تحت إمرتكَ! أنتَ أيها الضعيف!

- بغضّ النظر عن أنكَ عارٌ على الإنكشارية، وأنّكَ أُرسلتَ إلى هنا نفيًا من العاصمة بسبب أعمالكَ الشاذة، أكُل هذا الحقد يحلل لكَ قتل الرسول وأخذ الرسالة منه، والتسبب في استشهاد رفيق عمري؟ هل رغبتك بإظهاري مقصرًا يجعلك تتسبب في سفك كل تلك الدماء الشريفة؟!

- وأكثر!.. لكنني قلتُ لكَ إنكَ كنتَ المقصود لا هو، كان دوره التالي، لكن شهامتَه جعلَته يسبقكَ.

استلّ سيفه، وأشهره في وجهي، لكنني لم أهتزّ. قال: - هيا، لننهِ هذا الأمر الآن، وهنا.. لن تنجو مني هذه المرة، فما من عملاق لينقذكَ من قبضتي،

وسأجعلكَ تلحق به اليوم.. لا بُدّ وأنّكَ اشتقتَ إليه كثيرًا، أليس كذلك؟

بملامح جامدة وقلب يخفق مهرولًا، وفي خضمّ معاناتي، حاولتُ جاهدًا أن أبدو بخير. أجبتُ بصوت هادئ، قابضًا على سيفي بكلّ ما أمكن من قوّة: - هو ذاك.

كان هبوط نصل «سونگر» فوق رأسي يحمل حقد كل السنوات الماضية، لكنّ ردة فعل نصلي كانت أقوى، لدرجة أن تراجع الوغد عدّة خطوات إلى الخلف، وفغر فاه، وجحظت عيناه واندفع في غيظ يسدّد دون أن يُصيب. استمرّينا، حتّى ضَرِيَ القتال بيننا، دون الغلبة لأحدنا. سمعنا صهيل خيول تقترب، فنظرنا نحو الصوت، ولمحنا الهداهد، فباغتني بضربةٍ من سيفه قاصدًا بطني، وقفز فوق حصانه هاربًا، وقبل أن يختفي بجواده عن ناظري، رميتُه بسهم أصاب بين ظهره وكتفه، لم يسقطه، وظل في طريقه هاربًا، حتّى اختفى بين الأحراش. وصل بعض الهداهد مترجّلين عن جيادهم، متلهّفين للاطمئنان عليّ، كان سيفه قد أصاب جنبي، فقبضت يدي عليه، وظللتُ على ثباتي أنظر صوب الاتجاه الذي فرّ فيه عدوّي، سألني أحدهم: - أعرفتَ من هو؟

هززتُ رأسي آسفًا أن نعم، قبل قولي: - الوغد، «سونگر».

نظروا لبعضهم في وجومٍ، لا يجدون ما يقال. عاد من طاردوه خاليي الوفاض، لم يدركوه، فعدنا معًا في حالٍ من الحزن.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

رغم كل ما ألمّ بي، لم أزل أصارع مقاومًا ضيق الأنفاس، الغصّة الأليمة، الخيانة التي أفجعَتني. عدتُ إلى حيث ضرب الغجر خيامهم واستقرّ بهم الأمر على ضفاف الدانوب، قرب «بودا»، ولما ترجّلتُ عن جوادي، هممتُ إلى النهر، رفعتُ قميصي، فككت الرباط الذي ضمدني به الهداهد، ومسحتُ جرحي جيدًا بالماء، وأعدت تضميده بخرقة من قماش سروالي، أخرجتُها من جرابي. أمعنتُ النظر إلى صفحة النهر، لينعكس وجهي أمامي، تحسّستُ الشعر الذي طال على وجهي غزيرًا، بلّلتُ لحيتي، أخرجتُ خنجري وأخذتُ أجزّ الشعر على خدي، وتركتُ الشارب والذقن كما تعوّدت، ف«ماريا» تحب رؤيتي باللحية، ولكن يجب عليّ تغيير هذه الملامح المستحسنة، حتّى يصير انخراطي بالغجر طبيعيًا، ولا يشك بي أحد، كعثمانيّ. نهضتُ، سحبتُ جوادي خلفي على مهل، حتى وصلتُ إلى خيمتي، فدخلتُها وألقيتُ بجسدي على الفرو المفترش قلب الخيمة، وأسلمتُ نفسي للنوم، الذي جاء أسرع من المتوقّع. ما مررتُ به في الفترة الأخيرة، استحق الراحة، حتّى وإن كانت في القليل من النوم على ذلك الفراش الذي لم يزل يحمل أثر «جابر».

فزززتُ مفزوعًا، على فرقعة عيارٍ ناريّ اخترق الليل الساكن. تعالت الجلبة القريبة، صرخات النساء، وهتافات الرجال، كل الغجر صاروا خارج الخيام، هو ليل هنغاريا، الذي نادرًا ما تفضّلَ عليَّ بقليلٍ من الراحة.

خرجت من الخيمة، تتشوّش الرؤية أمامي، والغصة تعاود وخز قلبي، فتبطئ حركتي نحو الجمع الغجريّ، اخترقتُه بصعوبة، لأجد «مريم» تحتضن أمّها «ماريا»، محاولةً صدَّ الدم النازف من بطنها! جثوتُ، تحجَّر الدمع في مقلتي، ومددتُ يدي المرتعشة إلى بطنها، ودماؤها تنزف من جرحها بغزارة، فقبضت عليها بيدها الدامية وهي تتحدث إليّ بصوت مبحوح متقطّع، فدنوتُ بأذني منها، منصتًا لوصيتها لي على ابنتها «مريم»، ثم سقطَت يدها إلى جوارها، وفارقَت الحياة التي لطالما غالبتها وغلبتها، تنتقل من مكان لآخر على عربات تجرّها الجياد تارة والبغال تارة أخرى، ضاربة خيمتها في مكان جديد مع المخَيّمين، ومرتحلة مع المرتحلين، لم تهنأ، ولم تتوقّف مطلقًا عن الرقص الذي يذهل الرائين، ثم يكون عيارٌ ناري ما أنهى مسيرتها الحافلة بالإدهاش، وسط دموع وصخب وعويل ونواح.

- من أطلق النار؟

سألتُ، وكان الجواب المعتاد: جنديٌّ نمساويٌّ أراد أن يأخذها لنفسه، ولما امتنعت تعقَّبها إلى هنا، وفعل فعلته وهو على صهوة جواده، وفرَّ هاربًا. صرخَت نفسي ناقمةً على كل الأوغاد النمساويين الذين يهرولون خلف شهواتهم، وقفزت فوق جوادي وانطلقت أشقُّ الليل، أفتش الأرجاء لمسافات بعيدة، دون جدوى، فقد انشغلنا بالقتيلة عن مطاردة القاتل. ترجّلتُ مطرقًا، افترشتُ الأرض منهكًا، لكم هو قاسٍ شعور الإخفاق في نفسي.. تلك الليلة كانت استثنائية في شدة الألم.

كفّنوها، لم تدفن معها ممتلكاتها الثمينة، لأنّ «مريم» ورثَتها، لأنّها من دمٍ غجريّ خالص. نقلَت كل شيء إلى خيمة الجدة «فوري داي»، وتابعَت دامعةً إحراق خيمة أمها، وهي على صدري الذي يخفق معها بأشد الحزن.

انتقلَت منذ تلك الليلة إلى خيمة جدتها، التي أضعفَت السنون بصرها، وأخذَت من قوّتها، فعكفَت على رعايتها، ومساعدتها في صناعة الملابس، حتى أصبحَت خبيرة في تلك الحِرفة، وصارت تقضي معظم الوقت في تلك الخيمة، لا تخرج إلّا للقائي.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

مرَّت الأيام، وأنا أحاول اصطياد أي خطأ لأيّ نمساويّ، فأقتنصه متخفِّيًا بالذئب. وفي أحد الأيام، بينما أجلس عند الضفة، سمعتُ العواء الدَّعِيّ قادمًا من الأحراش، فنهضتُ إليه، فعثرتُ على الوشم الحديث.. حفرتُ، أخرجتُ

الرسالة التي أخبرَتني بانعقاد الصلح مع الهابسبورغيين لمدة ثماني سنوات، بشرط استمرار النمسا في دفع الجزية السنوية التي قررتها المعاهدات السابقة، وساعد على ذلك «سِميز علي پاشا» الصدر الأعظم الذي خلف «رستم پاشا» بعد موته في العام نفسه، وذلك لميله إلى السلم وعدم سفك الدماء، ثم تبع الأخبار باستدعاء من الوزير الثاني «صوقولّو» لي. أهكذا يتوقف انتقامي لماريا، وينتهي وجودي بهنغاريا؟!

كان عليّ التحضّر للسفر إلى العاصمة في الغد القريب، متمنيًا أن تكون السنة الرابعة والستين وألف وخمسمئة أفضل من السنين المنقضية. أخبرتُ «مريم» أنني سأغادر عند وقت الشقشقة، ولا أعلم متى سأعود مرة أخرى، فقطّبَت عابسة، وظلّت حزينة طوال الليل، أما أنا فلم أهنأ بالنوم إلّا ساعة. كبرت «مريم» لدرجة كافية لتقرير مصيرها، وظلّت ترفض كل غجريّ يتقدّم لخطبتها، ولم تستجِب لتأثير جدتها. أتتني في خيمتي، أيقظَتني، فتحتُ عيناي عن آخرهما، واندهشت إذ رأيتُها، لكنها جذبتني من يدي لمساعدتي على النهوض، وكانت قد جهَّزَت الجواد أمام الخيمة مسبقًا. قطبتُ متعجبًا لرؤيته، قالت لي، بنبرة الأمر المحببة لي منذ كنت أحملها طفلةً، وأحكي لها الحكايات: - اركب.

ولما تساءلت عن الأمر، كرّرَت قولها: - اركب..

ركبتُ، وعلى الفور قفزت خلفي برشاقة، وأمسكَت بوسطي، ونكزَت بكعبيها بطن الحصان فانطلق بنا. وعلى الرغم من أنني في الأمام، ومن المفترض أن أقود، إلّا أنها هي التي كانت تقود الدابّة، وعند إحدى الأشجار على الضفة توقفَت. نزلَت، فنزلتُ مكررًا تساؤلي: - ماذا هناك؟

لم تجبني، وأخرجَت من الكيس القماشي وشاحًا قد صنعَته لأجلي، وضعَته حول عنقي، ثم طلبَت مني أن أضعه على عنقها. نفَّذت طلبها، وعدلَت هي من وضعه، ثم أخرجَت نصف رغيف، وأمسكَت بيدي، ثم إبهامي، ووخزَته بخنجرها، وأنا أُتابعها مأخوذًا.. ضغطَت عليه، واستقبلَت قطرات دمي على خبزها، وأكلَت القطعة التي عليها دمي، وابتلعَتها، وقامت بالفعل نفسه مع إبهامها، ومدَّت يدها إليّ بالنصف الذي عليه دمها، وقالت لي: - كُل.

لم أستطِع التردد، فأنا أحبّها كما تحبني وأكثر، لا توجد مثل هذه الأفعال في مِلّتي، لكنني لم أجد حرمانية في فعل ذلك، فأكلتُ وابتلعتُ خبزها ودماءها في جوفي، وقسماتها تنفرج من العبوس إلى الفرح، فحسب التقاليد الغجرية أصبحنا زوجَين بميثاق الدمّ. قالت لي «أحبكَ» بالمجرية وبلسان الغجر: - (سيريتلِك). (مَيَن تُومْسِيه پيَار كَارَتآوُن).

قلتُها أنا أيضًا بلغتهم، فهزّت رأسها رافضة وقالت: - قلها بالعربية.

فقلتُها بالعربية صريحة:

- أُحبكِ.

قالت بصوت رقيق:

- متى تتوقّف عن ذلك؟

قلتُ بصدق:

- عندما يلج الجمل في سَمِ الخِياط.

انقضَّت عليّ وعانقتني بحرارة، ثم أبعدَتني عنها، وقالت: - هكذا تزوجنا على عقيدتنا، زوِّجنا على عقيدتكَ.

هذه المرة ترددتُ كثيرًا، متسائلًا في نفسي، أين أجد شهود عدل الآن؛ ثم لم أجد جوابًا مناسبًا، فعقدتُ على الزواج بها أمام ربي أولًا، حتى ترتاح نفسها قبل ذهابي، وبعد ذلك، آتي بشاهدين من الهداهد. استعذت بالله من تكرار فأل تلك الفعلة، إذ عقدت على ماري هكذا في مارسيليا، لكنني لن أدخل بها إلا بعد الشاهدين، فيتم الأمر. تذكّرت جابر في تلك اللحظة، ثم تنهدت وقلتُ: - نقول: أتقبلين الزواج بي، فتقولين زوجتكَ نفسي.

فقالت على الفور:

- زوجتكَ نفسي.

ثم قالت:

- وماذا بعد؟

- تعيدين عليّ نفس السؤال.

- أتقبل بالزواج بي؟

- زوجتكِ نفسي.

عانقتني مرة أخرى، دمعَت عيناها، ضممتُها إليّ وانهمر الدمع من عيني، أكنتُ أبكي على ما فعلتُ، أم على الذهاب، وإن كنتُ لا أعلم أأعود إليها مرة أخرى أم لن أقدر؟ لكنّني قطعتُ عهدًا أمامها أنّني سأعود من أجلها مهما جرى، فاطمأنَّت، فليس غريبًا على عشيرتها غياب الزوج الطويل، وكذلك كان أبوها دومًا. ركبنا الجواد، وعدنا مرة أخرى، فدخلت إلى جدتها، بينما لم أجد للنوم سبيلا، فجهّزتُ أشيائي عازمًا على تنفيذ أمر الرحيل.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في العام التالي.. دمَّر أسطول «طورغودچه پاشا» كامل الأسطول الصِّقِلَي قرب جزر «ليپاري» في السنة الثامنة والستين وتسعمئة هجرية، الحادية والستين وخمسمئة وألف ميلادية. وبعد ظفره الكبير، عاد مرة أخرى إلى إيالته «طربولوس غرب»، لإكمال تطويرها وتوسيعها، ليجعلها من أهم المدن والموانئ على سواحل بحر الروم.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

مسح «كمانگير» دموعه التي تساقطَت فوق الورقة بطرف ثوبه. أكمل التدوين وهو في غاية الحُزن، استنفزه تدوين هذا المخطوط وأصاب روحه من حيث لا يجب، يسترجع ما دار بينه وبين الوغد الكرواتيّ، والنقيض الذي قام به رفيقه الفقيد لأجله، ورحيل الساحرة الفاتنة، ورحيله عن «مريم» ذاهبًا إلى الآستانه. اكتفي بما كتب، نهض مثّاقلًا وأبصر من نافذته القمر الذي سلّط ضوءه على مقلتيه وقد تكفَّفَ دمعُهُما، ولفح النسيمُ علّة روحه مطبِّبًا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

-٣٢-

إسلام بول، ٩٦٩ ه

«لا شيء يؤلم أكثر من الصبر».

ظَللتُ في العاصمة قرابة عام، وبحلول سنة تسع وستين وتسعمئة هجرية، شعرتُ بروحي تغادر جسدي، من أثر البعد عن مصدر حياتي وبهجتها على ضفاف الدانوب، حيث حبيبتي «مريم». قرَّبني الوزير الثاني «صوقولّو»، الذي وثق برأيي ومشورتي، لخبرتي الطويلة وخدماتي في الأراضي المجرية، وإخلاصي في خدمة الدولة، وكلّفني بالمتابعة الدقيقة لسير الأمور بمصنع السُفن، فبذلتُ أقصى جهودي في العامين التاليين، حتّى يرضى عني. ولما رأى مني ذلك، صرنا صديقين مقربين، وأصبح قولي عنده لا قول بعده، ورأيي لا نقاش فيه، فصرت أذكرُ ما سمعت عن أبي، وأتمنى لو يسمعُ عنّي ما صرت عليه.

أرسل «طورغودچه پاشا» تقاريره تباعًا إلى العاصمة لسنوات، لتكون الدافع الرئيسي وراء قرار فتح جزيرة «مالطه»، الذي وافق السنة الثانية والسبعين وتسعمئة هجرية، ذكر في إحداها واقعة السفينة «غاليون» المحمّلة بالبضائع، وهي في طريقها للآستانة، إذ قام بالسطو عليها سبعة سفن مالطيّة بقيادة «فرسان القديس يوحنّا». ولضرورة الحفاظ على الطرق البحرية، لكل من إيالات «مصر» و«الجزائر» و«طربولوس غرب»، كان على العثمانيين السيطرة على الجزيرة، ففرسانها يشكّلون مصدرًا رئيسًا لتهديد السفن التجارية التي تعبر من وإلى هذه الموانئ، وفي حال السيطرة عليها؛ ستتحوّل إلى قاعدة أساسية للتحركات العسكرية المقبلة ضدّ جنوب إيطاليا وجزيرة «صقلية»، وهذا ما تناقشت فيه مع الوزير طيلة الأيام والليالي الماضية.

انعقد الديوان الهمايوني في أحد أيام الخريف، برئاسة الصدر الأعظم «سِميز علي پاشا» وبحضور الوزير الثاني وباقي الوزراء، وطلب «صوقولّو» إحضاري والاستماع إلى تقريري، ولما سألني الصدر الأعظم عن كيفية سير الأمور، فرَدتُ ملفوفتي وقرأتُ على مسامعهم:

«بعد صدور الفرمان الشريف لحضرة مولانا السُّلطان «سُليمان خان» حاكم العالم وملجأه، حفظه الله، تمّ بحمد الله الانتهاء من بناء الأسطول، وجُهِّز للحملة الكبيرة على جزيرة «مالطه»، لضرورة هدم هذا الوكر الذي يقوم بأعمال السطو والنهب على كل السُفُن العثمانية التي تخوض «آق دكيز»، وبعون الله يضمّ الأسطول عشرات السُفُن، مائة وثلاثين باشطرده وقادرغه،

وإحدى عشرة غاليون، ثلاث سفن كارا مُرسل، وخمسين سفينة نقل، والتي تحمل بالإضافة للمؤن مئة وخمسة وسبعين مدفع حصار، عشرين ألف قنطار بارود، أربعين ألف قذيفة، عشرة آلاف معزوق وعشرة آلاف رفش، إلى جانب ثلاثة عشر ألف بحّار على متن السُفُن، وتمّ جمع ستة عشر ألف جندي، موزّعين بين أربعة آلاف وخمسمئة إنكشاريّ، وثلاثة آلاف وخمسمئة من عسكر روم إيلي، وثمانية آلاف من الأناطول. كما تمّ اختيار «پيالي پاشا» قبودانًا للأسطول، وحضرة الوزير «مصطفى پاشا» سردارًا للحملة، وسيلتحق بهم أسطول «طربولوس غرب» عند وصولهم هناك، بقيادة «طورغودچه پاشا». والسلام».

شعر الجميع بارتياحٍ للتقرير، وبعد انتهاء الديوان من المناقشات وانصراف الوزراء، كلّفني «صوقولّو» بالذهاب مع الحملة، وتدوين كل شيء بأمر السُّلطان، وقبل انطلاقها اجتمع السُّلطان بنا، ونبَّه على قادته قائلًا:

- إنّ «طورغودچه پاشا» على معرفة ودراية أكثر من أي شخص بأحوال جزيرة «مالطه»، وبالجهة التي ستضرب منها القلعة، وبالمكان الذي ستقام به المتاريس، فاحذروا أن تخالفوا رأيه.

ويوم الإبحار، كنتُ أسير خلف الصدر الأعظم، الذي تقدم سائر الوزراء لتوديع الحملة. ركب سفينة السرداد «الباشطرده»، وتأمَّل بافتخار عشرات السفن التي ملأت البحر، وقد نظمت صفوف العسكر بانتظام قبل الصعود، آلاف الإنكشارية المسلحين، والمدفعجيّة والبحّارة. ودّعهم، حيوه، انصرف مع باقي الوزراء، بينما راح العسكر يصعدون إلى سفنهم في نظام.

وبعد أن افترقوا، سمعتُ «علي پاشا» يتحدث إلى سائر الوزراء مازحًا:

- لما كان پاش قبودان والسردار معروفَين بابتلائهما بالكيف، فقد أرسلناهما لمشاهدة الجزر. وعلى كل حال، فإن سفنهما كانت مملوءة بالشراب الأفيوني والقهوة، فلا أدري ما الخدمة التي يمكن تأديتها، ولا سيّما أنهما سوف يبقيان في وافر الصفاء بالشراب الأفيوني والقهوة. علاوة على أنهما يظنان أن قلعة «مالطه» لقمة سائغة يسهل تناولها..

ثم تنهّد الصدر الأعظم وأكمل بنغمة حزينة:

- في الحقيقة.. أنا غير راضٍ عن تصرفاتهما ومواقفهما البتة، ولم ترُق لي أفعالهما، ولكن الواضح أنهما لا يتلقيان النصح بآذان صاغية. فليتمّ الله عاقبة هذا الأمر على خير، فأنا لا أتمنّى أن أرى خذلانهما وضعفهما، ولكنّ الله سبحانه وتعالى أعلم بما هو مقدَّر لنا، فلننتظر ونرى كيف ستكون العاقبة..

تعجبتُ من حديثه، كيف يتشاءم الصدر الأعظم ويبتسم في اللحظة نفسها، وهو على دراية تامّة بعدم صفاء قلب القبودان والسردار؟! وأنّى له بهذا التشاؤم قبل انطلاق الحملة؟!، لم ألبث أن ودّعتُه، وطلعتُ متن إحدى القادرغات، وظللتُ بها حتّى أقلع الأسطول.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

مالطه، ٩٧٢ ه

لم يكن أسطول «طربولوس غرب» قد اكتمل بعد، لذا لم يلتحق بنا، وأكمل الأسطول طريقه حتّى وصلنا إلى جزيرة «مالطه»، ولم يستطِع القبودان ولا السردار انتظاره في هدوء لعدّة أيام حتّى يكمل ما أراد ويلحق بهما، وبدأ الجدل، فقال السردار:

- ينبغي أن ننتظره من أجل محاصرة «مالطه»، وحتّى يحين مجيئه علينا أن نصرف همّتنا ونقوم بالسيطرة على قلعة «سنترمه» (سانت إلمو)، فهي برج متين حاكمًا ل «مالطه»، وحتّى يتمّ ذلك، يكون «طورغودچه» قد وصل، وبعد ذلك، نصرف همّتنا ونتوجّه معًا إلى «مالطه» ونضرب الحصار عليها.

قال القبودان:

- حضرة السردار.. علينا انتظار أسطول «طورغودچه» كما أمرنا السُّلطان.

- سنقدم لجلالته هذا الحصن كهدية حتّى يصل الأسطول.

وصل الأمر إلى باقي السفن، حينها تكدَّرتُ، إذ كان لابد من الانتظار، لأنّ القلعة لا تقلّ عن «مالطه» متانة، وقد تستنفد كل الطاقة ولا يتمّ المطلوب. لكن كان الجند قد نفذوا الأمر، ونصبوا المدافع والمتاريس، وحاصروا «سانت إلمو» بإحكام.

تغيَّر حال الجزيرة عَمَّا كانت عليه قبل عشرة أعوام ونيف، صارت أكثر إحكامًا، وتمّ بناء قلعة «سانت إلمو» المنيعة على اللسان البحري الفاصل بين ميناء «مارسا» الكبير، وبين ميناء «مارسا موسيه»، وبذلك كان بالإمكان ضرب القلعة بالمدافع من كلا الجانبين، أمّا حصن «سانت أنجيلو» المنتصب على الطرف المقابل لميناء «مارسا» كان في غاية الاستحكام. وبالقرب من القسم الداخلي للرأس البحري، كانت تقع جزيرة «سانجلي» التي بُنيَت فيها قلعة «سانت ميشيل»، وأحاطت السفن المربوطة بواسطة سلاسل قوية بالميناء، لمنع دخوله.

لم تكن القوة العسكرية في الجزيرة كافية لصدّ الهجوم، ماذا يمكن أن يفعله خمسمئة من فرسان القديس يوحنّا، وألف من جنود الإسپان وتوسكانا، وألف من الجنود الموجودين على متن السفن، بالإضافة إلى تسعمئة من الأهالي أمام آلاف العسكر؟! لذا، بلغنا أنهم عندما عرفوا بخبر إبحار أسطولنا؛ أسرعوا بطلب النجدة من البابا وإسپانيا، ووصلهم بعض الجنود والمساعدات.

وصل «طورغودچه» وأسطوله بعد سبعة أيام من الحصار، وما لبث أن لاحظ ارتكاب السردار هفوة كبيرة، بعدم احتلاله للمرتفعات المحيطة بالقلعة، مع تركيز جهوده على حصن «سانت إلمو». لم يصدق نفسه، وشعر ببالغ الأسف، وأصابه الكدر، وصرَّح شاكيًا أمامي:

- ما الفائدة التي سنجنيها من الاستيلاء على هذه القلعة؟! فحتّى لو تمكَّنا من بناء عشرات القلاع مثلها، فلن نتمكن من السيطرة على الجزيرة، ما لم نسيطر على قلعة «مالطه»؟!

لكن لم يعُد هناك سبيلٌ للتراجع، فقام ببذل ما في وسعه؛ ولأنه لم يكن في استطاعته معالجة الخطأ، أخذ على عاتقه تسيير حصار الحصن، معتمدًا اعتمادًا كبيرًا على المدفعية والعسكر المتخصصين في وضع الألغام، وشدّد محاصرة الحصن، وهيأ جنوده لاقتحامه، ودائمًا ما كان في مقدمتهم كعادته، حتى دان لنا الحصن في اليوم السابع عشر، لكن بعد جُرح الكثير من العسكر، وموت الكثير منهم. فترت حمية العسكر المحاربين، وقصم وسط «طورغودچه»، وصرفت معظم مهماته وباروده وسائر مستلزماته في السيطرة على «سانت إلمو»، قبل توجُّهنا إلى «مالطه». أقام العسكر المتاريس، وبدءوا في ضرب القلعة بالمدافع، أوصاهم بتنفيذ هجوم عمومي، وتولّى هو قيادة الهجوم على حصن «سانت تانچ»، ولكن، لما لم يحن أوان فتحها ولم يُقدَّر في ذلك الوقت، بدأت أسباب الموانع في الظهور..

على حين غرة، سقطت إحدى الدانات القادمة من القلعة وأصابت شظاياها «طورغودچه». رأيتُه يسقط أرضًا وينهض من جديد، هرعتُ إليه، فإذ به يترنح لا يقوى على التوازن، يتدفَّق الدّم من أذنيه وأنفه وفمه، ناديته، فلم يجبني وخرَّ على الأرض. حملتُه وبعض العسكر إلى خيمته، فظلّ راقدًا في فراشه لأربعة أيام غائبًا عن الوعي تمامًا، وبقيتُ إلى جواره والحزن يغمرني، وفي يوم الأربعاء خامس عشر ذي القعدة سنة اثنين وسبعين وتسعمئة هجرية، الثالث والعشرين من يونيو، فارق الحياة، وعلى الفور قام «قلج علي پاشا» بنقل جثمانه برفقة خمس من سُفنه إلى ولايته، عازمًا على دفنه بالمدفن المجاور للجامع والمدرسة اللذين بناهما هناك.

تابعتُ ما آلت إليه الأمور ببالغ الحزن، رأيتُ السردار يقف أمام العسكر، يتحدث إليهم قائلًا إنّ هذا الأمر مقدَّرٌ على هذا النحو بتقدير العليِّ القدير، وظل يعمل جاهدًا على رفع الروح المعنويّة لهم، فأقر زيادة رواتبهم، وأنعم وأحسن عليهم، لكنّه لم يلتفت إلى قبودان پاشا، على الرغم من أنّه محاربٌ ذو خبرة ولا يقلّ عن «طورغودچه»، ولم ينعم أو يحسن على من هم في فرقته، فتبدَّل ما بينهما من وئام إلى خصومة، لكن راح كل منهما يُكمل عمله، فاندلعَت معارك بالغة العنف والدموية أثناء حصار قلعة «سانت

مايكل»، الذي بدأ صبيحة اليوم الثالث والعشرين من ذي القعدة، أوّل يوليو. وبعد مضي شهر، لم تكن الهجمات العمومية التي شُنّت لمرات متوالية قد أسفرَت عن أية نتيجة بعد. كما أنّ موسم الحملات البحرية بدأ بالانحسار، واقتربت عواصف الخريف، وأوشكت الزوابع البحرية، وواصل الأسطول الإسپاني الهجوم على أسطولنا للتخفيف من وطأة الحصار، وتمهيدًا لوصول باقي المساعدات الإسپانية والبابوية في أية لحظة، حتّى تقلّصَت مؤن وعتاد أسطولنا، علاوة على استشهاد «طورغودچه» الذي كان له وقعٌ بالغ السوء على معنويات العسكر بشكل عام.

أمَرَ السردار «مصطفى پاشا» برفع الحصار في اليوم الثالث من صَفَر سنة ثلاثة وسبعين وتسعمئة هجرية، ثامن سبتمبر، وظلَّ العسكر لثلاثة أيام على الجزيرة، يُحمِّلون كافّة المعدّات الحربية على متن السُفُن، حتى غادرنا بعد حصار دام لثلاثة أشهر وثلاثة وعشرين يومًا، وتحرَّك الأسطول عائدًا بنا إلى العاصمة، بينما واصل «پيالي پاشا» معاركه في «آق دِكِز» وبحر الجُزُر، بثمانين قادرغه.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

إسلام بول، ٩٧٣ ه

عقب وصولنا، علمنا بانتقال «سِميز علي پاشا» إلى دار البقاء، في العشرين من ذي القعدة سنة اثنين وسبعين وتسعمئة، الثامن والعشرين من يونيو، دون إدراكه النتيجة التي توقّعها مُسبقًا، وحلَّ محلَّه في الصدارة العُظمى «صوقولّو محمد پاشا». عرف السُّلطان أنباء الهزيمة وأثارت استياءه، وأمَرَ صدرَه الأعظم بالتحقيق مع كل القادة الذين شاركوا في الحملة، للوقوف على الأسباب الحقيقية لهذا الإخفاق. وأثناء الديوان المنعقد، اتَّهم بعضهم بعضًا، وراح كلٌّ منهم يحمِّل الآخر وِزر الإخفاق، فقلتُ عندما طُلبَت شهادتي:

- كان قبودان پاشا، كلما تطلق المدافع، ينبّه على الطوبجية (جنود المدفعية) قائلًا: «إنّ السردار ينام في غفلة القيلولة، وينبغي ألّا تطلق المدافع». ولما تمّ التنبيه على الطوبجية بعدم إطلاق المدافع، ماذا كان ينبغي عليهم أن يفعلوا؟! وكيف يمكن أن يسعى ويهتمَّ العسكر بالقتال؟!

صاح السُّلطان في قادته غاضبًا:

- بأيّة جرأة تأتون إلى باب الدولة بهذا القدر من الخجل والحُزن؟! كيف يهلك فاتحون بهذا العدد، وتهدرون أموالًا بهذا القدر بلا فائدة؟!

وبناءً على رأيي، شهد باقي أفراد الأسطول بصحَّة قولي، وتمّت تبرئة الأسطول، وبذلك نجا «پيالي پاشا» من الغضب السُّلطاني، وتمّ تحميل وِزر الهزيمة على عاتق السردار، وتمّ عزله من منصبه.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

واجه «صوقولّو» أولى مشاكله كصدر أعظم، وذلك بعد تأخُّر ملك النمسا «ماكسيمليان» الذي خلف والده «فرديناند» في دفع الجزية المفروضة عليه، واستمراره في التدخل في شئون المجر، واحتلاله مدينة «توكاي» نظير احتلال ملك المجر «چون زاپوليا» إحدى مدائنه، وعادت التوترات بينهم وبين الهابسبورغ مرة أخرى. كُلِّفتُ بالترجمة للرُسُل العثمانيين أثناء المفاوضات، والذين لم يتوصلّوا إلى نتيجة، فغضب السُّلطان أشدّ الغضب وأمَرَ بانعقاد الديوان الهمايوني، وجلس الصدر الأعظم في وجود الوزراء كل في مكانه المخصص له، ووقفتُ أحمل رسالة، وأنتظر الأمر، قال «صوقولّو»:

- أرسل «يحيى لي أرسلان پاشا» بايلرباي «بودين»، المكاتبات المتعاقبة إلى الركاب الهمايوني، حيث عرض الأمر وما آلت إليه الأمور.

نظر إليَّ «صوقولّو» وقال:

- «كمانگير أفندي».. اقرأ ما بها..

فتحتُ الرسالة وقرأتُ ما بها:

- لقد ازدادت كثيرًا تعديات الهابسبورغ الموجودين في مناطق الحدود على الممالك المحروسة السُّلطانية، وخصوصًا بعد محاصرتهم قلعة «أكره»، فلما لم يكن قد حان وقت فتحها، فقد تجاوز الملاعين كثيرًا، وازدادت شقاوتهم، وانتشرت مفاسدهم يومًا بعد يوم.

قال «صوقولّو»:

- وعلاوة على ذلك، فقد ذكر عدة مرات أنّ «چون زاپوليا» أمير أردل يصرخ من تعديات ملك «نمچه»، الذي فتح باب الفتنة والفساد بالاستيلاء على قلاع «سقمار» و«طوغاي» من قلاع «أردل»، وهكذا كتب «يحيى پاشا» عدة مرات وطلب المدد من مركز الدولة، ولما علم مولانا صاحب السعادة، وحامي العالم، ثارت فيه عروق الغيرة والحِمية السُّلطانية، وقام جلالته بتعيين الوزير الثاني «پرتڤ پاشا» صاحب الدراية الحربية العظيمة سردارًا، وتمّ إرساله كطليعة للحملة. أما مولانا فقد شمّر عن ساعد الجد، وأمر بالآتي..

ثم نظر إليّ، ففتحتُ الفرمان وقرأتُه على مسامعهم:

- «... وبناءً عليه، أمر جلالته بتحضير الوزير الثالث «فرهاد پاشا»، والوزير الرابع «أحمد پاشا»، والوزير الخامس «قزل أحمد لو مصطفى پاشا»، و«شمسي پاشا» أمير أمراء روم إيلي، وقاضي العسكر، والنيشانجي «أكري عبدي زاده محمد چلبي»، والدفترداري، وآغا الإنكشارية، وسائر الأعيان والأركان، كلٌ حسب أوامر الصدر الأعظم. والسلام».

أيّد «صوقولّو» هذا القرار بشدّة، لأنّه من صقالبة البُشناق المحبّين للحرب، الميّالين للقتال والجهاد، وخبيرٌ قدير في الحروب والحملات، أخذ على عاتقه متابعة التحضير للحملة بنفسه، وبحماسة لا تفتر راح يجمع العسكر، وأنا أرافقه في كل خطوة يخطوها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

على الرغم من تألُّم جسد السُّلطان من داء النقرس، وإصابته بالأمراض المزمنة والسقم، وتأثّره بسبب الشيخوخة، تقلّد بنفسه رئاسة الجيش، وفي تاسع شوّال سنة ثلاث وسبعين وتسعمئة هجرية، التاسع والعشرين من أبريل سنة ست وستين وخمسمئة وألف ميلادية، انطلقت الحملة من القسطنطينيَّة وفقًا للمراسم والعادات المطبقة منذ القِدَم، تحرك السُّلطان ووزراؤه وسائر الأعيان والأركان، وساروا في الموكب الهمايوني، وراحوا

يخوضون المكان تلو الآخر، وينزلون من منزل إلى منزل، لصدّ الهجمات الهابسبورغية على بلاد المجر التابعة لسيادة دولته. اقتصرت معظم تحركاته على عربته ذات الخيول، وأحيانًا على المحفّة، ولكن في أثناء مروره من بعض المدن والقصبات، كان يمتطي الحصان ويمرّ به.

وصل الركب إلى صحراء «زمون»، قام «شمسي پاشا» في ذلك اليوم بتنظيم طوابير الروم إيلي، وقام بالعرض العسكري الذي لم تشهد الأعين مثله، ونال «سُليمان پاشا» تقدير والتفات السُّلطان لتنظيم صفوف طوابير عسكر «قرمان» صفًا صفًا، وبعد ذلك، قابله الملك الشاب «چون زاپوليا» مرحبًا، بموكب كامل ومرتب، حاز على الإعجاب السُّلطاني، ووعده أنّه لن يبرح حتى يُعيد له ما أُخذ من بلاده، وصدر الأمر بأن يتجه بجنده شخصيًا إلى «أكره»، وببناء جسر عند «وارادين»، وأن يتجه «چون» أولًا بعسكر التتار، الذين انضموا إلى جانبه مع أبناء ملوكهم إلى مُراده، «سقمار» و«طوغاني»، واللذين فصلهما الهابسبورغ عن مملكته قبل ذلك بسنة، وضُمَّت إلى ممالكهم.

عبر الفرسان الجسر متقدمين إلى الأمام، حتّى وصلوا ساحل «باجقه» ذي العشب والماء الوفير، وأسرعوا في العبور. في الوقت نفسه، بلغنا أن «زرينسكي» أرسل جنوده، فحرقوا ونهبوا الحي الخارجي لقلعة «بچوي»، ثم هجموا على القلعة، وأخذوا الكثير من الأسرى، استجلبوا منهم معلومات عن قواتهم، وعن وجهة السُّلطان، ثم وصلوا إلى قرية «پشه» الواقعة بين «سكتوار» و«شقلوش»، وهناك راحوا يأخذون الأخبار من الرعايا بأنّه نزل عسكر كثيرة أمام «شقلوش». وفي الحال، توجّهوا صوبها بهدف التأكد من تلك الأخبار، لكن انهمرَت أمطارٌ شديدة، أوقفَت كل التحرّكات. وفي الوقت الذي اعتقد فيه حرس القلعة أنّ أعداءهم عاجزون عن التحرّك والهجوم لشدة الأمطار وكثرة الوحل، وأنهم في مأمن حتّى وقت السَحَر، شكّل الجند طوابيرهم، وهجموا على قومندان القلعة وابنه وعسكره، وقتلوهم جميعًا، وخربوا ونهبوا كل ما قابلهم.

وعند وصول الخبر إلى السُّلطان، اعتراه الغضب، وصرف النظر عن التوجّه إلى ناحية «أكره»، وأمر بالعبور إلى ساحل «سرم»، حيث كان قائد أسطول الدانوب «علي بورتوق» مكلفًا بالحفاظ على سُفُن الذخيرة بسفينتَي «قادرغه»، وبناء جسر هناك، وفي الحال وصله الأمر بنقل الجسر وإقامته على نهر «دراوه»، وتكليف «علي آغا» قائد الإنكشارية بإتمام هذا الأمر. وخلال عشرة أيام، تم بناء الجسر، ونزل السُّلطان مع العسكر في صحراء «أوسك»، وعبرنا جميعًا إلى صحراء جبل «أرشان» العظيم.

في اليوم التالي، ضُرِبَ رأس «أرسلان پاشا» أمير أمراء «بودا» بسيف الإعدام السُّلطاني أمام الأوتاق الهمايوني، وكان جرمه أنّه لما سمع أنّ السُّلطان انطلق يقود الحملة، جمع عسكر إيالته وحاصر قلعة «بولاطه» الواقعة قرب «أستوني بلغراد»، والتي تجاوز تصرف جنودها الحد. وعندما علم ملك النمسا بتوجه السُّلطان إلى الحملة، جمع جنوده، وأرسلهم على «أرسلان پاشا»، الذي لم يستطِع المقاومة، واضطر إلى رفع الحصار عن القلعة، والإسراع لحماية «بودا». إلّا أنّ جنود الهابسبورغ سبقوه واستولوا على قلعة «پسپرم»، ومن بعدها قلعة «تاتا»، ثم نظّموا صفوفهم بالقرب منها، وانتظروا تحرك عسكر السُّلطان.

وعلى الفور، عهد بإيالة «بودين» لفاتح قلعة «قوربه» بالبوسنة قبل عام، «مصطفى پاشا» أمير سنچق «البوسنة»، وهو أخو الوزير الأعظم «صوقولّو». سلّم على السُّلطان بالقرب من «ولغوار» مع عسكره، وأرسل مع أمير أمراء «قرمان» لحماية «بودين»، وكلفوا بالإقامة عند رأس البحيرة الواقعة قرب «أستوني بلغراد» وبحماية تلك الأطراف. وهناك، عُيّن «شمسي پاشا» أمير أمراء الروم إيلي، كطليعة للعسكر لمحاصرة القلعة، وأرسل القبودان «علي بورتوق» و«نصوح بك» أمير سنجق «بوژغة» معًا لاستطلاع الأماكن التي ستقام بها المتاريس.

وفي اليوم التالي، العشرين من المحرم سنة أربع وسبعين وتسعمائة هجرية، خامس أغسطس، وَصَلَ السُّلطان مع العسكر مشارف «سكتوار»، وهي عبارة عن غابة «بالوط» كثيفة الأشجار، وعبورها صعب للغاية، لأنها محاطة بنبات الخلنج. رأى الصدر الأعظم أنّ حافّة البحيرة في الجانب العلوي منها هو المكان المناسب لنصب الخيمة السُّلطانية، لأنّ الدانات القادمة من مدافع القلعة لا يمكن أن تصل إليه، فأمر عسكر الإسطبل المسلّحين بالبلط بقطعها، وإخلائها من الشجر، ونُصبَت الخيمة السُّلطانية، ثم باقي الخيام.

قام الوزير الثالث، وأمير أمراء الأناضول بمحاصرة الجانب الجنوبي والغربي من قلعتها، وحاصر الوزير الخامس وأخوه الأصغر أمير أمراء الروم إيلي الجانب الشمالي منها، ودخل آغا الإنكشارية إلى المتاريس الواقعة بين فرقة جيش الوزير الثالث «فرهاد پاشا» وفرق الروم إيلي، وتمركز القبودان وأمير «بوژغه» في الجانب الغربي لفرقة جيش الوزير الثالث، وعلى هذا المنوال شرع في ضرب القلعة ليل نهار من الجهات الأربع، وتم تعيين سنچق «كوستنديل» في نقطة حراسة، وكلِّف بالعبور إلى خلف بحيرة «ريكه» كثيرة الوحل، وحتى تتدفّق مياه البحيرة المحيطة بالقلعة الداخلية، قاموا بقطع السد.

وبعد عدة أيام، نفد ماؤها تمامًا، ولكن ظلّ بها الوحل والطين الذي يإمكانه ابتلاع الجِمال، فأحضر العسكر وَبرًا كثيرًا لغزل قفازات لحمل الحطب، وتم ملء الأجولة بالتراب، واجتهدوا في ردم ذلك المستنقع، حتى استطاعوا خلال عدّة أيام إنشاء طريق واسع يمتد حتى جدار القلعة من كل جانب، وهكذا تجلّت إمكانية الاستيلاء على حصنها. سحب بعض العسكر الأعمدة، وبعضهم قطع القضبان يدق بها، والبعض الآخر سكب القطران داخل المتاريس وأشعل النيران، وتمّت السيطرة على الحي الخارجي للقلعة في الحادي عشر من صَفَر سنة أربعة وسبعين وتسعمئة هجرية، سادس سبتمبر سنة ست وستين وخمسمئة وألف ميلادية، وقُتل ما يزيد عن ستمئة من جند الحامية.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وضع «كمانگير» قلمه، دون أن يطوي الصحيفة أمامه. سعل بشدّة، حتى إن «مريم» دخلت عليه ملهوفة، فطمأنها بأنه بخير، فأحضرت له بدلًا من القهوة قدحًا من الحليب الدافئ محلى بالعسل، تجرعه ببطء، ثم استأذنها أن تتركه ليشحذ عقله ويركِّز فيما يكتب، فلا شيء هناك يستدعي القلق.. وراح يكمل التدوين.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

-٣٣-

القاهرة، ١٥٦٧ م

انتشر العسكر في كل أنحاء القاهرة، ذلك اليوم الثقيل من نوڤمبر، في السنة السابعة والستين وخمسمئة وألف ميلادية، جُمادَى الأولى سنة خمس وسبعين وتسعمئة هجرية. كان «كمانگير» في دكّانه، يعمل جاهدًا على إنهاء عمله على الوجه الأكمل، رغم أنّه كان منهكًا، لاحظ ذلك «بلال» وكل من رآه. أخذ العسكر يروحون في الخان ذهابًا وإيابًا، فسأل صديقه عمَّا يحدث، فتنهّد «بلال» ودنا منه، وقال بصوت خفيض: - على ما يبدو، أنّ الملعون سيخرج من القلعة اليوم. هكذا يكون الحال عندما يقرر الخروج.

- وما الجديد؟

وقبل أن يجيبه، التفت هنا وهناك حتى يتأكد من عدم وجود العسكر بالقرب، قال مخفضًا صوته أكثر: - أشيع مؤخرًا أنّ أحد شيوخ عرب الصعيد كان هنا في تجارة، وقدّم للوالي الكثير من الهدايا الثمينة والتحف النفيسة وآلاف الدنانير، فقبلها منه.

قطب «كمانگير» وقال:

- وما الغريب؟

- غدر به وقتله، واستولى على باقي أمواله.

شهق «كمانگير» غير مصدق:

- يا الله!.. كيف ذلك؟ ماذا تقول يا رجل؟!

- يا أخي، هذا يشبه ما حدث عندما كان والي اليمن.

- ماذا حدث؟

- قتل صاحب مال، واستولى على ماله، وأجبر أهله على أخذ ديَّته.

- متى حدث هذا؟

- قبل أن يُبعث إلى هنا كأمير أمراء، عُزل من منصبه، ولما ذهب إلى باب الدولة، أشيع بعض الوزراء والوكلاء، وإذا به على الفور يُرَى لائقًا بإيالة مصر..

تلفَّت هنا وهناك وقال هامسًا: - جاء إلى القاهرة في أوائل شوال قبل عام ونصف، وعند وصوله خرج الوجهاء وأصحاب المال لاستقباله، ورحّبوا به أشد

ترحيب، وقدموا له الهدايا الثمينة. بعد ذلك شرع في بناء مسجده، الذي اكتمل منتصف عامنا هذا.

أكمل متهكّمًا:

- وكأنه ببنائه هذا سيكفِّر عن ذنوبه.. لم يكفَّ عن ظلم الأبرياء، واستمر في مصادرة الكثير من الأموال، كلنا قد أوغرت صدورنا تجاهه، وكلنا لا نكفُّ عن ذمّه، فكيف لم تلحظ ذلك؟!

التفت مرة أخرى قبل قوله:

- عن نفسي؛ أدعو الله في كل صلاة أن يأخذه أخذ عزيز مقتدر.

حَوقل «كمانگير» واستغفر، وتساءل إن كان التدوين أنفع عملًا، أم الانتباه لما يحدث بين الخلائق. تمتم: «لا يكلِّف الله نفسًا إلا وسعها»، وأخذ يعمل في صمت، حتى ازدادت أعداد العسكر على نحو مقلق، وهمّوا قاطعين الطرقات تجاه القلعة، لتزداد التساؤلات، ووقف التجار أمام دكاكينهم وأعين كل من في الخان تسأل السؤال نفسه: «ماذا هناك؟». ووسط كل ذلك التوتر، رأوا «سَمعان» قادمًا، يبتسم ويمشي على مهل، ويداه خلف ظهره، غير مكترث بالجلبة من حوله. ضحك «بلال»: - تبتسم في هذه الأحوال؟! يا رجل أفِق، لكأن القيامة قامت.

اتسعت ابتسامة «سَمعان» وقال: - قامت قيامة الخنزير. يا لقسوة هاتور.

قال «كمانگير» و«بلال» في اللحظة نفسها: - قيامة مَن؟

قطّب وقال بالتركية وهو يضغط على كل حرف: - بايلرباي «مهموت پاشا» حضرتلري.

قال «كمانگير»:

- ماذا تقصد؟! «محمود پاشا»!

ردّ «سَمعان» متشفيًّا:

- خرج الوالي بكامل أبهته من قلعة الجبل في موكبه الضخم المهيب، وعلى غفلة من عسكره؛ أصابه عيار ناري من حيث لا يحتسب، وإصابته خطرة.

كتم «بلال» فرحته بصعوبة وهو يقول: - إن شاء الله يسلَّم على أثرها لزبانية جهنم.. أأنتَ متأكد من ذلك الخبر السعيد؟

أومأ برأسه في ثقة أن نعم، فاحتضنه «بلال» وهو يكاد يحمله عن الأرض، وهزّ «كمانگير» رأسه غير مستوعب لما يحدث، قال لصاحبيه: - لا تبالغا في

السعادة، حتى لا يلحظ ذلك العسكر فتذهبان بلا رجعة.

ابتعد «بلال» عن «سَمعان» بسرعة، وقطب وهو ينظر إلى صديقه، الذي قلب شفته وهزّ كتفيه.

قام «كمانگير» وهو يغلق دكانه: - الأفضل في تلك الظروف أن نغلق الدكاكين، ونقفل أبواب بيوتنا علينا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

-٣٤-

صار «كمانگير» كُلّما دوّن ولم يعجبه؛ يكوِّر الورقة بيديه ويحرقها مع أخواتها، ثم يعاود الصياغة بأسلوب جديد، ولم يكن يمانع في إعادة التدوين، حتى يرضى عمَّا كتب.. ظلّ يفعل هذا، حتى انتهى أخيرًا من التدوين، أواخر ديسمبر، وبانقضائه تنقضي السنة السابعة والستين وخمسمئة وألف ميلادية، ويكون قد أتم تدوين ثلاثة مجلّدات، اثنان منهما تأريخه لرحلته، والثالث مذكراته الخاصّة. أغلق المجلد على دفَّته، وكتب على جلدته السوداء السميكة في المنتصف، بالخط الديواني المذهَّب: (أسفار كمانگير أفندي العثمانية)؛ وأسفلها مباشرة بخط أصغر: (بدأ التدوين في السنة الحادية والأربعين وتسعمئة هجرية، وتمَّ في السنة الرابعة والسبعين وتسعمئة هجرية).

في صبيحة النهار التالي، يوم الجمعة، ثامن عشر جُمادَى الآخرة في السنة الخامسة والسبعين وتسعمئة هجرية، التاسع والعشرين من ديسمبر، دخلَت «مريم» عليه غرفته، تتبسّم فتزاداد حُسنًا إلى حسنها، فإذ به يفترش بساط الأرض نائمًا. وضعَت ما في يديها على مكتبه، وألقته بنظرة مشفقة وخرَجَت. عادت مرة أخرى عند الظهيرة، فتعجَّبت أن وجدَته لا يزال نائمًا، فهمَّت بإيقاظه، ولكنها تراجعت تفكر أنه يحتاج كثيرًا للنوم، ولا يجده منذ فترة، فالأفضل أن يستكفي منه. وضعَت ما جاءَت به على المكتب، وأخذَت القدح البارد وذهبَت.

ولمرّة ثالثة عند المساء، كان القلق يُداخلها، فذهبت إليه عازمةً على إيقاظه، لتجده على حاله، وإذ برسالة مفرودة فوق مجلداته الثلاثة، ترك المحبرة مُغلقة فوقها، وإلى جوارهما فوق المكتب قلمه البوص وريشته. سحبَت الرسالة برفق، وأخذت تقرأ ما بها..

كتب في أول سطر ملحوظة: «لا تنسَي إحراقها بعد قراءة ما بها، ولا تتصرَّفي في المجلّد الأخير المكتوب على دفّته (مذكرات كمانگير أفندي) إلّا بعد وفاتي بسنوات كثيرة»..

دقَّ قلبها واجفًا، ونظرت إليه.. أغمضت عينيها تنكر تلك الفكرة، وأعادت نظرها إلى الرسالة..

«لقد أعدتُ صياغة معظم ما دوّنتُ، حتى أنني أُجزم بأنّي أعدتُ الكتابة مرات عديدة، كما أضفتُ الديباجات المعتادة، والكثير من الأوصاف كما يفعل المؤرّخون: ملك البرين والبحرين، ولولا الملامة لكتبتُ ملك الثقلين؛ إلّا أنّ هذا اللقب يختص به حضرة «سُليمان عليه السلام» دُون غيره، وأسهبتُ

في ذكر: سُلطان الربع المسكون، حضرة السُّلطان المطاع في العالم، حامي العالم، ظِلُّ الله في الأرض، الخان عالي الشأن، صاحب السعادة ومدار العبودية، الذي نهايته النصر دائمًا، سُلطان المكان والزمان، وطلّت طلعته البهيّة، يمشي بينهم مشعًا الضوء اللّامع كالشمس، بذاته الشريفة، ونفسه النفيسة، ويده النبيلة الميمونة. وخلافه..

ولما ذكرتُ الحملات والعساكر السُّلطانية والجيش، سبقتُهم أو ألحقتهم بالأوصاف المعهودة: الحملة المكللة بالنصر، المأثورة بالنصر.. الجيش الهُمايوني، المظفّر دائمًا، العسكر المكللون بالنصر، الغزاة الذين يفدون بالروح والرأس في سبيل الله بحق الحق ونبيّه المطلق..

وكذلك فعلتُ عند ذكر الرسائل السُّلطانية، وغيرها من التكريمات والعطايا، كتبتُ: رسالة هُمايونية، العمامة الحمراء والعمامة الذهبية والخلع الخسروانية، الحضرة السُّلطانية، وأيضًا عند ذكر الحاشية والأعوان، فكتبتُ: الأمراء الكرام، مفخر الأعيان، زِيدَ مجده، وغُمروا كما ينبغي بأنواع النِعم السُّلطانية، حيث أكرموا وأنعم عليهم بالضيافة السُّلطانية. البلاط حامي العالم، القسطنطينيّة المحميَّة، الآستانة السعيدة، الممالك العثمانية..

وعند ذكر الأعداء؛ سبقتُهم وألحقتهم بالأوصاف المطلوبة: هزيمة الأعداء الملاعين، أعداء الملّة، أعلنوا خالص عبوديتهم للسُّلطان، والانصياع لأي أوامر عُليا أو فرمانات هُمايونية، وعند ذِكْر ملكهم: الملك الضال، الملعون، المدعو كذا...

وذلك حتّى يرضَى عمَّا بها البكلربكي، ثم يبعث بها إلى السُّلطان في الآستانة ويجزل العطاء لحامله...»

ابتسمت دامعة إذ استشفَّت ما في كتابه من تهكُّم، وأكمَلَت قراءة ما بها على الترتيب..

«... في أواخر السّنة التّاسعة من الهجرة النبوية، عليه أفضل الصلاة والتحيّة، لما نزَلَت آية: «اليوم أكملتُ لكم دينكم»، وذلك يوم الحج الأكبر، بكى حضرة الفاروق «عُمر بن الخطّاب»، فقال له النبيّ صلى الله عليه وسلم: «ما يبكيكَ؟» قال: «أبكاني أنّا كُنّا في زيادة من دِيننا، فأمّا إذا اكتمل، فإنّه لم يكمل شيء إلّا نَقص»، فقال: «صدَقت».

قال الله لحبيبه في كتابه العزيز «إنّكَ مَيّتٌ وإنّهُم مَيّتُون». وهذه سُنَّة الحياة.

إلى هذا الحد اكتمل التدوين الذي دعوتُ خلاله ألّا يغدر بي قلبي قبل الانتهاء.. اليوم أدّيتُ مَهمّتي، ووصَلَت سفينتي اليابسة، وانتهَت رحلتي..

ٍ

أوصيكِ يا حبَّة القلب بالطفل القادم خيرًا، فإن كان ولدًا سَمِّهِ «جابر»، وإن كانت بنتًا سَمِّهَا «مريم».

أحببتُكِ وأُحبكِ يا سَمِيَّة خير نساء العالمين.

نلتقي على خير في دار البقاء يا مَرْيَمي».

طفلكِ: «كمانگير سُليمان».

وضَعَتها كما أمسكَتها برفق، وحدّقت فيه غير مصدِّقة.. نادته بصوتٍ مخنوق:

- «سُليمان»!

لم يجبها، عاودَت نداءه وهي تقترب بخطوات مثَّاقلة، تكذِّب ما فهمت.. جثت إلى جواره، تحسّسَت صدره، فإذ به قد سكن وبَرد. ارتجفَت، انهمر الدمع من عينيها، عاودَت النداء وهزَّه، ضمّته إليها وهي تنتحب، وضعَت كلتي يديها على صدره كما كانت تفعل دومًا، فلم يعد شيءٌ إلى سيرته الأولى، وهي لا تتقبَّل أنه كأي إنسان كُتب عليه الرحيل، تعافر رافضةً فراقه، رغم أنّه كان متوقعًا مع غصّة قلبه المتزايدة. راحت تُقَبِّل يديه وجبينه، أمسكَت بيده ووضعَتها على بطنها المنتفخ، وهي تصرخ نائحة:

- قُم يا حبيبي، تحدّث إلى ابنكَ، انتظره لكي يراك.

ضربَته على صدره بقبضتيها، موَلوِلة:

- لا تتركني، انهض.

لم ينهض، ولن ينهض.. تركها مَن لم يتوقّف عن حبها يومًا.. توقّف قلبه، ولم يعد ينبض باسمها، كما كان يفعل دومًا.. لم يسألها عن ملّتها، ولا كيف تتضرّع إلى ربها، لم يهِنها بتاتًا، ولم يجبرها على شيء. لو أنه أهملها، فهي تعرف أن ذلك على غير رغبةٍ منه، ولكن لأنه أمينٌ أراد أن يكمّل مهمَّته التي قدَّسها. عاملها بالمعروف وبالإحسان واللين، ولما كان لها صغيرةً سندًا، صارَت له كبيرةً جيشًا..

صرخت به في غضب ولوعة..

- لا أسمح لكَ بالذهاب وأنتَ لم تقُل وداعًا بعد!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞)

تمت بحمد الله وتوفيقه)

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

شكر وتقدير

لله الحمد حمدًا كثيرًا طيبًا مباركًا فيه على إنجاز هذا العمل، وإنه ليسعدني أن أتقدم بجزيل الشكر إلى مَن ساندتني ووجّهتني وعلّمتني: د. إيمان الدواخلي

وأشكر كل من ساندني لإتمامه مع حفظ الألقاب:

محمد السيد أبو ريان- هدى يوسف أبو زيد- محمد علي إبراهيم- خالد الجزار.

مروى عليّ الدين- محمد جاد الله- هشام عيد- باهر بدوي- إبراهيم أحمد عيسى.

أحمد حسن سعيد- رضوى أمين- سعاد مصطفى - منى الفيومي- مريم مجدي.

نهاد شيبة الحمد- هبة سالم- ريم الهواري- شيماء يحيى- أمل الجد- إسراء الفقي.

مها محمد- محمد زين- أحمد سوكارنو- محمود فؤاد- دعاء جميل بركات.

جهاد كمال- أحمد محمد عبد الرحمن- عمر محمد أحمد- عصام عبد المعطي.

فيبي فرج- رامي أحمد- شيماء علي- إيمان سمك- أسامة عبد الشكور.

وأتقدم بخالص العرفان لدار "كيان" محمد جميل صبري- نيڤين التهامي

محمد آدم

المواقع الإلكترونية

- موقع الأنبا تكلاهيمانوت القبطي الأرثوذكسي.

/http://st-takla.org

- موسوعة ويكيبيديا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

متميزون
للكتب النصية
E-Book

Group Link – لينك الانضمام الى الجروب

Link – لينك القنـــــاة

الفهرس..

إهداء

تَوْطِئَة

-١-

الليلة التالية ..

-٢-

-٣-

حارة الديلم

-٤-

-٥-

-٦-

-٧-

-٨-

-٩-

-١٠-

-١١-

-١٢-

صدفة، ٩٤٢ ه

-١٣-

-١٤-

-١٥-

مجرستان، ٩٤٥ ه

-١٦-

-١٧-

-١٨-

حصار بودا، ٩٤٧ ه

-١٩-

مارسيليا، ربيع ٩٥٠ ه

الليلة التالية

ليلة الإبحار

-٢٠-

إسلام بول، ٩٥٣ ه

-٢١-

-٢٢-
ترانسلڤانيا، ٩٥٦ ه
مجرستان، ٩٥٨ ه
-٢٣-
-٢٤-
مجرستان، ٩٥٩ ه
-٢٥-
-٢٦-
-٢٧-
-٢٨-
-٢٩-
-٣٠-
-٣١-
-٣٢-
مالطه، ٩٧٢ ه
إسلام بول، ٩٧٣ ه
-٣٣-
-٣٤-
شكر وتقدير
المواقع الإلكترونية